بوالأعلى المودودي

الحجاب

دار الفكر بدمشق

تعريب

محمد كاظم السباق

الطبعة الثانية

١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لوليه والصلاة على نبيه والسلام على كل هاد إلى سويه .

وبعد ، فهذا كتاب ألفته قبل عشرين سنة تقريباً شرحاً لهدي الاسلام ونظامه لما بين الرجل والمرأة من العلاقة في الحياة الاجتماعية وتفنيداً لما قد راج بين المسلمين في هذا العصر من الآراء الباطلة والعادات السيئة والمناهج الموبقة في هذا الباب محاكاةً منهم لحضارة الغرب ومدنيته الزائفة .

قد مضى على تأليفي لهذا الكتاب عشرون سنة ، كما قلت آنفاً ، واني جد متأسف أن ما انهال عليّ في هذه المدة من الاعمال المهمة المتنوعة لم يترك لي المجال ، على رغم ودي، لأراجع النظر في هذا الكتاب وأكمله بمعنى أن أضم اليه ماجد خلال السنوات الاخيرة من المعلومات عن أحوال الغرب وما جرياته وخاصة مايتعلق منها بشؤون المرأة ، حتى يأتي اليومَ

في طبعته العربية وافياً بالمقصود التام وسارداً الوقائع والامثلة متسلسلة من الاول إلى هذه الساعة . بيد أنه إذ لا فرق - من حيث المبدأ على الاقل - بين ما بينت في هذا الكتاب من الاسس والمناهج للحياة الغربية وبين الاسس والمناهج التي تجري فيها اليوم ، وهي هي بذاتها سوى أن قد تجلى للدنيا اليوم من نتائجها الوخيمة وثمراتها المسمومة ما كان خافياً على بعض الناس إلى الامس ، وأرجو أن يستطيع كل من له إلمام بأحوال الغرب واطلاع على شؤون المرأة فيه ، إذا تابع البحث على نحو ماسقته في هذا الكتاب ، ان يستكمل الكتاب ويجعله متناولاً للموضوع إلى هذه الساعة بمعلوماته نفسه .

على أني قد عالجت هذا الموضوع نفسه - موضوع الحياة الاجتماعية - في تفسيري لسورة النور ، فعلى من أراد التفصيل المزيد لأحكام الشريعة الاسلامية وتعاليمها في باب الحياة الاجتماعية ، أن يراجع ذلك التفسير ، فانه عسى أن يجد فيه من تفاصيلها ما قد لا يجده في هذا الكتاب ، وإني على ثقة من أنه إذا قرأ هذين الكتابين معا ، فانه قلما يحتاج إلى كتاب آخر لمعرفة أحكام الشريعة وتعاليمها في الحياة الاجتماعية .



الحقيقة أنني كنت منذ عدة سنوات ماضية أتمنى لو نقل إلى اللغة العربية كتاباي « الحجاب » و « تفسير سورة النور » ، حتى أتمكن بهما

من إبلاغ رسالتي إخواني أبناءَ البلاد العربية ، وذلك أني كنت أشعر بواسطة الجرائد والمجلات التي كانت ترد علينا من مصر وغيرها من البلاد العربية بأن المرأة في البلاد العربية قد بلغت من اعتدائها لحدود الشريعة وانسياقها وراء تيار الحضارة الجديدة درجةً ربما لم تبلغها المرأة حتى في بلادنا نحن ؛ فكنت لكل ذلك أجد في نفسي من القلق والاضطراب ما قد طالما أقض عليّ مضجعي وأجرى الدموع من عيني . ثم انه لما قدّر لي قبل عامين ونصف زيارة بعض البلاد العربية وهناك شاهدت بعيني ما بلغه حقاً تبذل المرأة العربية المسلمة وتبجحها بالعري والفتنة وشدة ولوعها باقتفاء آثار أختها الغربية ، ازددت قلقاً واضطراباً أكثر من ذي قبل .

★ ★ ★

اننا ، مسلمي باكستان والهند ، مازلنا نرزح تحت نير الاستعمار البريطاني طيلة مدة ١٩٠ سنة متوالية (١) . ففي جانب اشتدت علينا وطأة الاستعمار وضغطه واضطهاده إلى هذا الحد ، وفي الجانب الآخر كان ، ولا يزال ، ٩٩٪ - ان لم نقل أكثر - من أفرادنا على جهل تام باللغة التي بها نزل القرآن والسنة ، وما لديهم من وسيلة للارتواء من منهلها الصافي بصفة مباشرة ، حتى ان الذين يمكن القول عنهم أن لهم نظرة في علوم القرآن

(١) بدأ استيلاء الانكليز علينا سنة ١٧٥٧ م ولم نتحرر من سلطتهم السياسية إلا سنة ١٩٤٧ م .

والسنة ، لا يتمكنون من قراءة القرآن بلغته وفهم أحكام الرسول ﷺ بألفاظه إلا بعد أن ينفقوا جزءاً غير يسير من سني حياتهم في تعلم اللغة العربية . ولكن بالرغم من هاتين الظاهرتين فان حضارة أهل الغرب ومدنيتهم لم تتغلغل في بلادنا ولم تؤثر في حياتنا مثل ماقد تغلغلت في بلاد العرب وأثرت في حياتهم في مدة لاتكاد تذكر بالنسبة لامتداد وطأة الاستعمار علينا ، وخاصة أن النساء في بلدنا ، وان كنا دائماً نسكب الدموع على انجرافهن في تيار الحضارة الغربية ، فانهن على جملة علاتهن ومساوئهن يربأن بأنفسهن أن يرتدين الملابس الافرنجية حتى أن اللاتي يرتدينها منهن من الممكن أن نعدهن على الانامل ، وقلما توجد واحدة من الف امرأة تتبرج في الطرق والاسواق وتتعرض للرجال وجسدُهـا مكشوف فوق كعبيها أو يداها مكشوفتان إلى منكبيها ، واني والله كثيراً ما أسائل نفسي أن اخواننا العرب الذين قد شرفهم الله تعالى ببعثة رسوله فيهم ومنهم ، والذين لغتهم لغة القرآن والسنة ، والذين لا يعوقهم شيء عن معرفة أحكام الله ورسوله في كل شأن من شؤون حياتهم إذا شاؤوا ، ماذا عساهم يؤولون بهرواج الملابس الافرنجية البحتة في نسائهم وتدرجهن في الاسواق والاندية والجامع ، بل وسواحل البحار ومسابح الملاهي كاسيات كعاريات ؟ نعم ، إني لا أنكر ما بين العلماء من الخلاف حول جواز كشف المرأة وجهها لغير محارمها ولا ألزم غيري أن لا يرى في هذه المسألة غير رأيي ولكن . . . ياليت شعري ما هو الدليل على جواز كشف المرأة ساقيها إلى الركبتين ويديها إلى المنكبين وجزءاً عظيما من

صدرها وظهرها وخاصرتها ثم تجوالها ـ هكذا ـ في الطرق والاسواق تتعرض الرجال وتغشى الاندية والمجامع المختلطة وتبرز مفاتنها في كل واد بكامل زينتها ؟ وأما ان كانت الحقيقة أن لادليل على جواز كل ذلك ولا تأويل له ، فقل لي بالله أليس هو بخروج سافر على الشريعة الإلـٰهية واستهزاء علني بأحكامها يُرتكب اليوم في بلاد العرب ـ اسـرة النبي وقبيلته ـ على مرأى ومسمع من علمائهم وكتابهم وقادة الرأي والفكر منهم ! ولا أدري ـ والله ـ ماذايتوقع القوم أن يبرئوا به ذمتهم في محكمة الله العليم الخبير يوم القيامة ؟.

والله نسأل أن يتقبل منا هذه الجهود المتواضعة بقبول حسن ويجعل نياتنا وأعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أبو الأعلى المودودي



ماهي المسألة

من مسائل التمدن البشري المعقّدة وأعظمها خطورة وإعضالاً ، مسألتان يتوقّف على حلّهما المستقيم المتّزن رقي الانسانية وسعادتها . وقد حار العلماءُ في إيجاد حلٍ لها منذ قديم الزمان ، ولا يزالون حائرين في شأنها إلى اليوم . أما المسألتان ، فأولاهما صلةُ مابين الرجل والمرأة وكيفية توطيدها في الحياة الاجتماعية ، فإن هذه العلاقة أساسُ التمدن وملاك أمره ، وإن اعوجّ هذا الاساس أو مال عن الاستقامة قليلا ، فلا خير في بناء التمدن الذي ينهض على هذا الاساس المعوج . والمسألة الثانية تتعلّق بما بين الفرد والجماعة من العلاقة . فانه إذا حدث شيء يخل بالاتّزان والتناسق المنشود فيما بينهما من الأواصر والصلات ، بقيت الانسانية تتجرّع مرارته وتذوق وباله قروناً متعاقبة .

ففي جانب هاتان المسألتان وخطورتهما ، وفي جانب آخر إنهما قد بلغتا من التعقد والإعضال أن لا يقدر على حلّهما إلا من أوتي نظرة ثاقبة في حقائق الفطرة البشرية بأسرها ، محيطة بجوانبها . ولقد صدق من قال : إن الانسان عالمٌ أصغر في حدذاته فهذه بنيته وهيئة نفسه وقواه ومواهبه

ورغباته وحاجاته، وكذلك عواطفه ومشاعره وعلاقته بما وراء شخصه من ألوف الأدوات والأشياء وتأثيره فيها وتأثره بها . . . هذه كلها تحتضن عالماً بنفسه لا تنتهي عجائبه ولا يُدرك كُنْهه بسهولة . فلا يمكن أحداً أن يدرك حقيقة الانسان ويعرف سرّه إلا إذا تبيَّن وتوضّح أمام عينيه كل جانب من هذا العالَم الأصغر . ومن الظاهر البيِّن أنه لا يمكن إيجاد حل أو حلول لمسائل الحيـاة البشرية الأساسية إلا بعد أن يُدرك كنهُ الانسان وتُعرف حقيقته معرفة تامة .

وهذه هي المعضلة التي ما زالت ولا تزال تكلّ عنها جهودُ العقل والحكمة كلها وتُظهر عجزها عن استجلاء وجه الحقيقة منها . وذلك أن الانسان لم يُدرك بعد حقائقَ العالم كلها ، ولم يبلغ علمٌ من العـلوم البشرية غايته من النضج والـكمال حتى يصح القول بأنه قد أحاط بجميع الحقائق التي تتعلّق بموضوعه وتنتمي إليه. زد على ذلك أن الحقائق التي قد ظهرَت وبرَزتْ للعين . تبلغ من الدقّة والسَعة والعُمق أن لا يمكن أن يحيط بها بشر ، بل طائفة من البشر في آن واحد . فإن لاح منهـا جانب ، بقي الجانب الآخر مختفياً عن الأنظار ، فتارةً لا تـكاد العـين المبُصرة تنفذ إلى أعمـاقها وطوراً تصبح الميول الشخصية حجاباً دون إدراك الحقيقة . ولهذا العجز المضاعف تخفق جميع الحيل والتدابير التي يختارها الانسان نفسه لحلّ هاتيك المسائل في حياته ، وتُظهر التجارب نقصها في آخر الأمر . والحل الصحيح لا يمكن إيجاده إلا بعد ما يدرك

المرء نقطة الاعتدال التي تستقيم بها الأمور . ونقطة الاعتدال هذه لا يمكن إدراكها إلا بعد أن تكون جميع نواحي الحقائق المعلومة على الأقل - إن لم نقل الحقائق كلها - معروضةً على الأنظار . مرتَّبة على نسق واحد . ولكن قلْ لي بالله ، من أين لك هذه النقطة الوسط إذا كانت سعة الآفاق والمناظر في درجة لا تقدر أن تحيط بها الابصار البشرية ، ثم إذا كان لرغبات النفس ونوازعها وعواطفها وميولها من التأثير البالغ في تفكير الانسان مايصرف بصره عن الحقائق الماثلة للعيان ؟ إن كل حل يوجد في مثل هذه الحال لا بد أن يتسم بإفراط أو تفريط .

بين يدينا الآن المسألة الأولى من المسألتين اللتين تقدم ذكرهما ، وهي وحدها مناط بحثنا في هذا الكتاب فإذا راجعنا بطون التاريخ الغابر واستنطقنا صفحاته بهذا الشأن، وجدنا الأمر في غاية من العجب.. رأينا سلسلة من الإفراط والتفريط جارية في جميع أدوار التاريخ وبين الأمم كلها . ففي جانب نرى أن المرأة التي تلد الرجل وترضعه وتربِّيه وهي أم؛ وتكون شريكته في الحياة تشاطره البؤس والرخاء وهي زوج ؛ قد اتَّخذوها خادماً بل أمَةً ، تُباع وتُشترى محرومة من جميع حقوق الإرث والملك ، وزعموا أنها مجموعة من الذل والإثم . فلا يَدَعون لشخصيتها ومواهبها فرصة للنموّ والارتقاء . وفي جانب آخر نرى أن تلك المرأة نفسها قد عظَّموها تعظيماً وأكبروا من شأنها إكباراً تتبعه موجة عنيفة من فوضى الاخلاق وانحطاط الآداب ، فيتَّخذها الرجال مطيَّةً لأهوائهم ويجعلون منها حبالة الشيطان في واقع الامر . وهنالك

تأخذ الانسانيـة في التردّي والهبوط كلّما تـدرجت المرأة في الترقّي والظهور في هذه الجهة .

وهذان الطرفان المتناقضان لا نسمّيها بطرفي الإفراط والتفريط في لغة النظريات فحسبُ ، بل إنّ التجاربَ إذ جمعَتْ لنا نتائجَها الوخيمة وعرَضتْها مجتمعـةً على أنظارنا ، فاننا نسمّي أحـد الطرفين بالإفراط والآخر بالتفريط في لغـة الأخلاق أيضاً . والسياق التاريخي الذي قـد أشرنا إليه آنفاً يدلّنا كذلك على أن أمة من الأمم حينما تخرج من ظلمات الجهل والهمجية وتتقدّم إلى ميدان المدنية والحضارة ، ترافق رجالَها نساؤهم كالخَدَم والاماء ، ولا يعوقها ذلك عن الرقّي والتقدّم في حلبة التمدن في أول الأمر ، لما فيها من قوى البداوة الفطرية الفعّالة . ولكنها تشعر بعد أن تقطع مرحلة من مراحل الرقي المدني أنها لا يمكنها التقدّم إلى الأمام وشَطْرٌ كامل من كيانها في مثل هذا الانحطاط والتقهقر . فتشعر بعقبة في سبيل رقيّها المدني وتُحسّ بمسيس الحاجة إلى إعـداد هذا الشطر الثاني من بنيتها لمسايرة شطرها الفعّال في ركب الحضارة ، والنهوض بأعباء التمـدن . ولكنها إذا أرادت أن تتـدارك ما فاتها من العناية بتهذيب المرأة وتثقيفها ، لا تقف عند حد ، بل تمضي في هذه الجهة تتقدّم وتتخطّى كل الحدود ، حتى تنجر حرّية المرأة إلى انهيار نظام الأسرة ـ الذي هو أساس التمـدُّن ـ وينفجر بركان من الفحشاء والفجور ، لاختلاط الرجال بالنساء وتـكاد الخلاعة والاستهتار يأتيان بنيان الأمـة الخلقي من القواعد . ولا جرم أن يتبع هذا التدهورَ الخلقي الانحطاطُ

والتقهقرُ في القُوى الجسـدية والمواهب الفكرية والمادية . والأمـة إذا وصلت إلى مثل هذا الانحطاط في نواحي الحياة كلها، قصيرها إلى الهلاك والانقراض لا محالة .

ومن دواعي الأسف أن المقام لا يتّسع لضرب الأمثلة الكافية من ماجريات التاريخ ، إلا أنـه لا بد من عرض بضعة أمثـلة لإيضاح المسألة وشرحها .

اليونان

أرقى الامم القديمة حضـارةً وأزهرها تمدناً في التاريخ هم أهل اليونان . وفي عصرهم البـدائي كانت المرأة في غاية من الانحطاط وسوء الحـال من حيث نظرية الاخلاق والحقوق القانونية والسلوك الاجتماعي جميعاً . فلم تكن لها في مجتمعهم منزلة أو مقام كريم . وكانت الأساطير (mythology) اليونانية قد اتّخذت امرأة خيالية تسمّى « باندورا » (Pandora) ينبوعَ جميع آلام الانسان ومصائبه، كما جعلت الأساطيرُ اليهودية حوّاءَ : العينَ التي تنشق منها جداول الآلام والشدائد . وغير خاف على أحد ما كان لهذه الاسطورة اليهودية الشنيعة عن حواء من تأثير عظيم في سلوك الأمم اليهودية والمسيحية قِبلَ المرأة ، وما كان لها من مفعول قويّ في حقول القانون والاخلاق والاجتماع عنـد هؤلاء الشعوب وكذلك أو دونه بقليل كان تأثير الاسطورة اليونانية عن

(باندورا) في عقولهم وأذهانهم . فلم تكن المرأة عندهم إلا خلقاً من الدرك الأسفل ، في غاية من المهانـة والذل في كل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية . وأما منازل العز والكرامة في المجتمع ، فكانت كلهـا مختصة بالرجل .

وبقي هذا السلوك قبل المرأة في أول عهدهم بالنهضة المدنية ثابتاً على حاله ، ربما تخللته تعديلات قليلة . فانه كان من تأثير ذيوع العلم وانتشار أنوار الحضارة أن ارتفعت مكانة المرأة في المجتمع وأصبحت أحسن حالاً وأرفع منزلة من ذي قبل ، وإن بقيت منزلتها القانونية على حالها لم تتبدل. فهي أصبحت ربة البيت ، منحصرة واجباتها في حدوده ، وأصبح لهـا في داخله سلطة ونفوذ تام . وكان عفافها وتصونها من أغلى وأنفس ما يملك ، ومما ينظر إليـه بعين التقدير والتعظيم . وأيضاً كان الحجاب شائعاً في البيوتات العالية . فكانوا يبنون بيوتهم على قسمين : قسم للنساء وآخر للرجال . وما كان نسوتهم يشاركن في المجالس والأندية المختلطة ولا يبرزن في الأماكن العامة . وكان يعد زواج المرأة وملازمتهـا لزوجها دون غيره من أمارات النجابة والشرف. ولأمثالها كانت الحرمة والمنزلة في المجتمع . وبالعكس من ذلك كانوا ينظرون إلى حياة العهر والدعارة نظرة كره وازدراء .. هذا في عصر كانت الأمة اليونانية فيه في إبان مجدها وعنفوان شبابها وقوتها ، وكانت تنمو صُعُداً إلى الرقي والكمال . ولا ريب أنه كانت توجد عندهم مفاسد خلقية في ذلك العصر

إلا أنها كانت منحصرة في نطاق محدود . وذلك أن الرجال لم يكونوا يُطالَبون بمُثُلٍ من العفاف وطهارة الاخلاق وزكاء السجيّة كانت تُطالَب بها المرأة وتؤاخذ عليها ، بل كانوا يُستثنون من التخلّق بتلك الاخلاق الحسنة ، ولم يكن من المتوقّع منهم أن يعيشوا عيشة ذوي العفاف والحشمة. ومن أجل ذلك كانت المومسات جزءاً من صميم المجتمع اليوناني لا ينفكّ عنه أبداً ، ولا يُعاب المرء إذا عاشرهن وخادنهن .

ثم جعلت الشهوات النفسيّة تتغلب على أهل اليونان ويجرف بهم تيّار الغرائز البهيمية والأهواء الجامحة ، فتبوأت العاهرات والمومسات مكانةً عاليةً في المجتمع لا نظير لها في تاريخ البشرية كله ، وأصبحت بيوت العاهرات مركزاً يؤمه سائر طبقات المجتمع ، ومرجعاً يلجأ إليه الأدباء والشعراء والفلاسفة . فكانت شموساً في سماء العلم والأدب يدور حولها كواكب الفلسفة والأدب والشعر والتاريخ وما عداها من الفنون . . . بل أصبحن القطب الذي تدور حوله رحى الأمة اليونانية فما كنَّ يرأسن أندية العلم ومجالس الأدب فحسب بل كانت المشاكل السياسية أيضاً تُحلُّ عُقَدها وتُنفكُّ معضلاتها بحضرتهنّ وتحت إشرافهنّ . وقد بلغ بهم التهستّك في هذا الشأن أن كانوا يرجعون في المسائل الرئيسية التي تعلو بها أمةٌ وتسفل وتحيى لها وتموت، إلى المرأة التي ربما لا ترضى أن تعاشر رجلاً بعينه أكثر من ليلة أو ليلتين . ثم زاد أهلَ اليونان حبهم للجمال وتذوّقُهم المفرط له تمادياً في الغيّ وارتطاماً في حمأة الرذائل ، وأضرم في قلوبهم ناراً للشهوت لا تخمد فالتماثيل — نماذج الفن العارية — التي كانوا

ينظرون بها وبالافتنان في صنعها وإتقانها ذوقهم هذا، كانت هي التي تحرك فيهم الشهوات دوماً وتمد في غرائزم البهيمية. ولا يخطر لهم ببال أن الاستسلام للشهوات شيء ذميم في قانون الأخلاق والاندفاع وراء تيار الاهواء عار وهجنة. وتبدلت مقاييس الأخلاق عندهم إلى حد جعل كبار فلاسفتهم وعلماء الأخلاق عندهم لا يرون في الزنى وارتكاب الفحشاء غضاضة يلام عليها المرء ويعاب. وأصبح عامتهم ينظرون إلى عقد الزواج نظرة من لا يهتم به ولا يرى إليه من حاجة. فلمّا يرون بأساً بأن يعاشر الرجل المرأة ويخادنها علناً من غير عقد ولا نكاح فكانت النتيجة أن خصعت لأخلاقهم وغرائزهم الشهوانية هذه ديانتهم أيضاً، وانتشرت فيهم عبادة افروديت (Aphrodite) التي كان من قصتها عندهم في الاساطير (Mythology) أنها خادنت ثلاثة آلهة مع كونها زوجة إله خاص. وأيضاً كان من أخدانها رجل من عامة البشر علاوة على تلك الآلهة. ومن بطنها تولد كيوبيد (Kupid) إله الحب، نتيجة اتصالها بذلك الخدن البشري. وما رأيك في أخلاق أمة وانحطاطها المنوي والخلقي اتخذت من هذه الطباع (Character) رمزاً للكمال بل إلهاً يعبد ويقدم له جميع آداب العبودية والذل والخنوع ؟ هذه، ولاريب، درجة من الانحطاط الخلقي إذا تردت فيها أمة، لم تتمكن من النهوض مرة أخرى. وفي مثل هذا العصر البالغ من الانحطاط أسفله ظهرت في الهند (بام مارك) وفي إيران (المزدكية). وأيضاً في مثل هذا العصر نفسه أصبحت الفحشاء والدعارة ينظر اليها بعين التقديس والإجلال في (بابل)

فلم تمض على ذلك عشية أو ضُحاها حتى آل أمرها إلى الانقراض، وأصبح أمرها من خبر كان وأمس الدابر. ولما انتشرت عبادة افروديت في اليونان، أصبحت مواخيرُ الدعارة وأماكن الفجور مركزاً للعبادة وأصبحت المومسات متنسكات وخوادم للمعابد. وعظُم شأن الزنى إلى أن ألبسوه كساءاً من العمل الديني المبرور.

ثم ظهرت الغريزة البهيمية في أهل اليونان بمظهر آخر، هو أن انتشرت فيهم سَوءة قوم لوط انتشاراً كاد يأتي على الأخضر واليابس، ورحبت بها الديانة والأخلاق أيضاً. ومما هو حريّ بالذكر أننا لا نرى لهذه السَوْءَة المنكرة أثراً في عصر هومير وس وهسيود، ولكنه لما ترقت المدنية وأخذت في تزيين العري واتباع الشهوات بالاسماء الجذابة كالفن وتذوّق الجمال (Aesthatic Taste) التهبت الغرائز الشهوانية في القوم التهاباً جعلهم يتنكبون الطريق الفكري، ويتخذون لإرواء غليل شهواتهم طريقاً تأباه الفطرة وتمجه الطباع السليمة. وساعدهم على ذلك حُذّاق الفن بإبراز هذه العاطفة في التماثيل. وشهد علماء الاخلاق عندهم بأن هذه (العلاقة) آصرة للصداقة وثيقة بين الرجلين. واليونانيان اللذان هما أول من عظّمتهم الامـــة وأكرمتهم ببناء تماثيلهم هما: هرموديس وارستوجيتن اللذان جمع بينهما ذلك الحب المنكر الذي تأباه الفطرة البشرية.

وبعد، فالتاريخ شاهد بأن أن اليونان لم يكن من نصيبهم المجد والرقي بعد ذلك مرة أخرى.

الرومان

والذين تسنّمو ذروة المجد والرقي في العالم بعد اليونانيين، هم الرومان. وفي هذه الامـة أيضاً نرى تلك السلسلة من الصعود والهبوط التي قـد شاهدناها في اليونان فحينما خرج الرومان من عصر الوحشية وظلمة الجهل، وظهروا على مسرح التاريخ لأول مرة ، كان الرجـل رب الاسرة في مجتمعهم ، له حقوق الملك كاملة على أهله وأولاده ، بـل بلغ من سلطته في هذا الشأن ان كان يجوز له حتى قتل زوجه في بعض الاحيان .

ولما تخففت فيهم سَورة الوحشية وتقدموا خطوات في سبيل المدنية والحضارة، تخففت القسوة في تلك السلطة وجعلت الكفة تميل الى الاستواء والاعتدال شيئاً فشيئاً ، وإن بقي نظام الاسرة القـديم ثابتاً على حاله . وهؤلاء لم يكن الحجاب عندهم معمولاً به - كاليونان - في إبان مجـد الجمهورية الرومانية ورقيها. لكنهم كانوا قيدوا النساء والشباب عامة بقيود مثقلة من نظام الاسرة . فالعفاف كان شيئاً يُنظَـر اليه بعين الإجلال ولا سيما في شأن النساء ، وكان يعدُّ مقياساً للشرف وكرم المحتد . وكذلك كان مستوى الاخلاق عندهم عاليا . ومن أمثال ذلك أن اتفق ذات مرة أن عضواً في مجلس الشيوخ قبّل زوجَه أمام ابنته . فغضب عليه القوم وحكموا على صنيعه بأنه غض من كرامة الخلق القومي وإهانة له وأمضوا قرار التنكير (Vote of Censure) عليه في مجلس الشيوخ . هذا وما كان مباحاً عندهم ولا مرضياً في أخلاقهم أن يتماشر الرجل والمرأة بدون

عقد مشروع . وما كانت المرأة تتبوأ مكانة العز والكرامة في المجتمع إلا بأن تكون أماً لأسرة (Matron) . والمومسات ، وإن كانت طبقتهن موجودة وكان الرجال نوع من الحرية في مخادنتهن ، إلا أن عامة الرومان وجمهورهم كانوا يزدرونهن وينظرون اليهن نظرة احتقار وتعيير . وكذلك ما كانوا ينظرون بعين الاستحسان إلى الرجال المخادنين لهن .

ثم أخذت نظرية الرومان في النساء تتبدل برقيهم وتقلبهم في منـازل المدنية والحضارة . وما زال هذا التبديـل يطرأ على نظمهم وقوانينهم المتعلقة بالاسرة وعقد الزواج والطلاق ، إلى أن انقلب الامر ظهراً لبطن ، وانعكست الحال رأساً على عقب فلم يبق لعقد الزواج عندهم معنى سوى أنه عقد مدني Civil Contract فحسب ، يتوقف بقاؤه ومضيه على رضا المتعاقدين ، وأصبحوا لا يهتمون بتبعات العلاقة الزوجية إلا قليلا. ومنحت المرأة جميع حقوق الارث والملك وجعلها القانون حرة طليقة لا سلطة عليها للأب ولا للزوج . ولم تصبح الرومانيات مستقلات بشؤون معايشهن فحسب ، بل دخل في حوزة ملكهن وسلطانهن جزء عظيم من الثراء القومي على مسير الايام . فكن يقرضن أزواجهن بأسعار الربا الفاحشة ، مما يعود به أزواج المثريات من النساء عبيداً لهن في ميادين العمل والواقع. ثم سهلوا من أمر الطلاق تسهيلا جعله شيئاً عاديا يلجأ إليه لأتفه الاسباب. فهذا (سينكا) الفيلسوف الروماني الشهير (٤ ق.م - ٥٦ م) يندب كثرة الطلاق ويشكو تفاقم خطبه بين بني جلدته ، فيقول: « انه لم يعد الطلاق اليوم شيئاً يندم عليه أو يستحيا منه في بلاد الرومان. وقد بلغ من كثرته

وذيوع أمره أن جعلت النساء يعددن أعمارهن بأعداد أزواجهن . »
وكانت المرأة الواحدة تتزوج رجلا بعد آخر وتمضي في ذلك من غير حياء . وقد ذكر مارشل (٤٣-١٠٤م) امرأة تزوجت عشرة رجال وكذلك كتب جوونل (٦٠ - ١٤٠ م) عن امرأة تقلبت في أحضان ثمانيـــة أزواج في خمس سنوات . وأعجب من كل ذلك وأغرب ما ذكره القديس جـــــروم (٣٤٠ — ٤٢٠ م) عن امرأة تزوجت في المرة الأخيرة الثالث والعشرين من أزواجها وكانت هي أيضاً الزوجة الحادية والعشرين لبعلها .

ثم بدأت تتغير نظرتهم إلى العلاقات والروابط القائمـة بين الرجل والمرأة من غير عقد مشروع . وقد بلغ بهم التطرف في آخر الأمر أن جعل كبار علماء الأخلاق منهم يعدون الزنى شيئاً عادياً . فهذا كاتو Cato الذي أسندت إليه الحسبة الخلقية سنـة ١٨٤ قبل الميلاد ، يجهر بجواز اقتراف الفحشاء في عصر الشباب . وذاك شيشرون Cisro المصلح الشهير يرى عدم تقييد الشبان بأغلال الأخلاق المثقلة ويشير باطلاق العنان لهم في هذا الشأن. ولا يقتصر الأمر عليهما، بل يأتي ابيكتيتس Epictetus الذي يعد من المتصلبين في باب الأخلاق من فلاسفة الرواقيين Stoics فيقول لتلاميذه مرشداً ومعلماً : « تجنبوا معاشرة النساء قبل الزواج استطعتم ، ولكنه لا ينبغي أن تلوموا أحداً أو تؤنبوه إذا ما لم يتمكن من كبح جماح شهواته . »

ولما تراخت عرى الأخلاق وصيانة الآداب في المجتمع الروماني إلى هذا

الحد ، اندفع تيار من العري والفواحش وجموح الشهوات . فأصبحت المسارح مظاهر للخلاعة والتبرج الممقوت والعري المشين . وزينت البيوت بصور ورسوم كلها دعوة سافرة إلى الفجور والدعارة والفحشاء. ومن جراء هذا كله راجت مهنة المومسات والداعرات وانجذبت إليها نساء البيوتات . وتمادى الأمر في ذلك إلى أن اضطر القوم إلى وضع قانون خاص في عصر القيصر تائيبيريس (١٤ - ٣٧ م) لمنع نساء البيوتات من احتراف مهنة المومسات وصناعتهن النافقة . ونالت مسرحية فلورا Flora حظوة عظيمة لدى الروم لكونها تحتوي على سباق النساء العاريات . وكذلك انتشر استحمام الرجال والنساء في مكان واحد بمرأى من الناس ومشهد . أما سرد المقالات الخليعة والقصص الماجنة العارية فكان شغلا مرضياً مقبولاً لا يتحرّج منه أحد ، بل الأدب الذي كان يتلقّاه الناس بالقبول والرضى هو الذي يعبر عنه اليوم بالأدب المكشوف ، وهو الذي تُبين فيه أحوال الحب والعناق والتقبيل سافرةً غير مقنعة بحجب من المجاز والكنايات .

فكان من انغماسهم في الشهوات البهيمية ومجاوزتهم الحد في إيجاد طرق لإطفاء أوارها أن دالت دولة الرومان وتمزّق جمعها كل ممزق .

أوربة المسيحية

ثم جاء عصر النصرانية في أوربة ، وأرادت أن تتدارك الفوضى الخلقية في عالم الغرب بالعلاج الناجع والبلسم الشافي . ومما لا ريب فيه أنها

أدّت خدمات جليلة في أول أمرها . فقد سدّت السبل في وجه الفحشاء وقضت على العري في كل ناحية من نواحي الحياة، ودبّرت الحيل والطرق المؤثرة لاستئصال شأفة الدعارة ، وجعلت المومسات الراقصات والمغنيات يتبْن ويرتدعن عن غيّهن ومكاسبهن الفاسدة ، وجهدت جهدها لتنشئة القوم على الأخلاق الزكية والآداب السامية إلا أن الفكرة التي كانت يحملها الآباء المسيحيون عن علاقة ما بين الرجل والمرأة ، كانت قد جاوزت حدّ التطرف في جانب ، وكانت حرباً على الفطرة البشرية في جانب آخر .

فمن نظريتهم الأولية الأساسية في هذا الشأن أن المرأة ينبوع المعاصي وأصل السيئة والفجور . وهي للرجل باب من أبواب جهنم من حيث هي مصدر تحريكه وحمله على الآثام . ومنها انبجست عيون المصائب الانسانية جمعاء ، فبحسبها ندامة وخجلاً أنها امرأة ، وينبغي أن تستحيي من حسنها وجمالها ، لأنه سلاح إبليس الذي لايوازيه سلاح من أسلحته المتنوعة وعليها أن تكفّر ولا تنقطع عن أداء الكفارة أبداً ، لأنها هي التي قد أتت بما أتت به من الرزء والشقاء للأرض وأهلها . ودونك ماقاله ترتوليان (Tertullion) أحد أقطاب المسيحية الأول وأئمتها مبيّناً نظرية المسيحية في المرأة :

« إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان . وإنها دافعة بالمرء إلى الشجرة الممنوعة ، ناقضة لقانون الله، ومشوّهة لصورة الله ـ أي الرجل ـ» .

وكذلك يقول كرائي سوستام (Chry Sostem) الذي يعدّ من كبار أولياء الديانة المسيحية في شأن المرأة :

« هي شر لابد منه ، ووسوسة جبلية ، وآفة مرغوب فيها ، وخطر على الأسرة والبيت ، ومحبوبة فتّاكة ورزء مطليّ مموّه » .

أما نظريتهم الثانية في باب النساء ، فخلاصتها أن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة هي نجس في نفسها ، يجب أن تجتنب ، ولو كانت عن طريق نكاح وعقد رسمي مشروع ، هذا التصور « الرهبني » للاخلاق الذي كانت جذوره تكاد تتأصّل في أوربة من قبل بتأثير الفلسفة الإشراقية (Neo - platonism) جاءت المسيحية فزادته شدة وبلغت به منتهاه . وذلك أن أصبحت حياة العزوبة مقياساً لسمو الأخلاق وعلوّ شأنها كما صارت الحياة العائلية علماً على انحطاط الأخلاق ومهانة الطباع. وجعلوا يعدّون العزوبة وتجنّب الزواج من أمارات التقوى والورع وزكاء الأخلاق ، وأصبح من المحتوم لمن يريد أن يعيش عيشة نزيهة أن لايتزوّج أصلاً ، أو لايباشر امرأته مباشرة الزوج لزوجته ، على الأقل. وكذلك قرّروا ووضعوا القوانين في مؤتمراتهم الدينية المتعددة بأن لايختلي رجال الكنيسة بأزواجهم ، وأن لايتلاقى الرجل منهم والمرأة إلا بمرأى من الناس ، أو أمام رجلين من رجالهم على الأقل . وما آلوا جهداً في أن يثبتوا في قلوب الناس الشعور بشناعة العلاقة الزوجية وتنجّسها . وخذ لذلك مثلاً أن كان شائعاً بينهم ، أن الزوجين اللذين

اتفق لهما أن يبتاما ليلة عيد من الاعياد ، لايجوز لهم أن يعيّدا ويشتركا مع القوم في رسومهم ومباهجهم . كأني بهم يرون أنهما قد اقترفا إثماً سلبهم حق المشاركة في حفل ديني مقدّس عندهم . وقد بلغ من تأثير هذا التصور « الرهبني » أن تكدّر صفوُ ما بين أفراد الأسرة والعائلة من الأواصر وحتى ما بين الأم والولد منها . إذ أمسى كل قرابة وكل سبب ناتج عن عقد الزواج يُعد إثماً وشيئاً نجساً .

وهاتان النظريتان ما وضعتا من مكانة المرأة وحطّتا من شأنها في حقول الأخلاق والاجتماع فحسب ، بل كان من مفعولهما القوي ونفوذهما البالغ في القوانين المدنية أن أصبحت الحياة الزوجية مبعث حرج وضيق الرجال والنساء بجانب ، وبجانب آخر انحطّت منزلة المرأة في المجتمع في كل ناحية من نواحي الحياة . فكل ما وُضع في العالم الغربي من القوانين بتأثير الشريعة المسيحية ، لاتخلو من الخصائص الآتية :

١ ـ جُعلت المرأة تحت سلطة الرجل الكاملة ، من الوجهة الاقتصادية وعادَتْ حقوقها في الإرث محـــدودةً وأما حقوقها في الملكية فكانت أنزرَ وأقلّ . وما كان لهـا حق حق في كسب يدها ، بل كان كلُّ ماعندها ولها ملكاً لزوجها .

٢ ـ الطلاق والخلع لم يكونا مباحَين في حال من الاحوال فمهما بلغ الفرك (البغض) والتنافر بين الزوجين ، ومهما بلغ الشقاق بينهما في إفساد العشرة عليهما وجَعْل بيتها قطعةً من العذاب ، كان الدين والقانون يحتمان

عليها دوام العشرة وبقاء حبل الزوجية بينهما متصلاً : وأقصى ما كان يمكن فعله في بعض الأحوال الشاذة البالغة من الشدة غايتها ، أن يقطع ما بين الرجل والمرأة من الأسباب ويفرّق بينهما تفريقاً . على أنه ما كان لذلك الرجل أو تلك المرأة بعد ذلك أن يجدّد الحياة الزوجية ويختار لنفسه زوجاً موافقةً أو بعلاً مواتياً . والحق أن كان هذا العلاج أكثر ضرراً وأشد خطباً من ذلك المرض ، إذ هما كانا بعد ذلك بين اثنين : إما أن يختارا عيشة الرهبان والراهبات ، أو يتعاطيا الفجور ويتساقيا كؤوس الفحشاء طول أعمارهما الباقية .

٣ ـ وكذلك كان من أقبح العار أن يتزوج الرجل أو المرأة ثانيةً إذا توفي عن أحدهما زوجه ، بل هو عندهم من كبائر الإثم . وكان من رأي علماء المسيحية فيه أنه إذعان للشهوات البهيمية ، وإطلاق لعنان غريزة الفحشاء ، وكانوا يعبّرون عن القران الثاني بكلمة (الزنى المهذب) . أما رجال الكنيسة فلم يكن النكاح مباحا لهم في قانون الكنيسة . وكذلك القانون المدني العام ما كان يُجيز ذلك في بعض الاقطار ، وأما الاقطار التي كان يسمح به فيها القانون ، فما كان يترخص فيه هناك الرأي العام الذي كان متأثراً بالنظريات والتصوّرات الدينية .

أوربة الجديدة

ولمّا نهض فلاسفة أوربة وأولو الرأي والعلم منهم في القرن الثامن عشر ورفعوا عقيرتهم لحماية حقوق الفرد في المجتمع ، ونفخوا في أبواق

الحرية الفردية ، كان بين يديهم ذلك النظـام التمدني الفاسد الذي كان تولّـد بتفاعـل الاتحاد الثلاثي من نظم الاخلاق وفلسفة الحياة المسيحيّتين ونظام الاقطـاعية (Feudal System) وقيّد الروح البشرية بقيود مثقلة غير طبيعية وسدفي وجهها جميع سـُبل الرقي والازدهار. فالنظريات التي قدمها أساطين أوربة الجديدة وأقطاب التفكير الجديد فيها ، للقضاء على ذلك النظام الفاسد واستبدال نظام جديد به ، أسفـَرتْ عن ثورة فرنسا الشهيرة ، ثم تحركت عجلة الحضارة والثقافـة الغربيتين وبقيت تسير على هـُداها ، حتى آلت ، بمدتقلبات الزمان ، إلى مرحلتها الحاضرة.

وكل ما فعلوه في بدء هذا العهد الجديد لإنهاض المرأة من كبوتها ، كان له أثر محمود في الحياة الاجتماعية. فقد خفّفوا شيئاً مما كان في قوانين الطلاق من شدّة وتضييق . وردّوا إلى النساء جملة صالحة من حقوقهن الاقتصادية المسلوبة . وتناولوا بالاصلاح والتهذيب النظريات القائلة بذلّة المرأة ومهانتها . وعدّلوا أيضاً قوانين العشرة والاجتماع التي كانت قـد وضعت النساء في مستوى الجواري والإماء في واقـع الأمر . كما فتحوا لهن أبواب التعليم والتربيـة العاليين كالرجال . فبهـذه الطرق والتدابير الفعّالة المختلفـة انبعثَتْ مواهبُ النساء وبرزَتْ كفاءاتهن التي كانت مطمورة تحت أثقال فادحة من قوانين المجتمع الخاطئة وتصورات الاخلاق الجاهلية . فقمن بتمهيد البيوت وتحسين آداب العشرة وأبلين بلاءً حسناً في سُبُل الخير وأعمال البرّ . وترقية الصحة العامة وتربية الجيل الناشيء

ومواساة المرضى وتنمية النظام العائلي وآدابه كل أولئك كان من بواكير ثمار اليقظة التي حصلت بين النساء بفضل الحضارة الجديدة . ولكن النظريات التي تولّدت من بطنها هذه الحركة ، كانت تتّسم من أول يومها بالنزوع إلى الإفراط والميلان عن القصد . ثم غلا هذا النزوع واشتدّ في القرن التاسع عشر . وما كاد يبتدىء القرن العشرون حتى بلغ نظام الاجتماع الغربي نهاية الإفراط والتباعُد عن القصد . وهذه النظريات التي أسّس عليها بنيان الاجتماع الغربي الحديث ، يمكن حصرها في ثلاثة عناوين :

١ — المساواة بين الرجال والنساء .

٢ — استقلال النساء بشؤون معاشهن
(Economic Independence)

٣ — الاختلاط المطلق بين الرجال والنساء .

وقد ظهر من نتائج تأسيس اجتماعهم على هذه النظريات الثلاث ما كان يجب أن يظهر ، وذلك :

١ — أنهم فهموا من معاني المساواة ألا يكون الرجل والمرأة متساويين في الحقوق البشرية والمنزلة الخلقية فحسب ، بل أن تؤدّي المرأة في الحياة المدنية ما يؤدّيه الرجل من الاعمال ، وأن يُرخى لها من عنان القيود الخلقية مثل ما أرخي للرجل من ذي قبل . فهذه الفكرة الخاطئة للمساواة جعلت المرأة غافلة بل منحرفة عن أداء واجباتها الفطرية

ووظائفها الطبيعية التي يتوقّف على أدائها بقاء المدنية ، بل بقاء الجنس البشري بأسره . واستهوتها الاعمال والحركات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وجذبتها إلى نفسها بكل ما في طبعها وشخصيتها من خصائص فمارك الانتخابات النيابية ووظائف المكاتب والمعامل ومنافسة الرجال في المهن التجارية والصناعية الحرّة ، والمشاركة في الألعاب والمسابقات الرياضية وحضور مجالس اللهو والقصف والظهور على المسارح والاشتراك في حفلات الرقص والسهرات العامة هذه وأمثالها من مشاغل الحياة ومُتَعها وأسباب اللهو والمجون التي يمنع عن ذكرها الحياءُ من خفايا هذه المدنية البرّاقة ، هذه كلها قد استولت على مشاعرها وشغلت أفكارها وعواطفهاشغلاً أذهلها عن وظائفها الطبيعية وطرد من برنامج حياتها القيام بتبعات الحياة الزوجية وتربية الاطفال وخدمة العائلة وتنظيم الاسرة ، بل كرّه إلى نفسها كل هذه الاعمال التي هي وظائفها الفطرية الحقيقة . ومن عاقبة ذلك أن النظام العائلي - الذي هو أسُّ المدنية ودعامتها الاولية - قد تبدّد شمله في الغرب . والحياة البيتية - التي يتوقّف على هدوئها وطمأنينتها قوة الانسان العملية ونشاطه - تكاد تنهدم وتدخل في خبر كان . وكذلك رابطة العقد والزواج - التي هي الصورة الصحيحة الوحيدة لتعاون الرجل والمرأة على خدمة المدنية - أصبحت عندهم أوهن من بيت العنكبوت . وبجانب آخر ، قد بدأ العمل على منع تكاثر النسل وازدياد العمران بقتل الاولاد وضبط التوليد وإسقاط الحمل . وجاء التصوّر الخاطىء للمساواة الخلقية يُساوي بين الرجال والنساء في التبذل

وفساد الاخلاق، حتى عادت تلك المخزيات التي كان يتحرّج من مقارفتها الرجال فيما قبلُ ، لا تستحيي من ركوبها بنات حواء في المجتمع الغربي الحديث .

٢ ـ ان استقلال النساء بمعايشهن واضطلاعهن بشؤونهن الاقتصادية قد جعلهن في غنىً عن الرجال . والمبدأ القديم ـ أن يكسب الرجل وتدبّر المرأة شؤون البيت ـ قد تبدل وأخذ مكانه رأي جديد ، هو أن يكسب الرجلُ والمرأةُ كلاهما ، والبيت تُفوّض شؤونه الى الفنادق والشركات . فلم يبق بعد هذا الانقلاب بينهما من صلة ترغّبهما في العشرة البيتية وتجبرهما على الحياة الزوجية المشتركة غير صلة الشهوات وغرائز النفس الحيوانية . ومن الظاهر أن مجرد إطفاء أوار الشهوة البهيمية ليس بأمر يضطرّ الرجل والمرأة الى أن يتعاشرا في بيت واحد ، مقرونَين في نير الرابطة الزوجية الأبدية . فالمرأة الـتي تكسب عيشها بيمينها ، وتقوم بجميع وظائفها بنفسها، ولا تحتاج في حياتها اليومية الى راعٍ يرعاها أو نصير يُعينها ، مالها تلازم رجلا بعينه لإخماد نار شهوتها فقط ؟ ومالها ترهق نفسها بأعباء خلقية وأثقال قانونية في غير طائل ؟ ولماذا تتحمّل تبعات الأسرة والمنزل ؟ وإذا كانت فكرة المساواة الخلقية قد أزالت جميع العقبات والعراقيل الـتي كانت عسى أن تعترضها في سلوك طريق الدعارة والفجور ، فلماذا تتنكّبُ الطريق الأيسر والسبيل الممهّدة المشحونة بأفانين البهجة واللذة ؟ وتسلكُ الجادّة العتيقة البالية المحفوفة

بالمكاره والتبعات والتضحيات ؟ أما ما كان عسى أن يحيك في صدرها من شعور بالإثم والمعصية ، فقد ذهب بذهاب الدين وتقلّص ظلّه ، وأما خشية المجتمع ، فلا وَجْهَ لها ولا داعي اليها ، لأنّه بدل أن يلومها ويؤنّبها على غوايتها وعهرها ، قد عاد يتلقّاها بالبِشْر والترحاب . وآخر ما كانت تخافه هذه وأخواتها هي المولود النَغْل الذي تلده من فاجر مغمور ، ولكن قد أذهب عن نفسها هذا الخوف َما ابتُكر أخيراً من أساليب التخلّص منـــه . وأولها تدابير مَنْع الحمل . فإن أخفقَتْ ، فلا بأس بإسقاط الجنين . وإن لم يتحقّق ، فلا حرج في قتل المولود من وراء الجدران ، في جنـــح الظلام ، وإن أبَتْ عاطفةُ الامومة ـ ويالها من عاطفة خبيثة لا تكاد تموت على كل هـــذا الرقيّ والتمدن ـ قتلَ المولود ، فلا لَوْم على الفتاة في كونها أمّاً لابن زنْية . لانهم قد قضوا الوطر من الدعاية لتكريم (الام العذراء) و (ولد الحرام) ، وقد بلغ من تأثيرها في النفوس أن المجتمع الذي يتجرأ على ازدرائها والحط من شأنها ، لاجرم أن يبوء هو نفسه بتهمة الرجعيّة وحـــكم التخلّف والجمود .

هذا هو الذي قد أتى بنيان المجتمع الغربي من القواعـــد وزلزل كيانه زلزالاً . ففي كل قطر من اقطارهم ترى مئات الالوف من الفتيات والنساء عوانس ، يرتَدْنَ موارد الفحشاء والشهوات من غير تحفّظ ولا خجل . وتفوقهن في كثرة العدد اللائي يتزوّجن في سَوْرة من

عاطفة الحبّ العارضة ، ولكنه لما لم يبق بين الرجل والمرأة من صلة -غير صلة المتعة الجنسية- تحوج أحدهما إلى الآخر ،وتجبرهما على العشرة الزوجية المستمرّة ، قد عادت أمثال هذه الاواصر الزوجية كأوهن مايكون من الامور . فالزوج والزوجة اللذان قد استغنى كل واحد منهما عن صاحبه، لا يرضيان بأن يراعي أحدهما مصلحة الآخر ، أو يجامـــله ويداريه في شأن من شؤونها. أما عواطف الحب والغرام المنبعثة من الشهوة البهمية، فلا تلبث أن تخفّ سورتها وتخمد نارها . ثم لايكون بينهـــما إلا نزاع طفيف أو اختلاف تافه ،حتى تنصرم بينها الاسباب . وقد يكون انطفاء جذوة الحب بينهماوحده سبباً كافياً لافتراقهما . ومن ذلك ترى أن الاواصر الزوجية عندهم يؤول أمرها إلى طلاق أو فرقة . وهذه الحال الراهنة هي السبب في شيوع المفاسد من منع الحمـل وإسقاط الاجنّة وقتـل الاولاد وانخفاض تناسب المواليـد وكثرة اولاد النغول ، وكذلك لهـا يـد وأيّ يد في انتشار الفاحشة والخلاعـــة وازدياد الامراض السرّية الفتّاكة .

٣ - وقد استحثّ الاختلاط المطلق بين الرجـال والنساء غريزة التبرّج والعري في النساء ، وزواجهن تلوثاً بالفواحش فالجاذبية الجنسية (Sexual Attraction) التي قد أودعتها فطرةُ الرجل والمرأة ولهـا عليها سلطان لا يُنكر ، تزداد قوةواشتداداً باختلاط الجنسين وتتخطّى حدوده بكل سهولة . ثم من شأن هذا المجتمع المختلط ان تنشأ فيه غريزة جديدة في الجنسين ، وهي الظهور بأبهى مظاهـر الزينة وأجذبهـــا

Attractive للجنس الآخر . ولمّا لم يعد التزيّد من أسباب الزينة والتجمّل شيئاً ينكر ويُعاب ،بفضل تبدّل النظريات الخلقية ، بل يُستحسن التبرّج السافر والاخذ بكل أسباب الفتنة والاستهواء ، فلا يقف هذا الافتتان بإبداء الزينة والجمال عند حد ، بل يتجاوز الحدود كلها واحداً بعد آخر ، حتى ينتهي أمره الى آخر غايات العُري المشين . وهذا ماقد وصلت إليه الحال في المدنية الغربية . فقد ازدادت ـ ولاتزال تزداد ـ في المرأة غريزة التجمّل وحب الظهور بالمظاهر الجذّابة للرجال إلى حدّ أن لاتكاد تقتنع نفسها الوثّابة المتطلّعة بالملابس البرّاقة الفاتنة وأسباب الزينة المتجدّدة من الوَشْي والتطاريف والاصباغ والحلى ، بل تطمح إلى ماوراء ذلك ، فتكاد تتجرّد من ملابسها وتريد ألاّ تستر جسمها هُدْبة ثوب منها . هذه حال المرأة عندهم . وأما الرجال فما تزيدهم كل هذه المظاهر الخلاّبة من الجمال النسوي إلاّ شوقاً وطموحاً ونهمة . لان نار الشهوة والعاطفة البهيمية المتأجّجة في الصدور لاتخمد بكل منظرٍ جديد من الخلاعة والسفور ، بل تزداد لهيباً وتتطلّب منظراً آخر أكثر منه سُفُوراً وحُسُوراً وتكشّفاً ، مَثَلهُم في ذلك كمثل من تصيبه لفحة من السموم ، فيكاد لايسكن ظمؤهُ . كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً وظمأ ،فهم دائماً في إعداد أدوات وتهيئة أسباب وظروف لإطفاء أوار شهوتهم المبرّح بهم . ولايهدأ لهم دون ذلك بال ولاهم يستقرّ لهم قرار . وما هذه الصُوَرُ العارية وهذا الادب المكشوف وهذه القصص الغرامية وهذه المراقص والمباذل

والمسرحيات المشحونة بالعواطف والنزعات العارمة ، ماهذه كلها إلاّ نماذجَ من جهودهم وحيَلهم ـ التي يتعاطونها لإخماد نار الشهوات الجامحة ولكن في الحقيقة لاستثارتها والنفخ فيها ـ التي أجّجتها هـذا المجتمع الماجن وتلك الحياة الاجتماعية الضالّة في صـدر كل فرد من أفرادهم . ولكنهم قد سمّوها بالفنّ (Art) لاخفاء هذا الضعف الكامن في نفوسهم وفي حياتهم !

ولا يزال هذا الداءُ الوبيل ـ من غلبة الشهوات البهيمية ـ ينخر في كيان الامم الغربية وينتقّص من قوة حياتها بسرعة هائلة . والتاريخ يشهد أنه ما سَرَى هذا الداءُ في مفاصل أمةٍ إلاّ أوردها مواردَ التلف والفناء . ذلك بأنه يقتل في الإنسان كل ما آتاه الله من القوى العقلية والجسدية لبقائه وتقدمه في الحياة . وأنّى للناس ـ لعمر الله ـ ذلك الهُدُوء وتلك الدّعة والسكينة التي لا بدّ لهم منها لمعالجة أعمال الإنشاء والتعمير ، وما دامتْ تُحيط بهم محركات شهوانية من كل جانب ، وتكون عواطفهم عرضةً أبداً لكل فنٍ جديد من الإغراء والتهييج ، ويحيق بهم وسطٌ شديدُ الاستثارة قويُّ التحريض ، ويكون الدم في عروقهم في غليانٍ مستمرّ بتأثير ما حولهم من الأدب الخليع والصور العارية والأغاني الماجنة والافلام الغرامية والرقص المثير والمناظر الجذّابة من الجمال الانثَوي العريان ، وفرص الاختـلاط بالصنف المخالف ؟! أستغفر الله : بل أنّى لهم ولأجيالهم الناشئة أن يجدوا في غمرة هـذه المهيّجات الجوّ الهادىء المعتدل الذي لا مندوحة لهم عنه لتنشئة قوام

الفكرية والعقلية ، وهم لا يكادون يبلغون الحلم . حتى يغتالهم غُول الشهوات البهيمية ويستحوذ عليهم؟! وإذا هم وقعوا بين ذراعي هذا الغُول فأنّى لهم النجاة منه ومن غوائله وعواديه ؟!

تقصير الفكر الإنساني

هذا البيان الموجز للتطوّرات التاريخية الممتدّة على ثلاثة آلاف سنة راجع إلى بقعة كبيرة من هذه الارض ، قد كانت فيما خلا مثوىً لحضارتين عظيمتين في تاريخ البشر ، وها قد تألّق نجمُ حضارتها في سماء الدنيا مرةً أخرى . ومثل هذه التطوّرات التاريخية قد حصلتْ في كلٍ من مصر وبابل وفارس وغيرها من الممالك . وكذلك بقي وطننا -شبه القارة الهندية- أيضاً عاماً في أمر المرأة بين طرفي الإفراط والتفريط فترى فيه بجانبٍ أن المرأة تُتَّخذ مملوكةً وينزل الرجلُ منها منزلة المالك والمعبود . وهي محتوم عليها أن تظل مملوكةً لأبيها بكراً ولبعلها ثيّباً ولأولادها أيّماً ، ثم تقدَّم ضحيةً على نيران زوجها إذا مات عنها(١) . وتحرم حقوقَ الملكية والإرث . وتُلزم بأشد ما يكون من قوانين الزواج ممّا يسيغ تسليم المسكينة إلى رجل من الرجال بغير رضاها

---

(١) ان الهنادك يحرقون موتاهم . وكانوا فيما مضى يحرقون زوج الميت معه حياً ، حتى منعتهم الحكومات المسلمة ، والحكومة الانكليزية بعدها من هذا الرسم الفبيح .

واستصوابها ، ثم لا يُجيز لها أن تتخلّص من حيازته إلى آخر أنفاس حياتها . وهي تُعتقد بعد ذلك مادّة الإثم وعنوان الانحطاط الخلقي والروحي . ولا يسلّم لها حق بوجود الشخصية المستقلة . وبجانب آخر أذا أقبل عليها القوم بالعناية والعطف ، فإنها تتّخذ لعبةً للشهوات الحيوانية . وهنالك تركب المرأة هوى الرجل ركوباً يمكّنها من قياده فتعتسف به الطريق ، حتى تضلّ به في بيداء الحياة وتُضلّ الامة كلها معها . فهذه التقاليد الدينية الهندكية من تقديس فرج الذكر والانثى (لنك ويوني) وعبادة التماثيل العارية المزوّجة ، وتكريم خادمات المعابد المواهر Religious Prostitutes واختلاط الجنسين في ألعاب عيد (هولي) وفي الغسل المطهّر في المياه المقدّسة في حال تُوشك أن تكون عرياً .. ما هذه كلها ؟ وأيّ شيء تذكّره به وتدلّ عليه ؟ إن هي في الحقيقة إلاّ باقيات السوء لتلك الحركة (البام ماركية) التي انتشرت في الهند أيضاً انتشار الوباء عقب ازدهار الحضارة فيها - كما انتشرت فيما قبل في بابل وفارس واليونان والروم - وتركت الامة الهندكية في حال التخلّف والانحطاط لمدّة قرون .

إنك إن تأمّلت هذا البيان التاريخي الموجز ، تبيّن لك مبلغ عجز الانسان عن الاهتداء إلى نقطة الاعتدال في أمر المرأة وكيفية تقصيره في فهمها والاستمساك بها . **وهل نقطة الاعتدال في أمر المرأة إلا أن تُتاح لها الفرص الكاملة لتنشئة مداركها وإنماء كفاءاتها ، وأن تؤهّل للقيام بنصيبها من العمل على ترقية المدنية والحضارة الانسانية**

بكل ما تملكه من الكفاءات الراقية برقيّ التمدن . ولا تترك - بجانب آخر - أداةً للتفسّخ والانحطاط الخلقي وسبباً لخراب الانسانية . بل يجب أن توضع لتعاون الجنسين في مضمار الحياة خطة مستقيمة تضمن لمشاركتها في العمل كل المنافع والبركات للتمدن البشري ونقطة الاعتدال هذه ما زالت ضالةَ الدنيا منذ قرون من السنين ، ولكنها لم تظفر بها بعدُ . وإنما بقيت تخبط الظلماء دونها . تارةً تميل إلى التفريط فتجعل النصف الكامل من النوع البشري عضواً معطّلاً عن العمل ، وأخرى إلى الإفراط فتَصِل بين طرفي الانسانية بأسباب الخلاعة والإباحية والفجور ، فتغرقها معاً في لُجّة الضلال .

ليست نقطة القصد والاعتدال بمعدومة اليوم ، بل هي لمن يطلبها مهيّأة موجودة. ولكن الناس بما دارت بهم الرحى بين الافراط والتفريط منذ آلاف من السنين، قد اصبحوا لدهشتهم وذهولهم لايكادون يعرفونها إذا هي مُثلت امام أعينهم ،ولا يعلمون ، إذا عاينوها ، أنها هي التي لم تزل فطرتهم تطلبها وتلتمسها . وأعجب من ذلك انهم ربما يتنكّرون لبغية نفوسهم هذه ، ويطعنونها ويتّخذونها هُزُواً . ثم يعكسون الأمر ، فبدل أن يلوموا أنفسهم ، يلومون ويُخجلون من يجدونه مستمسكاً بها وداعياً اليها . مثلهم في ذلك كمثل طفل انساني يولد في معدن رخام ، ولا يبرحه حتى يشبّ . فيكون جوّه الضيق المظلم في عينه جوّاً صافياً مشرقاً ، وهواؤه المحبوس الكدر في شعوره هواءً خالصاً طلقاً . فإن

أنت أخرجته فجأة من مضيق المدن إلى براح الأرض ، لا جرم أن يُنكر لأول وهلة كل ما يراه في هذا الجو السافر المشرق ، ويستوحش منه . ولكن الانسان مهما كان من فساد بيئته وتربيته ، إنسان على كل حال . فإلام يا ترى يخفى على عينيه الفرق بين سقف من الرخام الاسود والسماء المتلألئة بالنجوم الزواهر . وإلى متى يفوت رئتيه التمييز بين الهواء الخانق في غيابة المدن والهواء الطبيعي في فضاء الارض ؟ !

مَوقف المسلم في العَصر الجديد

إذا كان هناك من هو جدير بأن يأخذ بيد الانسانية الحائرة بين طرفي الافراط والتفريط ويهديها سواء السبيل ، فهو المسلم وحده الذي عنده مفاتيح جميع معضلات الحياة الاجتماعية . ولكن من سوء نصيب الانسانية — وا أسفاه — أن الذي كان بيده المصباح المنير في هذا الظلام الحالك ، أصيب هو نفسه بالغشاوة فجعل يخبط في سيره خبط عشواء ، وبدل أن يهدي غيره من خلق الله مازال — ولايزال — يمشي وراء كل معتسف ويتبع كل ناعق .

إن جملة الاحكام التي يُطلق عليها عنوان (الحجاب) هي في الحقيقة مشتملة على أهم أجزاء قانون الاجتماع الاسلامي ، فإذا وُضعت هذه الاحكام موضعها الصحيح في نظام ذلك القانون بكامله ، ثم تأملها أحد فيه أثارة من البصيرة الفطرية السليمة ، لم يلبث أن يعترف بأنها الصورة الوحيدة الممكنة التي تضمن القصد والاعتدال في الحياة الاجتماعية، وأن هذه المجموعة من الاحكام إن عُرضت على العالم منفذة في الحياة العملية بروحها الحقيقية الصحيحة ، لهرولت الدنيا المنكوبة إلى هذا المنبع

للسلام ، تلتمس فيه الدواء لأدوائها الاجتماعية ، بدل أن تنفر منه أو تطعن عليه . ولكن مَن لك بهذا الامر ؟ فإن الذي كان حرياً به القيام به لا يزال هو نفسه صريعَ المرض منذ زمان . ولعله يجدر بنا ، قبل أن نتقدّم في البحث ، أن ننظر في كيفية مرضه نظرةً :

السياق التاريخي

في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر فوجئت الممالك الاسلامية بطوفان من الاستعمار الغربي . وبينا المسلمون في هجود الكَرى ، لم يستيقظوا بعدُ كل اليقظة ، جعل هذا السيلُ يمتدّ من قطرٍ إلى قطرٍ ، حتى شرّق العالم الاسلامي وغرب ، وما ان انتصف القرن التاسع عشر حتى غدت معظم الامم المسلمة عبيداً للغرب الاوربي وخَولاً له . والتي لم تدخل منها في عبوديته ، لم تسلم من الخضوع لسلطانه ورهبة بأسه ونجدته . ولما بلــغ هذا الانقلاب تمامه ، بدأت في المسلمين آثار اليقظة والحركة ، فلما فتحوا أعينهم على الحال التي قد صاروا اليها ،فشلت ريحهم وزال عنهم بغتةً ذلك الفخار القومي الذي طالما تأصّل فيهم ابقائهم في عزّ الغلبة ومجد السيادة من قرون متوالية . فعادوا يفكرون في أنفسهم ، كالسكران يُصحيه توالي الضربات من عدو شديد ، ويبحثون عن الاسباب التي هبطت بهم وغلّبت الافرنج عليهم ، غير أن عقولهم لم تكن ثابت بعدُ إلى رشدها ، إذ كان السُكر لا ريب قد ذهب عنهم ولكن ميزان الفكر كان بعدُ مختلاً فيهم . فبجانب ، كان يلعجُ بهم شعور

بالذلة والهوان ، ويؤزهم أزاً على تبديل ماهم فيه من الحالة ، وبجانب آخر يغلبهم من حب الراحة وإيثار الدعة والارتخاء مايحملهم على توخي أقرب الطرق وأسهلها لتبديل تلك الحالة . وقد خارتْ فيهم من جهة ثالثة قوى الفكر والعقل وصدئت ملكاتُ الفهم والذكاء ، بطول تعطلها عن العمل . زد على ذلك كله ما أخذ بمجامع نفوسهم من الدهشة والروعة التي تعتري بالطبع كل أمة منهزمة مستعبدة . وتفاعلت هذه الأسباب في محبي الاصلاح من المسلمين وأوقعتهم في كثير من الضلالات العقلية والعملية . فأكثرهم ما كادوا يفطنون للاسباب الحقيقية في ارتقاء أوربة وانحطاطهم . وأما الذين فهموها منهم وأدركوها ، فأعوزهم من بُعْد الهمة والعزيمة والروح المجاهدة مايتشجعون به على اختيار الطرق الوعرة للرقي والتقدم ، وكان من وراء ذلك كله الروعة والدهشة التي تشترك فيها كلتا الطائفتين على السواء . فلما مضوا بهذه العقلية المريضة الزائفة يريـــدون الاصلاح لم يروا أضمن للرقي ولا أدنى للوصول اليه من أن يحاكوا في حياتهم اليومية كل مظاهر التمدن والحضارة الغربية ، فيعودوا كالمرآة الصافية يُرى فيها خيالُ الروضة والازهار والرياحين ، وليس فيها من حقيقة هذه المناظر شيء .

العبودية الفكرية

وهذه هي الفترة البُحرانية التي غدت الامم المسلمة فيها تحاكي أمم الغرب في الزي والباس ، وتتشبه بها في مظاهر الاجتماع . وفي آدابه

المجالس وأطوار الحياة ، حتى في الحركة والمشي والتكلم والنطق . وحاولوا تشكيل المجتمع المسلم على الصيغة الغربية . وقبلوا الإلحاد والدهرية والمادية في نشوة التجدُّد . بدون حيطة أو شعور بالعواقب . وعدّوا من لوازم التنور الفكري إتيان المرء بكل مابلغه من قِبَل الغرب من فكرة ناضجة أو فجّة والإفاضة فيه في مجالسه . ورحبوا بالخمر والقمار واليانصيب وسباق الخيل . وما إلى ذلك من ثمرات الحضارة الغربية . ثم سلموا بجميع معتقدات الغرب وأعماله في الاخلاق والآداب والاجتماع والمعاش والسياسة والقانون ، حتى في العقائد الايمانية والعبادات سلموا بكل ذلك من غير فهم وشعورٍ أو نقدٍ وتجريحٍ ، كأنه تنزيل من حكيم حميد ، ليس لهم قبَله إلا أن يقولوا : آمنّا . وأصبح المسلمون بأنفسهم يستحيون من كل ما نظر اليه أعداء الاسلام القدماء بعين التحقير أو التعيير ، من وقائع التاريخ الاسلامي ، وأحكام الشرع الالهي وآثار الكتاب والسنة ، وطفقوا يحاولون أن يمحوا تلك السُّبّة عن أنفسهم . . . اعترَضَ أهل الغرب على ماعندهم من الجهاد . فقال هؤلاء : مالنا وللجهاد ياسادة ؟ إنا نعوذ بالله من هذه الهمجية . واعترضوا على الرِّق . فقال هؤلاء : إنما هو حرام عندنا أصلا . وأطالوا لسان القدح في تعدد الزوجات . فجاء هؤلاء ينسخون آيات القرآن ويحرِّفون الكلم عن مواضعه . ثم قال أولئك : لابد من مساواة الرجل والمرأة في جميع نواحي الحياة . فوافقهم هؤلاء بقولهم : هذا هو الذي يعلّمه ديننا أيضا . وطعن القوم في قوانين الزواج والطلاق في الاسلام . فقامت طائفة من المسلمين تعالجها

بالاصلاح والتعديل . ولما علوا الاسلام بأنه عدوٌّ للفنون الجميلة ، استدرك هؤلاء قائلين : لا ، بل مازال الاسلام ، مذ كان ، يُشرف على الرقص والموسيقى والتصوير ونحت التماثيل !.

نشوء مسألة الحجاب

كان هذا الدور أخبث الادوار وأخزاها في تاريخ المسلمين . ففي هـــذا العصر نشأت مسألة الحجاب . ولو كان البحث في هذه المسألة مقصوراً على تعيين الحد الذي وضعه الاسلام لحرية المرأة ، لهان الامر، ولم يستعص حلهُ . لأن أكثر ما هناك من الاختلاف بين المسلمين في هذا الباب هو منحصر في وجه المرأة ويديها : هل يجوز إبرازها أم لا؟ وليس هذا الاختلاف بخطير جداً ، ولكن الواقع ههنا غير ما ذكرنا . الواقع في الحقيقة أنه نشأت هذه المسألة في المسلمين لكون الغرب قد نظر إلى الحجاب والنقاب والحرم بعين المقت والازدراء وصوّره أقبح تصوير وأشنعه فيما كتب ونشر ، وعدّ (حَبس) المرأة من أبرز عيوب الاسلام . وأنّى كان للمسلمين أن يغضوا على هذه النقيصة التي أخذها الغرب عليهم فيما أخذ . ففعلوا في هذه المسألة ـ الحجاب ـ مثل مافعلوا أيضاً في مسائل الجهادو الرق وتعدد الزوجات وما شاكلها من المسائل، فعمدوا إلى الكتاب والسنة يتصفحون أوراقهما،وإلى كتب الفقه والاحكام ينقّبون عن اجتهادات الأئمة فيهـا ، لعلّهم يجدون في اثنائها ومطاويها مايُعينهم على غسل هذا العار الذميم عن أنفسهم.فاذا بهم يقعون على أقوال

لبعض الأئمة تجيز للمرأة أن تبدي وجهها ويديها وتخرج كذلك من بيتها لحوائجها ، ويعلم منها أيضاً أن المرأة يجوز أن تشهد الحروب لسقي المجاهدين ومداواة المرضى . ثم وجدوا في تلك الاقوال إذناً بخروج المرأة إلى المسجد للصلاة وجلوسها للتعلم والتعليم . فكفاهم هذا القدر من المعلومات لان يدعوا أن الاسلام قد أعطى المرأة حرية مطلقة ، وأن الحجاب من تقاليد الجهلاء ، اتخذه المتأخرون من المسلمين الجامدين الحافظين ، ويخلو من أحكامه القرآن والحديث . وإنما القرآن والسنة يطلبان الحياء والخفر على سبيل التعليم الخلقي ، وليس فيهما قانون أو ضابط يقيد حركة المرأة وتنقلها بقيد ما .

المحركات الحقيقية

ومن الضعف الطبيعي في الانسان أنه إذا ما اختار مذهباً من المذاهب في شؤون حياته يكون بدء اختياره لذلك المذهب بنزعة عاطفية غير عقلية . ثم يأتي بعد ذلك ، فيستعين بالمنطق والعقل على اثبات كون نزعته تلك صحيحة معقولة . كذلك وقع في أمر الحجاب أيضاً . فما عرضت للمسلمين مسألة الحجاب لشعورهم بضرورة عقلية أو شرعية ، وإنما كان مأتاها فيهم ذلك النزوع والميلان الذي نشأ من تأثرهم ببريق حضارة أمة غالبة ، ومن ارتياعهم لدعاية تلك الامة في عداء التمدن الاسلامي .

وذلك أن رجال الاصلاح من المسلمين لما رأوا المرأة الاوربية وما هي عليه من زينة وتجمل ، وحرية في الحركة والجولة ونشاط زائد في

في الاجتماع الغربي . . . لما رأوا كل هـذا بعيون مسحورة وعقول مندهشة ، تمنّوا بدافع الطبيعة أن يجدوا مثل ذلـك في نسائهم أيضاً ، حتى يجاري تمدّنهم تمدّن الغرب . ثم أثرت فيهم النظريات الجديـدة من حريـة المرأة وتعليم الإناث ومساواة الصنفين . . . التي كانت تنصبّ عليهم كالوابل المدرار بلغة قوية منطقية وفي طبع أنيق جذّاب . حتى أمانت هذه الكتب والمنشورات الغربية بقوة دعايتها ملكة النقد والجرح فيهم . فاستقرّ في سويداء قلوبهم أنه لا بد لكل من يرغب أن يُعد من (المستنيرين الجدُد) ويدفع عن نفسه تهمة الرجعية و (الدتيانوسية) أن يؤمن بتلك النظريات إيمانـــه بالغيب ويؤيّدها ويحامي عنها فيما يكتب ويخطب ، ثم يروجها في الحياة العملية حسب ما أوتي من همّةٍ وجرأة . كان هؤلاء تكاد تسوخ بهم الارض من فرط الخجل حينما يرون الغربيّين يتهكمون بنسائهم المتنقبات المستورات في اللباس العادي ، وينبزونهن بـ (الجنائز المكفنة المتحركة) ، وإلى متى ، يا تُرى ، يطيق القوم الصبر على هـذه الوخزات ؟ . . لذلك استعدوا آخر الامر ـ بالرضا أو بالكُره ـ لان يقوموا فيدفعوا عن أنفسهم هذا العار المُخزي .

وهذه هي النزعات والعواطف التي بعثت المسلمين على القيام بحركة (تحرير) المرأة ، التي قاموا بها في أواخر القرن التاسع عشر . فمنهم من كانت هـذه النزعات كامنة في شعورهم الخفي ، فلا يدرون بأنفسهم ماذا يجرهم ويدفعهم إلى تلك الحركة ، فكانوا مخـدوعين عن أنفسهم . ومنهم آخرون كانوا يشعرون بنزعاتهم تلك شعوراً تاماً ولكنهم يستحيون

ويُحجمون عن إبداء نزعاتهم الحقيقية ، فهؤلاء لم يكونوا مخدوعين بل دُهاةً خادعين : وعلى كلٍّ قام هذان الفريقان كلاهما بعمل واحد هو أنه سحب ذيل الخفاء على المحركات الحقيقية لحركته تلك وحاول أن يظهرها بمظهر حركةٍ عقلية بدلاً من إظهارها حركةً عاطفية ، وساق في تأييدها جميع الادلة التي تلقّاها من الغرب مباشرةً كصحة النساء وارتقائهن في مجالي الفكر والعمل ، وحقوقهن الفطرية واستقلالهن الاقتصادي ، وتخلصهن من ظلم الرجال وأثرتهم ، وانحصار رقيّ المدنية في رقيّهن ، لكونهن شطراً كاملاً من الامة . . إلى آخر هذه الحجج ، حتى ينخدع عامة المسلمين ولا يفتضح عليهم صميم المقصد من تلك الحركة، وهو حمل المرأة المسلمة على اقتفاء آثار المرأة الاوربية واتّباع الطرق الاجتماعية الرائجة بين أمم الغرب .

الخداع الاكبر

ولكن أدهى وأخبث ماعادوا يخدعون به الناس في هذا الصدد هو احتيالهم لإثبات حركتهم الضالة موافقة للاسلام باستنباط من القرآن والسنة ، مع أن هناك بوناً بعيداً بين الاسلام والحضارة الغربية في المقاصد العامة ومبادىء تنظيم الاجتماع . ذلك أن المقصد الرئيسي الذي يريد أن يحققه الاسلام هو ـ كما سنبيّنه فيما يأتي ـ كبح جماح غريزة الانسان الجنسية (Sex Energy) وضبطها وتقييدها بضابط خلقي بضمن استعمالها في بناء تمدنٍ صالح مطهر ، بدل إهمالها وتضييعها في الفوضى

العملية والهياج الجنسي. ومقصد التمدن الغربي ـ بخلاف ذلك ـ هو حث سير التمدن بإشراك المرأة والرجل في تدبير شؤون الحياة وتحمُّل تبعاتها على حد سواء، واستعمال الغرائز الشهوانية في مشاغل وفنون تحوّل متاعب الحياة وآلامها إلى لذات ومسرات. ومن نتيجة هذا الاختلاف في المقاصد بين الاسلام والتمدن الغربي ان يكون بينهما اختلاف مبدئي في طرق تنظيم الاجتماع. فالاسلام يضع نظاماً للاجتماع حسب مقاصده قد فُصل فيه بين دائرتي عمل الرجل والمرأة إلى حد كبير، وحظر اختلاط الذكور والإناث بدون قيد خلقي، ثم حسمت فيه جميع الاسباب التي تخل بهذا الضبط والتقييد. وبخلاف ذلك فإن ماتقتضيه طبيعة المقصد الذي يرمي اليه التمدن الغربي، هو أن يُدفع الجنسان ـ الرجل والمرأة ـ إلى ميدان مشترك في الحياة وترفع من بينهما جميع الحجب التي قد تحول دون اختلاطهما الحر ومعاملتهما المطلقة، وان تتاح لهما الفرص الكاملة غير المحدودة لاستمتاع أحدهما بجمال الآخر ومحاسنه الجنسية.

ولك ان تقدّر منه أنه ماأمكر القوم الذين يريدون بجانب أن يتّبعوا التمدن الغربي، ثم يحتجون لفعلهم ذلك بقوانين النظام الاجتماعي الاسلامي، وما أكبر خداعهم هذا الذي يخدعون به أنفسهم أو غيرهم. إن أقصى ما أوتيت المرأة من الحرية في الاجتماع الاسلامي هو أن تبدي وجهها ويديها إذا دعت الضرورة، وأن تخرج من بيتها لأوان الحاجة، ولكن هؤلاء يجعلون هذا الحد الاقصى من حريتها نقطة البدء وبداية

المسير ، فيقومون من آخر حـدود الاسلام ويتقدمون في سبيل الحرية ويمعنون ، إلى أن يخلعوا عن أنفسهم كل الحياء والاحتشام . فـلا يقف الامر بإناثهم عند إبداء الوجه واليـدين ، بل يجاوزه إلى عرض الشعر المسرح والذراع المكشوفة والنحر العريان أو شبه العريان ، ولف ماوراء ذلك من محاسن الجسد ومفاتنه في لباس شفاف ينمّ عن كل مايرضي شهوة الرجال . وهذه الهيئة لاتبدو فيها الازواج والبنـات والاخوات أمـام محارمهن فقط ، بل يخرجن بشكل تبرج من بيوتهن ويمشين في الاسواق ويتعلمن في الكليات مع الرجال ويأتين الفنادق والمسارح ، ويباح لهن من التكلم والمداعبة مع الاجانب ما لا يباح لهن في الاسلام حتى مع إخوانهن! وتُحمل رخصة الاسلام للمرأة في الخروج من البيت عنـد الضرورة وبشرط مراعاة حدود الستر والتزام الحياء ، على ان تغدو وتروح في الطرُقات وتغشى المتنزّهات وتتردد إلى الملاعب والسينما مرتدية ً أجمل الملابس الجذابة وأفتنهـا للناظرين بالحركات المغرية والنظرات الجريئة . ويُتّخذ إذنُ الاسلام للمرأة في ممارسة أمورغير الشؤون المنزلية ـ ذلك الإذن المقيد المشروط بأحوال وضرورات خاصّة ـ يتخذ حجة ً ودليلا على أن تودّع المرأة المسلمة كالفرنجية جميع تبعات الحياة المنزلية وتدخل في النشاط السياسي والاقتصادي والعمراني ، فتُساير الرجل وتسعى معه بل تسابقه في كل ميدان من ميادين العمل !

وإذا كان الامر واقفاً عند هذا الحـد في البلاد الهندية ، فإنه قد طغى كل الحدود في بعض البلاد المسلمة حيث قد وثب به أولئك الاحرار

في سياستهم ، العبيدُ في عقليتهم أشواطاً طوالاً ، فقد أصبحت النساء المسلمات عندهن يلبس عين اللباس الذي تلبسه المرأة الأوربية ، حَذو القُذَّة بالقُذَّة . وأدهى من ذلك وأمر أن تنشر المجلات من صوَرهن ما تُرى فيه إحداهن في لباس السباحة على شاطيء البحر ، ذلك اللباس الذي لايستر من جسدها إلا الربع ويكشف الثلاثة الارباع الباقية كل الكشف . وحتى ذلك الربع لايستره إلا بحيث تبدو من خلاله جميع مفاتن الجسم من أحناء ونتوءات .

ولا ندري أيّ القرآن او الحديث يُستخرج منه جواز هذا النَمط المبتذَل من الحياة . وإنكم ياإخوان التجدُّد إن شاء أحدكم أن يتّبع غير سبيل الاسلام فهلاّ يجترىء ويصرّح بأنّه يريد أن يبغي على الاسلام ويتفلت من قانونه ؛ وهلاّ يربأ بنفسه عن هذا النفاق الذميم والخيانة الوقحة التي تـُزيّن له أن يتّبع علناً ذلك النظام الاجتماعي وذلك النمط من الحياة ـ الذي يُحرّم الاسلام كلّ شيء من مبادئه ومقاصده وأجزائه العملية ـ ثم يخطو الخطوة الاولى في هذا السبيل باسم اتباع القرآن كي ينخدع به الناس فيحسبوا أن خطواته التالية أيضاً موافقةٌ للقرآن.

غايتنا في هذا الكتاب

هذا هو حال المسلم في هذا العصر الحديث . فبين يدينا الآن وجهان اثنان للبحث ، سنضعهما نُصب عيننا ، إن شاء الله في هذا الكتاب .

أولها اننا نريد أن نشرح نظام الاسلام الاجتماعي ونبيّنه لجميع بني آدم - مسلمين كانوا او غير مسلمين - ونوضح لهم المصالح التي من أجلها شُرع الحجاب في هذا النظام .

والثاني أننا نريد أن نضع بين أيدي مسلمي هذا العصر أحكام القرآن والحديث ، ونضع أمامهم بازائها نظريات التمدن والاجتماع الغربيَّين وثمراتها ونتائجها ، حتى يختاروا لانفسهم أمراً بعينه من الامرين ، شأن أهل الرزانة والجدّ ، ويتركوا موقفهم الحاضر الذي هو أجدر بذوي النفاق ، فإما أن يتّبعوا احكام الاسلام ، إن كانوا يريدون أن يبقوا مسلمين ، أو ان يقطعوا صلتهم عن الاسلام ، إن كانوا مستعدّين لقبول تلك العواقب الوخيمة التي سيسير النظام الاجتماعي الغربي بهم إليها لا محالة .

النظريـــات

إن الاسباب التي من أجلها يطعن الطاعنون في الحجاب ليست من النوع السلبي وكفى ، بل هي قائمة في الحقيقة على أساس ايجابي تؤزّره الحجة والبرهان . وليس مبعثها أن القوم يرون قرار النسـاء في البيوت وخروجهنّ منها متواريات بالحجاب نوعاً من التقيد والتضييق لايجوز ، فيريدون الغاءه . بل الأمر أن نُصْبَ أعينهم صيغة اخرى لحياة المرأة ، وهم يستقلّـون بنظرية في علاقة مابين الرجل والمرأة ، فيودّون ألا تفعل المرأة ماهي فاعلة الآن ، بل تخرج من طورها الحالي وتفعل (شيئاً آخر) ولما كان الحجاب وملازمة البيت حائلاً بينها وبين تلك الصيغة المنشودة من الحياة ، وعائقاً لها من أن تفعل هذا الشيء الآخر ، فانهم يُنحون على الحجاب يعارضونه ويعترضون عليه .

فلننظر ماهو ذاك (الشيء الآخر) ، وماذا وراءه من نظريات ومبادىء ؟ وما هو مبلغه من الصحة ؟ وإلى أي حد يستسيغه العقل ؟ وما هي النتائج التي قـد ظهرت له بالفعل ؟ وبديهي أننا إن سلمّنا بنظريات هؤلاء القوم ومبادئهم كما هي بدون نقد أو تجريح ، فلا جرم أن يعود

الحجاب شيئاً باطلاً ويقوم البرهان على ضلال النظام الاجتماعي الذي من أجزائه الحجاب ، ولكن ما المبرر لأن نسلّم بنظرياتهم تلك بدون أن ننتقدها ونختبرها على محك العقل والتجربة ؟ وهل يكفي كون أمر من الأمور جديداً مستحدثاً ، وكونه في الدنيا رائجاً مقبولاً لأن يقبله المرء ويؤمن به بدون تحقيق أو تمحيص ؟!

تصور الحرية في القرن الثامن عشر

إن أساطين الفلسفة والأدب وأقطاب العلوم الطبيعية ، الذين رفعوا لواء الاصلاح في القرن الثامن عشر ، كانوا – كما سبق لنا الاشارة – يجابهون نظاماً للتمدن فيه أنواع من القيود والسدود. وفيه صلابة من غير مرونة ، وعُسر من غير يُسر ، طافحاً بالتقاليد النابية التي لا يقبلها الطبع، والضوابط الجامدة والطرق المناقضة للفطرة والعقل . وزاد طينه بلةً انحطاطُ القوم المتواصل على طول القرون ، فجعله عقبةً كأداء في كل طريق الرقي . فبجانب كانت النهضة العلمية والعقلية الجديدة تبعث في نفوس الطبقة المتوسطة أشدّ الميل إلى التقدّم والنبوغ بالعمل والاجتهاد الذاتي. وبجانب آخر كانت على رؤوسهم طبقة الامراء والزعماء الدينيين تبالغ في شدّهم بالاغلال التقليدية . فمن الكنيسة إلى الجندية والقضاء، ومن قصور الامارة إلى المزارع ودور التجارة . . . كل شعبة من شعب الحياة وكل مؤسسة للتنظيمات الاجتماعية كانت تجري على نظام يُتيح لبعض الطبقات المخصوصة – بحُجّة امتيازاتها القديمة وحقوقها المتوارثة – ان تعسف وتجور

على من لا ينتمي اليها من العاملين الناهضين، فتذهب بثمار أعمالهم وتستأثر بنتاج مواهبهم وكفاءآتهم ، فكل محاولة يقوم بها القائمون لاصلاح تلك الحال كانت تخيب وتفشل بإزاء أثرة الطبقات المسيطرة وجهالتها . لهذه الاسباب كلها غدت الطبقات الناشدة للاصلاح تثور في نفوسهم مع الايام ثائرة الانقلاب الجامحة ، حتى غلبت عليهم وعمتهم آخر الامر نزعات البغي والثورة على هذا النظام الاجتماعي بجميع شعبه وأجزائه . وراج بين الناس نظرية متطرفة في الحرية الشخصية ترمي إلى اعطاء الفرد الحرية التامة والإباحية المطلقة بإزاء المجتمع . فأصبحوا ينادون بأنه يجب أن يكون للفرد الحق المطلق في عمل ما يشاء والحرية الكاملة في ترك ما يشاء وليس المجتمع أن ينتزع منه الحرية الشخصية . وأما الحكومة فواجبها أن تحافظ على هذه الحرية التي يتمتع بها الفرد في تصرفاته. وأما المؤسسات الاجتماعية فينبغي ألا تكون غايتها سوى إعانة الفرد على تحقيق مقاصده.

هــــذا التصور المغالي للحرية ، الذي كان في الحقيقة نتيجة غضب وسخط على نظام اجتماعي قائم على الظلم والحيف ، كان يحمل في مطاويه أسباب الفساد الأكبر . والذين تقدموا بهذا التصور بادىء ذي بدء ، ما كانوا بأنفسهم عارفين بنتائجه المنطقية . ولعل أرواحهم كانت تهتز من الذعر ، لو تمثلت أمام أعينهم تلك النتائج التي كانت ستؤول اليها من هذه الإباحية المطلقة والفردية العاتية الباغية ضربة لازب. إنما أراد أولئك أن يتخذوا هذا التصور المتطرف أداة لمنع تلك الشدائد الظالمة ولفك تلك القيود الثقيلة غير العادلة التي كانت توجد في مجتمعهم ، ولكن تأصل

هـذا التصوُّر آخر الأمر في الذهن الغربي واصبح ينمو ويزكو ويؤتي أكُلَه .

تغيرات الاحوال في القرن التاسع عشر

فهذا التّصور المتطرّف للحرية هو الذي حدثت بفضله الثورة الفرنسية الكبرى [1] . فجاءت تبُطل كثيراً من النظريات الخلقية القديمة وتهدّم القواعد المدنية والدينية العتيقة . ولما تحقّق عنداصحاب الثورة أن سقوطهاوانهدامها كان سبيلَ الرقيّ ومبعثَ الحرية ، استنتجوا منه وقرّروا أن كل نظرية وكل طريق عملي نزل اليهم من السلف ، عقبة معترضة في طريق الرقيّ والازدهار ، ولا يمكن التقدم الى الامام بدون إزاحتها عنه . لذلك ما إن فرغ رجال الثورة من ابطال المبادىء الخاطئة

(١) من هذا التصور للحرية الفردية تولدالنظام الرأسمالي الحالي ، ونظام التمدن الديمقراطي والاباحية الخلقية (Licentiousness) . وجرت هـذه النظم على أوروبة وأميركا من الظلم والعدوان في مدة قرن ونصف تقريبا ما حمل الانسانية على البغي والتمرد عليها ذلك بان هذه النظم أباحت للفن إيثار مصلحته على مصالح الجماعة ومنافعها وفرقت شمل الحياة الجماعية . فـكانت الاشتراكيـة (Socialism) والفاشية نتيجتين لذلك البغي والطغيان . إلاأن هذا الاصلاح والتعمير الجديد جاء منذ بدايته منطويا على نوع آخر من الفساد ، هو أنه قد أريد به إصلاح شيء متطرف بآخر مثله في التطرف . فبنما كان خطأ تصور الحرية الشخصية في القرن الثامن عشر أنه كان يضحي بالجماعة لاجل مصلحة الفرد ، إذ خطأ تصور (الجماعية) في القرن العشرين هو من جهة أنه يريد أن يضحي بالفرد لاجل مصالح الجماعة . وأما النظرية المعتدلة المتوسطة لفلاح الانسانية ، فلا توجد في دنيا العمل اليوم ، كما لم يكن لها في القرن الثامن عشر وجود !

للتعاليم الخلقية المسيحية ، حتى أنحوا بمعول انتقادهم على التصورات الاساسية لنظام الاخلاق الانسانية ، يجرحونها ويشككون فيها ويتساءلون : ماهذا العفاف ؟ وما هذا الظلم والتضييق على الشباب الجامح بقيود التقوى ؟ وأيّ نازلة تنزل بالأرض إن أحبّ المرء حبيبةً بدون زواج ؟ ثم اذا تزوّج المرء فهل يُفارقه قلبه ، حتى يُحرّم عليه الحبُّ فيما بعدُ ؟ فمثل هذه الأسئلة أخذت تنشأ وتُوجّه من كل جانب في المجتمع الانقلابي الجديد . وأثار ضجتها ـ بوجه خاص ـ الطبقة المنتمية الى المذهب الرومانتيكي (Romantic School) . كانت جورج صاند (Ceorg Sanb) زعيمة هذه الطبقة في مطلع القرن التاسع عشر . فبدأت بنفسها بالخروج على جميع المبادىء الخلقية التي مازال عليها مدار الكرامة الانسانية، وعفاف المرأة على الأخص ، منذ الازل. اذ اتّخذت الاخدان على كونها متزوّجة من رجل ، حتى آل الامر بينها وبين زوجها الى الفرقة . وغدت بعد ذلك تستبدل زوجاً بزوج ، ولم تعاشر أحداً منهم اكثر من عامين ويجد القارىء في ترجمة حياتها أسماء ستّة اشخاص على الاقلّ كانت تخادنهم علناً . ويصفها أحد هؤلاء الاصدقاء الستّة بما يأتي :

« من عادة جورج صاند انها تصيد فراشة هائمة بجمالها ، فتحبسها في قفص من الرياحين والازهار ، وتتمتّع بمنظرها . . . وهو دور محبّتها وإقبالها . ثم تأخذ بعد ذلك توخز الطائر المسكين بوخز الإبرة وتلتذّ بما ترى من تململه واضطرابه ... وهذا عهد نفورها وإدبارها ،

ولا بد من معاناة شدائد هذا المهد لكل من شاء له القدر أن يقع في إسارها. ثم تعود فتجزّ أجنحة الفراشة المذّبة وتغدو تشرحها وتحلّلها، حتى تُلقي بها أخيراً الى جملة الفراش التي تتّخذ منها أبطالاً لرواياتها ».

وكان من بين عُشّاقها أيضاً الشاعر الفرنسي الفرد موسّه (Alfred musse) الذي بلغ من نفسه الأسى والالم من جفاء عشيقته أن اوصى حين وفاته : الا ً تحضرنّ جنازته جورج صاند . فهذه هي الأخلاق والسلوك العملي الذي كانت عليه تلك الزعيمة العظيمة التي بقيت تؤثّر في نفوس النشء الفرنسي أبلغ الأثر بكتاباتها الغضّة الرائعة . واقرأ ماتكتب عن (ليليا) إلى (استينو) في روايتها المشهورة ليليا (Lelia) :

وكلّما أستزيد من النظر في هذه الدنيا وأتقدم في تجاربها، أستشعر بعدى الخطأ البعيد في أفكار شبيبتنا، فما أخطأ الفكرة القائلة-ياصديقي-بأن الحب يجب أن يكون مقصوراً على حبيب واحد.ثم يكون ذلك الحب المحدود مستولياً على القلب نافذاً منه إلى الصميم، ويجب أن يكون أبدياً سرمدياً.. لاريب أنه ينبغي للمرء ان ينفسح ذرعه لجميع الافكار والنظريات المختلفة.ومن ثمّ انا أعترف بانه يحق لبعض النفوس أن تلتزم الوفاء في حياتها الزوجية . ولكن الحق أن أكثر النفوس لها حاجات أخرى وفيها مواهب وكفاءات لما وراء ذلك .ويلزم لذلك أن يتسامح الجانبان فيما بينهما ويرضى أحدهما الآخر بالحرية في الفكر والعمل ، ويدحر من نفسه الأثرة التي

تبعث في النفوس الحسد والغيرة والمنافسة ... كل أصناف الحب صحيح ، شديداً جامحاً كان أو هادئاً معتدلاً ؛ وشهوانياً كان أو روحيا ، وأبدياً كان أو عارضاً متحوّلا ، وسواء أكان يدفع الناس إلى الانتحار أو يُدخل عليهم المتع واللذّات! » وفي رواية لها أخرى جاك (Jacques) تذكر جورج صاند صفة َ الزوج الذي كان أمثل نموذج عندها للزوجية. وذلك أن امرأة بطل الرواية (جاك) تتعلّق أجنبياً وترتمي في حضنه ، فلا يبغضها عليه الزوج السّمْح الواسع الظرف ولا ينفر منها . ويبيّن السبب في عدم نفوره منها . بقوله « ان الزهرة التي تتفاوح لأحد غيري وتُمتّعه بريّاها ، مالي ادا كها بيديّ أو أطأها تحت قدميّ ». وتمضي الكاتبة في روايتها وتقول في مقام آخر منها على لسان (جاك) :

« لم أبدّل رأيي ، ولم أصالح المجتمع ، وإن النكاح في رأيي لأفظع الطرق الاجتماعية وأكثرها همجية ً . وإن كُتب للجيل الانساني أن يتقدّم حقاً في طريق العقل والعدل ، فليأتينّ عليه حينٌ من الدهر يُلغي النكاح َ ويَستبدل به طريقة ً أخرى لا تقلُّ عنه قداسة ً وطهراً ثم تكون أدنى منه إلى التهذّب والانسانية . حينئذٍ سيتألّف الجيل الانساني من رجال ونساءٍ متسامحين لن يتحجّر أحدٌ منهم على حرية الآخر . أما الآن فقد بلغ من أثَرة الرجال وفُسولة النساء ألاّ يطالب أحد منهم بقانونٍ أكرم وطريقةٍ أمثل من هذا القانون . وما دام القوم

على هذه الحال من فَقْد الصلاح وضعف الضمير ، فليَرْسفوا في هذه القيود الفادحة ، ولا أبالي . »

هـذه الافكار ، تقدّموا بها حوالي سنة ١٨٣٣ م . وهي أقصى ما استطاعت جورج صاند أن تُمْعن إليه . أما المضيُّ بهذا التصوّر إلى نهـايته المنطقية ، فلم تجترئ عليه حتى هذه الزعيمة ، إذ كانت مع كل حريتها الفكرية واستنارتها العقلية ، لا يخلو ذهنُها من ظلمة الاخلاق المتوارثة القديمة . ثم خلفتها في أرض فرنسا بعد ثلاثين سنة ونيف ، طائفة أخرى من رجال الادب وعلماء الاخلاق وكُتّاب المسرحيّات ، كان على رأسهم الكسندر دوما (Alexander Dumas) وألفرد ناكه (Alfred Naquet) استفرغوا جهودهم لإشاعة الفكرة القائلة بأن الحرية والتمتع بلذّات الحياة في ذاته حق فطري للانسان ، ومن عدوان المجتمع على الفرد أن يقيّد حقّه هذا بسلاسل الاخلاق والتمدّن وبينما كانت المطالبة بحرّية الفرد في أعماله تُقدّم فيما قبل باسم عاطفة الحب المقدّسة، استضعف المتأخّرون هذا الأساس العاطفي المحض ، فاجتهدوا لدَعْم الحرية الشخصية والجموح والفوضى الفردية ، على أسس محكمة من العقل والحكمة والفلسفة . حتى يأتي الفتية والفتيات كلّ ما يشاؤون بقلوب هادئة وضمائر مطمئنة ،ولا يجترئ المجتمع على الشكي من غُلَواء شبابهم ، بل يستحسنها منهم ويعدّها جائزاً في شرع الاخلاق .

وفي أواخر القرن التاسع عشر قام بول أدام (Paul Adam)

وهنرى باتالي (Hanry Bataille) وبيير لوي (Pierre Louis)
وكثير من الادباء غيرهم بهمة نفخ الجراءة الماجنة في الشباب ، حتى تتخلص النفوس من الإحجام والنكول الباقي فيها بتأثير التصورات الخلقية القديمة . فهذا بول أدام يسترسل في ملامه للشباب في كتابه (La moral - de - L'amour) لسخفهم وحماقتهم إذ يحاول أحدهم أن يقنع حبيبته أو حبيبه - صدقاً أو كذباً - أنه متهالك عليها متفان في حبها ولن يتحول عنها أبد الدهر . ويمضي بعد ذلك يقول :

والسبب في كل ذلك أن شهوة اللذات - هذه الشهوة الصحيحة التي قد ركبت في فطرة كل إنسان ،وليست من الإثم أو السيئة في شيء - تعاب وتزدرى لغلبة الأفكار القديمة على النفوس، فيحتال المرء بلا سبب لإخفائها وراء كلمات ملفقة مزوقة . ومن أكبر ما يؤخذ على الأمم اللاتينية أن الاثنين المتحابين منها يتأثم أحدهما من مصارحة الآخر بأنه لا يلاقيه ولا يجتمع بـه إلا للتلذذ وقضاء شهوة جسدية ليس غير . »
فينصح الشباب بعد ذلك :

« عليكم بالتهذب والتعقل والرشد : فلا تتخذوا أدوات متعتكم وأسباب لذتكم (١) إلـٰهاً لكم لا تنصرفون عنه إلى غيره. فإنه لأحمق من يختار لنفسه صنماً واحداً في صومعة الحب ، ويقيم على عبادته

(١) المراد بهؤلاء الرجال والنساء الذين يستعملهم رجل أو امرأة لقضاء شهوته الحيوانية .

دون غيره . وإنما ينبغي للمرء أن ينتخب صاحباً جديداً لكل ساعةٍ من ساعات لذّته ومجونه . »

وتقدّم بيير لوي هؤلاء جميعاً، فأعلن بملء فيه أن القيود الأخلاقية حائلة في الحقيقة دون نموّ الذهن الانساني ونشوء مداركه . وما دام الإنسان لا يحطّم أثقالها ، ولا يتمتّع بلذّات نفسه وجسده بتمام الحرية فلا يمكنه ارتقاء عقلي أو علمي أو مادّي أو روحيّ . فحاول هذا الأديب بكل ما وَسِعَه من قوة وحزْمٍ أن يبرهن في كتابه أفروديت (Aphrodite) أن بابل والاسكندرية وأثينا وروما والبندقية وكل ما عداها من مراكز المدنية والحضارة كانت على أوج مجدها وأتمّ ازدهارها حينما كانت الميوعة والاباحيّة واتباع الأهواء (Licentiousness) فيها على أشدّها . ولكنه لما مُنيت الشهوات الانسانية فيها بقيود الاخلاق والتزامات القانون ، تقيّدت روحُ المرء وجمدَتْ في تلك القيود ، كما تقيّدت فيها أهواؤه وشهواته .

بيير لوي هذا كان في زمانه أديباً ذائعَ الصيت وكاتباً بارعَ الاسلوب وزعيماً لمذهبٍ أدبيٍ مستقلّ في فرنسا . وكان من ورائه فوج من كُتّاب الروايات والمسرحيات والمتكلّمين في مسائل الاخلاق، يؤيدون فكره وينشرون دعوته . فاستنفد قوة بيانه وإنشائه في تحسين العُري ومدح الحرية والانحلال في الذكور والاناث . وقد كتب في كتابه (افروديت) يمدح وينوّه بذلك العصر اليوناني :

« إذ كانت تستطيع الانسانية العُريانة – أي تلك الصورة التي هي أكمل ما يمكنُ أن يتصوَّر ، والتي قد علمنا عنها من أهل الديانات انها قد خلقها الله على صورته نفسه – أن تعرض نفسها على عشرين ألف ناظر في شخص عاهرة مقدَّسة ، تتكسَّر في مشيتها وتتثنَّى في غنجها ودلالها. وحينما لم يكن الحبّ الشهواني المتناهي الدرجة – أي ذلك الحبّ السماوي المقدّس الذي قد تولّدنا منه جميعاً – لم يكن إثماً ولا عاراً ولا نجساً ».

وبلغ به الغلو في فكرته هذه أنه صرّح بدون كناية أو تعريض بياني بأنه : « يجب علينا أن نستأصل بالتعليم الاخلاقي القويّ ، تلك الفكرة السَمْجة القائلة بان صيرورة الفتاة أماً قد تكون في حال من الاحوال غضاضةً أو أمراً محظوراً أساقطاً من مستوى الكرامة والشرف».

مظاهر الارتقاء في القرن العشرين

هذا هو الحدّ الذي بلغه الرقي الفكري في القرن التاسع عشر . ثم ظهر في سماء الفكر مع بداية القرن العشرين صقورٌ جُدد ، حاولوا أن يحلّقوا في سماء أعلى مما سما إليه من تقدمهم : فصدرت سنة ١٩٠٨ م مسرحية لبيير وولف (Pierre Wolff) وغاستون ليرو (Caston Leroux) توجد في إحدى مناظرها فتاتان تناقشان أباهما بحضر من أخيهما الشابّ في حريتهما لأن تُلقيا قلبيهما حيثما تشاءآن ، وتبينان له كيف تكون الحياة بدون الحب أمرّ من العلقم لفتاةٍ في مقتبل الشباب . وهناك فتاة أخرى

يعذلها أبوها الشيخ على مخادنتها لفتى ، فتُجيبه الابنة (الآنسة) : « لله كيف أفنعك يا أبت : فانت تكاد لاتفهم أنه لاحق لأحد أيّاً كان ، في أن يأمر فتاة - ابنته كانت أو أخته - أن تُفني زهرةَ عمرها بدون أن تحبّ » !

وجاءت الحرب العالمية الأولى ، فزادت سَورة حركة التحرُّر هذه بل انتهت بها إلى غايتها القصوى ، وذلك أن كان أكثر الأمم تأثراً بحركة منع التناسل ، هي فرنسا ، فكانت نسبة المواليد فيها إلى الانخفاض منذ أربعين سنة على التوالي ، ولم تكن إلا عشرون مقاطعة من مقاطعات فرنسا السبع والثمانين ، تربو فيها نسبة المواليد على نسبة الوفيات . وأما المقاطعات السبع والستون الباقية ، فكانت نسبة الوفيات فيها أكثر من نسبة المواليد . وكان معدل الوفيات في بعض مقاطعاتها يتراوح بين ١٣٠ و ١٧٠ بإزاء كل مائة مولود . فلما نشبت الحرب العالمية الأولى ودفعت الأمة الفرنسية إلى موقف حرج بين الموت والحياة ، أدرك أرباب فكرها بغتة أن هذه الأمة البائسة تفتقر إلى شباب مقاتلين ورجال محاربين، وأنه إن ضُحّي - على الفرض - بذلك العدد القليل من شباب الأمة وفتيانها في سبيل الدفاع عن الوطن في تلك الآونة ، فإنه لن تمكن النجاة من كرة العدوّ الثانية ، فكان من انبعاث هذا الشعور في نفوس الفرنسيين أن تملكت مشاعرهم فكرة الاستزادة من النسل ، حتى خبلتهم . وجعل الكتّاب والصحفيون والخطباء، وحتى أهل الجد من رجال الدين وزعماء السياسة ، كلهم يهيبون بالناس ، من كل جانب ، وبصوت واحد : أن

يُكثروا من التوليد والتناسُل ولا يبالوا القيود التقليدية من النكاح والزواج . ونادوا أن العذراء التي تتبرع برَحمها للتوليد خدمةً للوطن ، تستحقّ العزّ والكرامة، لا العتب والملام . وكان هذا العصر المضطرب بطبيعة حاله حافزاً قوياً لدعاة الحرية والاباحية، فانتهزوا الفرصة السانحة، وبثّوا جميع ما كان قد بقي في جَعْبة فكرهم الشيطاني من النظريات .

فهذا رئيس تحرير مجلة لا ليون ريبلكان (La Lyon Republi - cain -) الذي كان من رجال الصحافة البارزين في عصره ، يبحث أنه ما المبرّر لأن يُعدّ الزنا بالإكراه جريمة ؟ فيُبدي رأيه بما يلي :

« إذا أعوز الفقراء القوت وحملتهم المسغبة على ارتكاب السرقة والقتل والسلب ، قيل هيئّوا لهم الخبزَ ، يكفّوا عن السلب والنهب بأنفسهم . ولكن يا ليت شعري لماذا تأخذ النفوس هذه العاطفة ـ من النصح والمؤاخاة ـ لضرورةٍ من ضرورات الجسم الطبيعة ، ولا تتّسع لضرورةٍ طبيعيةٍ أخرى مثلها ـ لا تقلّ عنها خطورةً ـ وهي الحُبُّ . فكما أن السرقة يلجأ إليها المرءُ من شدّة الجوع، كذلك ينبعث فيه الأمر الذي يؤول إلى الزنا بالإكراه وربما ينتهي إلى القتل، من شدة إلحاح تلك الضرورة التي ليست أقلّ ركوزاً في فطرة الانسان من الظمأ والجوع... إن من الحق أن الشاب الذي هو في عافية صحّةٍ ووَفْرة قوّة، لا يستطيع كبح جماح شهوته العارمة كما لا يستطيع الصبر على جوعه مدّة أيّام رجاء أن يجد الطعام في الاسبوع القادم . وإن افتقار أحدنا إلى ما يُسكّن شهوته

الجنسية في بلادنا هذه التي تتوفّر فيها كل حاجات الانسان ، لا يقل خزياً وعاراً من فاقة أحدنا من الجوع . وإذا كنا نوزّع الخبز مجاناً على الجياع، فيجب علينا أن نمهّد الاسباب لإشباع الهالكين من جوعٍ آخر.

بقي أن نذكر أن مقالته هذه لم تكن من باب الهزل والفكاهة، بل كتبها الكاتب بكل جدٍ ، وقرأها الناس بجدّ أيضاً .

وفي تلك الايام اختارت كلية الطب (Faculty of medicine) في جامعة باريس ، مقالاً لدكتور فاضل ، ليمنحه شهادة الدكتوراه عليه ، فنشره في جريدتها الرسمية ، وكان من مضامينه مثل هذه العبارات:

إنا نؤمل أن يأتي علينا زمان ندع فيه الأنفة الكاذبة ، فنصرّح من غير استحياء ولا خجل ، بأني مرضت ـ مثلاً ـ بمرض الزهري في سن العشرين ، كما أننا نقول الآن بدون تردُّد قد بعثوني إلى الجبل لكوني مريضاً بالسل . . . ذلك بأن هذه إن هي إلا ثمن يؤدّيه المرء لتمتّعه بلذّات الحياة . فمن لم يذُقْ مرارتها وقضى شبابه سليماً منها ، فإنه لا ريب وجود ناقص لم يبلغ كماله بعد، وقد قصر في وظيفةٍ كانت من أبسط وظائفه الطبيعية ، لجُبنه أو لهمود غريزته أو سوء فهمه الناشىء عن ديانته .

ادب الحركة المالطوسية الجديدة

وَيجْمُل بنا ، قبل أن نطّرد في البحث ، أن نلقي نظرة على

الأفكار التي قدّمها القائمون بحركة منع التناسل . ولعله ما كان في حسبان الاقتصادي الانكليزي الاحصائي مالطوس (malthus) حينما عرض في أواخر القرن الثامن عشر اقتراحه بضبط التوليد منعاً لازدياد العمران ، أن اقتراحه هذا سيعود بعد قرن من السنين أكبر عامل في اشاعة الفاحشة والفجور . فإنه لم يقصد به حينئذ إلا أن يُشير على قومه بضبط النفس وعقد الزواج في السنّ المتقدمة تفادياً من زيادة النسل وتزاحم العمران . ولكنه لما نشأت في آخر القرن التاسع عشر الحركة المالطوسية الجديدة (Neo malthusian movement) كان مبدؤها الرئيسي أن تُقضى شهوة النفس بحرية تامة ، ثم تُمنع نتيجتها الطبيعية ـ أي الحمل والولادة ـ بوسائل العلوم التجريبية. فجاء هذا المبدأ الجديد يُزيح العقبة الاخيرة التي كانت عسى أن تعترض طريق الناس إلى المخادنة والمعاشرة الجنسية المطلقة . إذ عادت المرأة الآن تستطيع أن تُسلم نفسها لأجنبيّ بلا حذر من أن تحمل منه ويقع عليها ما يتبعه من تبعات . وليس هنا موضع ذكر النتائج التي آلت إليها حركة منع التناسُل وإنما نريد أن نسرد بعض النماذج من الافكار التي قد أكثروا من بثّها ونشرهـا في الآداب التي سايرَتْ حركة ضبط التوليد .

إن الاسلوبَ الذي تعرِضُ بهذه الآدابُ مقدّمة المالطوسية الجديدة يتلخّص في انّ : كل انسان يواجه ـ من فطرتـه ـ حاجات ثلاث ، هي أشد واعنف من سائر الحوائج. أولاها حاجة الغذاء ، والثانية:

حاجة الجمام والثالثة : الشهوة الجنسية وقد ثبّت القدر جميع هذه الحاجات في نفس المرء تثبيتاً ، وجعل له في قضائها لذّة مخصوصة حتى يرغب فيها ويحرص عليها فمن مقتضى العقل والمنطق ان يشب المرء إلى تحقيق تلك الحاجات . وهو يفعل ذلك في الواقع بالنسبة للحاجتين الا ّ انــــه من العجب أن صنيعه بشأن الثالثة يختلف عن صنيعه في الاولين اذ تلزمــه الاخلاق الاجتماعية بان لا يحقق شهوته الجنسيـة إلاّ في حدود النـكاح . ثم توجب على الرجل والمرأة المرتبطين برباط النكاح ان يلتزما الوفاء والتعفّف ، وتشترط عليها فوق ذلك كلـه الا ّ يمنعـا التوليد . كل هذه الامور عبث وباطل،ومناقضة للعقل والفطرة ومخطئة في صميمها ومبـادئها وعائدة على الانسانية باسوإ العواقب .

فانظر الآن هيكل الانـكار الذي يُشاد على هذه المقدمات الاساسية. يكتب بيبل زعيم الحزب الديمقراطي الالماني بلا تحرّج :

« وهل الرجل والمرأة الا نوع من الحيوان ؟ وهل يكون بـين أزواج الحيوانات شيء من قبيل النـكاح ... بَلْهَ النكاح الابدي ؟! »

ويـكتب كذلك الدكتور دريسدل (Drysdale) :

« ان الحب كسائر رغباتنا وشهواتنا شيء قابل للتغيّر فحصْره في طريقة مخصُوصة ادغال في قوانين الفطرة . وان شبابنا يميلون بطباعهم الى هذا التغيُّر بوجه خاص ونزعتهم هذه مطابقة لذلك النظـام المنطقي

الفطري الذي يتقاضى الانسان ان تكون تجاربه في الحياة متنوّعة متلونة... ان العلاقة المطلقة من قيد النكاح مظهرٌ للخُلق العليّ لأنها ادنى الى نواميس الفطرة ، ولأنها تنشأ عن العواطف والأحاسيس والحبّ المحض مباشرة . وان الشوق والنزوع الذي تتولّد منه هذه العلاقة ، شيء عظيم القدر غالي القيمة في الاخلاق . وأنّى تتيّسر هذه الميزة لتلك المعاملة التجارية التي تجعل من النكاح في الحقيقة مهنة (Prostitution) يُحترف بها » .

فانظرْ كيف تتبدّل النظرية ــ بل كيف تنقلب رأساً على عقب . فبينما كان يحاول القوم فيما قبلُ ، ان يمحوا عن النفوس فكرة استشناع الزنى ، حتى يستوي النكاح والسفاح في نظر الاخلاق ، اذ هم يجاوزون ذلك الى ان يحطّوا من قدر النكاح فيجعلوه عاراً ويرفعوا السفاح إلى درجة الفضيلة الخلقية . ويكتب هذا الدكتور نفسه في موضع آخر :

« الحاجة ماسّة الى اتّخاذ التدابير التي تجعل الحب بغير قيد الزواج شيئاً يُجَلّ ويُكرَّم ... ومما يسرّ أن سهولة الطلاق في هذا الزمان لاتزال تمحق طريقة النكاح رويداً رويداً ولم يعُد النكاح الآن إلا معاهدة بين شخصين على المعاشرة ، لهما الخيار في إلغائها متى شاءا : وهذه هي الطريقة الصحيحة الوحيدة للارتباط الجنسي » .

ويصرح بول روبين (Paul Robin) الزعيم المالطوسي المشهور في فرنسا :

« من المقتنم أننا قد بلغنا من النجاح في مساعينا لمدة ربع القرن الماضي أنه قد أصبح ولد الزنية في منزلة اولاد الحلال فلا يبقى بعد هذا إلا أن يكون أولادنا جميعاً من هذا النوع الاول فقط . حتى نستريح من هذه الموازنة بين النوعين من الاولاد » .

وهذا الفلسفي الانكليزي (مل) يقر في كتابه « حول الحرية » (On Liberty) على أن يُحظر الزواج على كل من لا يستطيع أن يبرهن أنه يملك من وسائل العيش مايكفي لحوائج الحياة . ولكنه لما نشأت في انكلترا مسألة محاربة البغاء (Prostitution) عاد هذا الفلسفي نفسه يعارضها بكل شدة وقوة ، بحجة انها تحامُل على الحرية الشخصية وإهانة للعمّال ، لانها بمثابة معاملة لهم كمعاملة الاحداث الصغار .

فتأمّل كيف يُكبرون ويحترمون الحرية الشخصية اذا استعملها المرء في ارتكاب الفاحشة . ولكنه إن أراد هنيهةً ـ في نظارهم ـ أن يستعملها لعقد النكاح ، فلا يعود حقيقاً بان تراعى حريّته او تُحترم . ولا يرضى القوم ان يتدخّل فيها القانون فحسب ، بل يعدّ أحرارُ الفكر من فلاسفتهم هذا التدخّل من القانون عين المُقتضى والمطلوب . وهنا يبلغ انقلاب النظرية الخلقية مداه الأبعد وغايته القُصوى التي لامطمح بعدها لطامح ، حيث ينقلب كلُّ عارٍ فضيلةً ، وتصبح كلُّ فضيلة عاراً ورذيلة .

النتائج

من شأن الآداب أنها تتقدّم في النهج الجديد، والرأي العام يتبعها ويقفو آثارها ، حتى تخضع لها آخرَ الامر أخلاق الامة وقواعد المجتمع وقوانين الحكومة كلها . وإن مجتمعاً تتفاعل فيه جميع الادوار لتربية الاذهان ولترويض الافكار ، كالفلسفة والتاريخ وتعاليم الاخلاق وفنون الحكمة ، والرواية والدرامة والمسرحيات والفن الجميل ، وتستمرّ مدة قرن ونصف على التوالي تُثبّت في صميم الذهن الانساني أسلوباً فكرياً بعينه ، فلا يمكن أبداً ألاّ يتأثر ولا ينفعل بذلك الاسلوب الفكري . ثم ان كان نظام الحكومة وسائر الادارات الاجتماعية في ذلك المجتمع قائمة على المبادىء الديمقراطية ، فلا يمكن فيه كذلك ألاّ تتبدّل القوانين بتبدل الرأي العام .

الثورة الصناعية وآثارها :

من غرائب الاتفاق أنه قد واتت هذا الانقلاب الفكري ، وهو في صدر شبابه ، أسبابٌ تمدنية اخرى . ففي هذا العصر قامت الثورة

الصناعية الشهيرة . وأعقبتها تغيرات هامّة في الحياة الاقتصادية ، كان من آثارها المترتبة على الحياة التمدنية ماهو عونٌ على تحويل وجهة سَيْر الاجتماع الى حيث تريد الآداب الانقلابية ان تحوّلها . وذلك أن تصوُّر الحرية الشخصية ، الذي نشأ عليه النظام الرأسمالي ، جاءت الاختراعات الميكانيكية وإمكانات وفرة الانتـــاج الصناعي Mass production تحكمه وتقويه . فأقامت الطبقات الرأسمالية مؤسّسات صناعية وتجارية كبرى . وتحوّلت المراكز الجديدة للصناعة والتجارة الى مُدن عامرة أصبح ينجرُّ اليها من القرى والارياف أضعاف الملايين من النفوس . وغلَتْ تكاليف الحياة غلاء فاحشاً . وارتفعت أسعار الحاجات للحياة ، من المطعم والملبس والمسكن ، الى مافوق طاقة العامّة . زد على ذلك أن أضيف الى حاجات الحياة مالا يحصى من وسائل المعيشة المتجدّدة ، لاسباب راجع بعضها الى ارتقاء التمدُّن وبعضها الى مساعي أهل الثروة ولكن النظام الرأسمالي لم يوزّع الثروة بين الناس بما يكفل للجميع وسائل الحصول على تلك المُتَع واللذّات وادوات الزينة والزخرفة التي أدخلها في لوازم الحياة بل هو لم يهيىء للعامة من وسائل المعاش مايسدّون به عوزهم بسهولة من حاجات الحياة الحقيقية ـ وهي السُكنى والطعام واللباس ـ في تلك المدن التي قد زجّ بهم اليها . كان من نتائج ذلك أن أصبحت المرأة كلاًّ على زوجها ، وأصبح الولد عبئاً على أبيه . وتعذّر على كل فرد أن يقيم أوَد نفسه ، فضلا عن أن يمول غيره من المتعلّقين به . وقضت الاحوال الاقتصادية أن يكون كل واحد من أفراد المجتمع

عاملا مكتسباً . فاضطرّت جميع طبقات النساء - من الابكار والايامى والثيّبات - أن يخرجن من بيوتهنّ لكسب الرزق رويداً . ولما كثُر بذلك اختلاط الصنفين واحتكاك الذكور والاناث، واخذت تظهر عواقبه الطبيعية في المجتمع ، تقدّم هذا التصور للحرية الشخصية وهذه الفلسفة الجديدة للاخلاق ، فهدّأا من قلق الآباء والبنات والإخوة والاخوات والبعولة والزوجات ، وجعلا نفوسهم المضطربة تطمئنّ إلى ان الذي هو واقع أمام أعينهم ، لا بأس به ، فلا يوجد منه خيفةٌ ، إذ ليس ذلك هبوطاً وتردّياً ،بل هو نهضة وارتقاء(Emancipation)،وليس فساداً خلقياً ، بل هو عين اللذة والمتعة التي يجب أن يقتنيها المرء في حياته . وان هذه الهاوية التي يدفع بهم اليها الرأسمالي ، ليست بهاوية النار ، بل هي جنّة تجري من تحتها الانهار .

اثرة الرأسماليين

وما وقف الأمر عند هذا الحد . بل جاء النظام الرأسمالي الذي رُفعت قواعده على هذا التصوّر للحرية الشخصية، فمنح الفرد حقاً مطلقاً من كل قيدأو شرط،في اكتساب الثروة بكل ما أمكنه من الطرق. وتبعته فلسفة الأخلاق ، فأباحت له كل وسيلة يمكن أن تتّخذ لجمع الاموال ، وإن كان إثراء الفرد الواحد بتلك الوسائل والطرق مَهْلكَةً أفراد كثيرين . وبذلك تألّف نظام التمدّن من أوله إلى آخره على صورةٍ تؤثر الفرد على الجماعة من كل وجهة ، وليس فيها ضمان للمحافظة على

مصالح الجماعة بإزاء أثرة الفرد . فانفتحت السُبُل على إخوان الطمع والأثرة ليغيروا ويعتـدوا على المجتمع كيف يشاؤون . فعمد هؤلاء إلى الغرائز الانسانية يتجسّسون فيها مواطن الضعف والخلل ، وراحوا يتفنّنون في استغلالها لاغراضهم . فقام واحدهم ، وروّج في الناس سيئة الخمر،جلباً للثروة إلى جيبه ، ولم ينهض منهم من يُنقذ المجتمع من غوائل هـذا الطاعون . وقام آخر ، وابتلى خلق الله بآفة الربا ونصب شبكته في القاصية والدانية ، وما هنالك من يدفع عن دماء حياة الناس ضرّ هذا العلق ، بل حافظت القوانين على مصلحة هذه الدويبة الفتّاكة كي لايسلم منها أحد بقطرة من دمه . وجاء ثالث . وأشاع في المجتمع طرقاً مبتكرةً للقمار ، حتى لم تسلم شعبة من شعب التجارة من عنصره ، وما ثمّة من يتقدّم لحفظ الحياةالاقتصادية من هذه الحُمى المحرقة . وما كان من الممكن في هذا العصر من الانانية والبغي والعدوان الفردي ، أن يعزُبَ عن إخوان الاثرة والطمع ذلك الضعف الانساني الاكبر،الشهوة الجامحة التي يمكنهم باستثارتهاجلب كثير من المنافع . فلم يفتهم ذلك فعلا. بل استخدموا غريزة الشهوة العارمة في الانسان ما وسعهم وما أمكنهم إذ أصبح مدار العمل والعناية كله في المراقص والمسارح ومرا كزاخراج الافلام على أن تستخدم لها الغيدالحسان ، ويعرضن على المنصّة في صورة أكمل من التبرّج ، وفي هيئة أقرب إلى العُري ، ويجلب الذهب من جيوب الرجال بأكثر ما يمكن من إضرام نار الشهوة فيهم . وجاء قوم ، فمهّدوا الاسباب لإكراه النساء ، وتقدموا بحرفة البغاء إلى أن أصبحت

تجارة دولية منظّمة . وجاء آخرون ، فتفنّنوا في صنع أدوات الزينة والزخرفة ، ثم عمموها في المجتمع ، ليزيدوا من غريزة التبرج التي جُبلت عليها المرأة ، إلى أن يجعلوها فيهن هوساً ، ويجمعوا بذلك الذهب والفضة ملء أكفهم . وجاءت فئة أخرى ، فاخترعوا الملابس النساء أزياء كاشفة مغرية ، واستخدموا كل فاتنة الجمال ، لتلبسها وتمشي بها النوادي والحفلات حتى يُقبل عليها الشباب ويُفتنوا بها ، فتُغرم الفتيات بتلك الازياء الجديدة من اللباس ، وتربح تجارة مخترعيها . وتـذرّع آخرون بإشاعة الصور العارية والقصص الغرامية والمقالات الخليعة ، إلى استدرار الاموال ، وأخذوا كذلك يملؤون جيوبهم بإصابة العامة بالجزام الخلقي ، حتى انتهت الحال ، على مضي الأيام ، الا أن لم تبق ناحية من نواحي التجارة خالصة من عنصر الإغراء . وهاأنت ذا صرت لا ترى في زمانك هذا إعلاناً من الاعلانات التجارية في الجرائد والمجلات ، إلا وسيمته الملازمة البارزة صورة امرأة عارية أو في حكم العارية . كأنه لم يعُد من الممكن أن يكون إعلان ما وافياً بالغرض بدون وجود المرأة . ولا تجد كذلك فندقاً من الفنادق ولا مقهى ، ولا صالة عرض ، الا وقد استُخدمت فيها المرأة لتعمل عملها المغناطيسي في الرجال . وكان المجتمع المسكين المخذول لا يملك ـ حيالَ ذلك كله ـ إلا وسيلة واحدة للمحافظة على مصالحه ، وهي أن يستعين بتصوّراته الخلقية على دفع تلك الغارات عن نفسه ، ويتحفّظ من استيلاء غريزة الشهوة عليه . ولكن النظام الرأسمالي لم يكن من الضعف والهوان بحيث يمكن ردّ حملته بسهولة . وإنما كان من ورائه فلسفة كاملة الأداة ، وعسكر شيطاني عرمرم ، من العلوم والآداب ، كانا لا يزالان

يعملان عملهما في نسخ النظريات الخلقية ومحوها عن النفوس ، ومن براعة القاتل - والله - أن يحمل قتيله على الاستسلام للقتل بطيب خاطره ورضاه.

النظام السياسي الديمقراطي

وما انتهت النكبة بهذا كله . بل جاء هـــذا التصوُّر نفسه للحرية فأنتَجَ في الغرب نظام الحكم الديمقراطي الذي أصبح ، على الأيام ، أقوى سبب لاستكمال هذا الانقلاب الخلقي .

ان المبدأ الرئيسي الديمقراطية الجديدة أن الناس بيد أنفسهم حكمُهم وتشريعُهم ، وإلى أنفسهم كل التصرف في القوانين ، يضعونها كما يشاؤون ويبدّلونها حسب مايرضون إذا كرهوا فيها أشياء . فمن النتائج الطبيعية لهذا المبدأ أنهم لايسلمون بسلطة قاهرة من فوقهم تتنزَّه عن نقائص الطبع البشري وضعفه ، فيتجنَّب الانسان ضلال الفكر والعمل باستسلامه لهدايتها . وأنه ليس عندهم قانون أساسي يثبت على غير الازمان ويتعالى عن أن يتدَخل في شأنه الانسان ، ويؤمن بكون مبادئه أبدية لا تقبل النسخ ولا التبديل . ثم إنهم لايجدون مقياساً يُمتحن به الصحيح من الزائف ، لايميل مع الاهواء والرغبات الانسانية بل تكون صفته الدوام والاستحكام. وهكذا جاءت النظرية الجديدة للديمقراطية فأنزلت الانسان منزلةَ المختار المطلق الخلي من كل مسئولية ، وجعلته شارع نفسه بنفسه وجعلت مدار كل نوع من التشريع على الرأي العام فحسب .

ومن البديهي أنه اذا كانت قوانين الحياة الجماعية كلها تابعة للرأي العام ، وكانت الحكومة كالعبد لإله هذه الديمقراطية الجديدة ، فلا يمكن

سلطات القانون والسياسة أن تصون المجتمع عن الانحلال الخلقي ... وماذا أقول ، بل هي تعود بنفسها عوناً على إفساد المجتمع ودفعه إلى المهالك . ذلك بأن كل تغيّر في الرأي العام يتبعه لا محالة تغيير في القانون ، وتتبدل مبادئه وضوابطه مع تبدّل نظريات العامة حتى تلائمها وتنطبق عليها . ولا يكون للحق والخير والصلاح مقياس غير كثرة الاصوات بحقّ هذا الجانب أو ذاك . وان اقتراحاً مهما بلغ من خبثه وضرره ، ان كان قد نال من رضى العامّة مايكسبه ٥١ صوتاً في المائة ، فلا شيء يمنعه من أن يسمو إلى مرتبة الشرع . ومن أقبح الامثلة لذلك وأجدرها بالاعتبار ماحصل في ألمانيا قبل العصر النازي . وذلك أن فاضلاً من أبنائها يدعى الدكتور ماغنوس هرشفيلد (Magnuz Hirchfeld) وكان في الماضي رئيسا لرابطة الاصلاح الجنسي العالمية (World League of Sexual Reform) قام فيها بأشد مايكون من الدعاية بحقّ سوءة قوم لوط مدة ست سنين ، حتى رضي إلـه هذه الديمقراطية ان يحلل هذا الحرام ، فقرّر المجلس التشريعي الالماني بأكثرية الاصوات ، أنْ لم يعد الآن هذا الفعل جريمةً ، بشرط أن يرتكب برضا الجانبين . وان كان المفعول به دون سن البلوغ فيكن الرضا بيد وليه في هذا الشأن .

على أن القانون بطيءٌ بطبيعة حاله في الخضوع لهذا الإله الديمقراطي . ولا ريب أنـه يتبع أوامره وينزل على ارادته ولكن بشيء من التواني والتكاسل . وهـــذا التقصير الذي يبقى في عبوديته الكاملة للمعبود الديمقراطي ، تتداركه الايدي العاملة في جهـاز الحكومة . فان الذين يديرون أمور الحكومات الديمقراطية يتقدمون في هـذه الجهة ويتأثرون

بتلك الآداب والفلسفات والميول العامّة التي تنتشر فيما حولهم ، قبل أن يتأثر بها القانون ، فتُباح بفضل عنايتهم وعطفهم كل رذيلة عمّ رواجها في المجتمع وتقبل (رسميّاً) . وتعود كثير من الاشياء المحرّمة في القانون، في درجة الحلال لكون الشرطة والمحكمة تتسامح فيها وتجتنب تنفيذ القانون في أمرها . خذ لذلك مثلا أمر الاجهاض الذي لا يزال حراماً في القوانين الغربية، ولكنه ليس هناك قطر من الاقطار إلا وتُقترف فيه هذه الجريمة الشنيعة علناً وعلى نطاق واسع . فهذه انكلترا يسقط فيها تسعون الف حمل في كل سنة على أقلّ تقدير ، وتكون في كل مائة من المتزوجات فيها خمس وعشرون - على الأقل - إما يباشرن الاسقاط بأيديهن أو يستعنّ عليه بالمتخصصين . وترتفع هذه النسبة فوق هذا في غير المتزوجات ثم قد أنشئت في بعض المدن هناك نوادٍ منظّمة للاسقاط ، تؤدي النساء ثمن اشتراكهن فيها كل أسبوع ، لكي يتسنى لهن استخدام متخصص في الإسقاط يومَ الحاجة. ويكثر في لندن عدد دور التمريض (Nursing Homes) التي تكون معظم المريضات فيها من المسقطات [1] ولكن مع هذا كله لا يزال الاسقاط في كتاب القانون الانكليزي في عداد الجرائم بعد.

الحقائق والشواهد

والآن أريد ان أبيّن بشيء من الشرح والتفصيل فساد هذه العناصر الثلاثة - اي النظريات الخلقية الجديدة ، ونظام التمدّن الرأسمالي ، والنظام السياسي الديمقراطي - وكيفية تفاعلها وتأثيرها في الأخلاق الجماعية

(١) هذه التفاصيل قد ذكرها الاستاذ (جود) في كتابه (Guide to Modern Wickedness) الذي صدر منذ عهد قريب .

والعلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة ، ونوعية النتائج التي قد أعقبتها في واقع الامر . ولأنه كان اكثر كلامي في الصفحات الماضية في ارض فرنسا ـ التي نشأت منها هذه الحركة ـ فسأقدم فرنسا ايضاً في الاستشهاد بأحوالها فيما يأتي (١) .

خدر الشعور الخلقي

ان ماذكر آنفا من النظريات . كان من اول آثار شيوعها في الناس وأبرزها ، ان اصبح يخدر فيهم الاحساس الخلقي في الشئون الجنسية . وغاض فيهم الحياء والاحتشام ، والغيرة والنخوة ، وزال عن نفوسهم الفرق بين النكاح والسفاح ، حتى أصبح الزنا عندهم عملا بريئاً ، لا يعاب ولا ينكر ، وليس لإخفائه من لزوم .

وإلى منتصف القرن التاسع عشر بل الى خاتمته ، لم يصب النظرية الخلقية عند عامة الفرنسيس من التغير إلا ان اصبح زنى الرجال هيناً طبيعياً . يغضي الآباء عن دعارة ابنائهم بشرط ان لا تصيبهم بالامراض السرية ولا تدخلهم في الإجراءات القانونية ، بل ربما يستبشرون بها اذا آنسوا لهم من ورائها ربحاً مادياً ، ولا يرون غضاضة في تعلق رجل بامرأة بدون الزواج . وفي رواياتهم أمثلة من كون الآباء قد الحوا بانفسهم على اولادهم في مخادنة امرأة ذات مكانة اجتماعية او ذات مال وثروة ، ضماناً المستقبل الزاهر . ولكن نظريتهم بشأن المرأة كانت

(١) قد استفدت معظم هذه المعلومات من كتاب العالم الاجتماعي الفرنسي الشهير: بول بورو (Paul Bureau) المسمى: (Towards Moral Bankruptcy) الذي نشر في لندن سنة ١٩٢٥م .

مختلفة عن ذلك جداً الى تلك الآونة . فكان عفاف المرأة شيئاً له قدره وقيمته في كل حال . وأولئك الآباء الذين كانوا لا يرون بأساً بخلاعة أبنائهم وينسبون كل ذلك منهم الى سورة الشباب ، ما كانوا يرضون أن يروا بأعراض بناتهم دَنَساً او وصمة . وكانت الفاجرات من النساء لا يتيسر لهن من العيب كالفاجرين من الرجال . وان قالة السوء التي تنصب على المومسة في المجتمع ، كانت لا تنال الرجل الذي يباشرها . وكذلك ما كانت القيمة الخلقية في الحياة الزوجية متساوية بين الرجل والمرأة فبينما كان فجور الزوج هنة يغض عنها الطرف ، كان فجور الزوجة شيئاً عظيماً يقوم له الناس ويقعدون .

ولكن تغيرت هذه الحال مع مطلع القرن العشرين . اذ كان من آثار المساواة بين المرأة والرجل ، التي نفخت في صورها حركة تحرير المرأة ، ان جعل الناس يتهاونون بفجور المرأة كتهاونهم بفجور الرجل. ولم يعد تعلق المرأة أيضاً بالرجل بدون الزواج شيئاً يدنس عفتها وكرامتها . فيقول بول بيورو :

ولم يقف الامر عند المدن الكبيرة فحسب ، بل قد اصبح الشبان في القرى والارياف ايضاً ، يعترفون بأنه ليس لاحدهم حق في توخي العفة والبكارة في مخطوبته ، اذا كان هو نفسه لا يتصف بالعفاف . وقد عاد من الهين المعتاد في (برغندى) و (يون) وغيرهما من الأقاليم أن تكون الفتاة قد عاشرت عدة من الاخدان قبل زفافها ، ثم لا تجد في نفسها حرجاً من حكاية قصة حياتها الماضية لخاطبها عند الزواج وكل هذا الفجور منها لا يثير سخطاً أو كراهية حتى في أقاربها الادنين ، بل هم

يخوضون في أحاديث غرامها بانبساط، كأني بهم يتحدثون عن لعبة رياضية أو شغل تجاري. وإذا كان موعد النكاح ودَخَلَ الزوج الذي يكون عارفاً، لابحياة عروسه السابقة فحسب، بل باخدانها الذين قد بقوا يتمتّعون بجسدها إلى تلك الآونة أيضاً، فإنه يحاول جهده ألاّ يبدو منه مايوهم الناس أن بنفسه كدراً، في شيء مما يعلم من مشاغل عروسه الماضية».

ويمضي كاتبا :

« كثيرا ما نشهد في الطبقات المتوسطة من المتعلّمين، حتى قد اعتدناه، أن فتاة متعلّمة، من أسرة كريمة، تعمل في مكتب أو شركة تجارية على منصب لا بأس به وتعيش في مجتمع مهذّب، اذا بها تستأنس بشاب، وتروح تعاشره وتصاحبه. ولا يكون لزاماً عليها بعد ذلك كله أن يتزوّجا بل هما يؤثران أن يتعاشرا بدون قيد الزواج، لمجرّد أن تكون لاحدهما الحرية، اذا شبع من الآخر وقضى لبانة نفسه منه، أن يفارقه ويتّخذ له خليلا آخر. وكل منْ حولهم من الناس يعلمون هذا الوضع من علاقة ما بينهما. ثم هما يغشيان الاوساط العالية والمهذّبة جنباً لجنب، لا هما يخفيان علاقتهما تلك، ولا يجد أحد من غيرهما سوءاً في حياتهما على ذلك النحو. وقد كان الذين جرَوا على هذه الطريقة بادىء ذي بدء هم العاملون في المعامل والمصانع، فلقيَتْ من الناس أشدّ مايكون من السُخْط والانكار لاول وهلة. ولكنها قد شاعت الآن في الطبقات العالية، وتبوّأت في الحياة الاجتماعية تلك المنزلة التي كانت للنكاح في الزمان الغابر» الصفحة ٩٤ ـ ٩٦

فأصبح هذا النوع الجديد من المابوسة ألفها الناس ويسلّمون

بوجودها الشرعي. فهذا موسيو بر تليمي أستاذ القانون في جامعة باريس يكتب : ان الموسة تكاد تنال في المجتمع نفس المنزلة التي كانت فيه للزوجة فيما قبل .فقد عاديجري ذكرها في البرلمان ، وأصبحت الحكومة تحافظ على مصالحها . والموسة الجندي الآن من النفقـة مثل مالزوجته . وان مات ، نالت موسته من راتب التقاعد مانناله الزوجة التي كان قد عقد عليها .

ولك أن تقدّر تهاون الفرنسيين بالزنى وكيفية كونه غير معيب في اخلاقهم ، أن معلمة في بعض المدارس جاءت بحمل في سنة ١٩١٨ م على كونها عذراء . وكان بين رجال المعارف أشياع للفكر القديم . فرفعوا عقيرتهم بالسخط والانكار. فوفد على وزارة المعارف نفر من أعيان الأمة ووجوهها ، واحتجوا عندها على مافعلت المعلمة . ولكن الوزارة دافعت عنها بالحجج الآتية التي وجد فيها من القوة والرجاحة ماسوّغ ان يخلى سبيل المعلمة :

١ ـ ماللناس وللتدخل في الحياة الشخصية لغيرهم ؟

٢ ـ وما هي الجريمة التي قد ارتكبتها المعلمة ؟

٣ ـ اليست صيرورة المرأة أما بدون الزواج أدنى الى الطريق الديمقراطي ؟

ومن جملة مايهتم الجنود الفرنسيون من الامور الهامة ، التـدابير التي ينبغي ان تتخذ لاتقاء الامراض السرية ولمنع الحمل . كأنه من المعلوم المسلم به ان كل جندي لابد ان يزني. وفي يوم ٣ مايو من سنة ١٩١٩م، نشر قائد لبعض الفرق العسكرية إعلاناً للجنود التابعة له ، فيه :

«وقد بلغنا ان عامة الرجّالة والخيالة يشتكون من تزاحم رجال البنادق على دور البغاء الجندية فيقولون إنهم قد كادوا يستبدون بها ولا يدَعون غيرهم يتمتعون بها . وإن مكتب القيادة لايزال يسعى لزيادة عدد النساء، حتى يكفين لجميع الجنود . ولكن قبل أن يتم ذلك ، نوصي رجال البنادق ألا يطيلوا مُكثهم داخل تلك الدور ، ويتعجلوا بقضاء شهواتهم ما استطاعوا ...»

ليتأمل القارىء هذا الاعلان الذي ينشره رسمياً قسم الدفاع لدولة من أرقى دول العالم ثقافة وتهذيباً . أفلا يُستنتج منه أن لم يبق في قلوبهم حبة خردل من الاعتقاد بشناعة الزنى وكونه عيباً خلقياً . وأنه قد خلا من هذا التصور عندهم كل من المجتمع والقانون والحكومة(١) .

وأنشئت في فرنسا قبل الحرب العالمية الاولى بقليل ، وكالة« كان مبدؤها أن كل امرأة مهما كانت بيئتها وظروفها وحالتها الاقتصادية وسلوكها

---

(١) وقد يقدر القارىء أن جنداً هذه حالته الخلقية ، إذا دخل فاتحاً قطراً من أقطار العالم فأي فجيعة عسى أن تصاب بها الامة المغلوبة في عفتها وطهارتها ونزاهتها على أيديه . هذا طرف المقياس الخلقي في الجنود ، يقابله طرف آخر من القياس الذي يعرضه القرآن بقوله (الذين إنْ مَكَّنَّاهُم في الأرْضِ أقَاموا الصلاةوآتَوا الزكاةوأمَرُوا بالمَعْرُوف) . فبجانب جندي يمشي في الارض كالجمل الهائج المغتلم وبجانب آخر جنـدي يخرج في أرض الله مستميتاً في سبيل المحافظة على الاخلاق الانسانية ودعوة أهل الارض الى الطهارة والصلاح . أفقد بلغ من عمى الانسان أن لايدرك الفرق بين هذا وذاك ؟

العملي والخلقي، قد تُقنع بضرورة (تجربة جديدة) وتُحمل على ممارستها. فليس على من كان يودّ الاتصال بآنسة من الاوانس إلا أن يعلم الوكالة بعنوان تلك الآنسة ويؤدي ٣٥ فرنكا على سبيل الاجرة البدائية ، وعلى الوكالة بعد ذلك أن تراود الآنسة على الأمر. ودلت سجلات هذه الوكالة على أنه لم تكن طبقة من طبقات المجتمع الفرنسي ، إلا وعامل كثير من أناسها هذه الوكالة وتمتعوا بخدماتها ثم لم يكن هذا الشغل خافياً على الحكومة.

(بول بيورو : الصفحة ١٦)

وقد بلغ هذا الانحطاط الخلقي الى الدرك الاسفل أن :

ولم يعد الآن من الغريب الشاذ وجود العلاقات الجنسية بين الاقارب في النسب ، كالأب والبنت، والاخ والاخت ، في بعض الاقاليم الفرنسية وفي النواحي المزدحمة في المدن » .

كثرة الفواحش

ولقد كان عدد النساء اللاتي كن يحترفن البغاء قبل الحرب العالمية الاولى : نصف مليون ، حسبما أعلن موسيو بيولو (M . Bulo) محامي فرنسا العام في تقريره . ولكن لا يقيسنّ القارىء أمر تلك العواهر المثقفة المهذبة على ما يجد من حالهن في بلاد الشرق . ذلك بأن فرنسا قطر مهذب متمدن ، فلا بد أن تكون جميع أموره على درجـــة عالية من الأناقة والتهذيب والتنظيم . فهناك يُستخدم لهذه الحرفة من الجرائد والبطاقات

المصورة ، والتليفون ورقم الدعوة الشخصية ، لاستمالة قلوب الورّاد . ولا يلوم ضمير الرأي العام على شيء من ذلك ، بل ربما عادت اللائي يبرّزن على غيرهن في هذه التجارة ، ذوات سلطة ونفوذ غير قليل في السياسة الوطنية والمسائل الاقتصادية وطبقات الأعيان والأمراء ، وبكانات أخرى ينلن من الرقي مثل ما نالته المومسات في التمدن اليوناني فيما قبل .

وصرّح موسيو فرديناند دريفوس (M . Ferdinand Dreyfus) أحد أعضاء المجلس الفرنسي منذ بضع سنوات ، « أن حرفة البغاء لم تعد الآن عملاً شخصياً ، بل قد أصبحت تجارة (Business) برأسها ، وحرفة منظمة (Organized Industry) بفضل ما تجلب وكالاتها من الأرباح الغزيرة . فلها في هذه الايام وكلاء يهيئون (المواد الخام) ، وآخرون يتجولون في البلاد ، ولها الآن أسواق منظمة ، تُستورد فيها وتُصدر منها الفتيات والصبايا كالأموال التجارية . وأكثر ما يُطلب في هذه الاسواق من الاموال هو بنات دون العاشرة » . ويكتب بول بيورو : « ان هذا العمل (أي احتراف البغاء) قد أصبح في زماننا نظاماً محكم التركيب ، يجري بما شئت من التنظيم على أيدي الموظفين والعاملين المأجورين . ويخدمه ويعمل فيه ارباب القلم وناشرو الكتب والخطباء والمحاضرون والاطباء والقابلات والسياح التجاريون ، ويُستعمل له كل جديد من فنون النشر والعرض والاعلان » .

ثم لم يقف أمر هذه الفاحشة على دور البغاء ومكامن الدعارة المعروفة ،

بل هو قد جاوزها إلى الفنادق والمقاهي والمراقص فيجري فيها البغاء علناً وعلى مشهد من العالم وربما تبلغ البهيمية في القائمين بها أقصى حدود الظلم والقساوة ، فيقال إن محافظ بلدية في شرقي فرنسا اضطر إلى التدخل في الامر سنة ١٩١٢م ، لإنجاء فتاة كانت قد فرغت في يومها من سبعة وأربعين وارداً ، وكان عدد منهم بعدُ بالباب يترقبون !

وجاءت الحرب العالمية الاولى ، فابتدعت بدعة (البغاء المتطوّع) علاوة على (البغاء التجاري) المعروف. وبلغ هذا النوع المبتكر للفحشاء من عظم الشأن أن أكرمت النساء المُحبّات للوطن اللاتي كنّ خدَمنَ الابطالَ المدافعين عن أرض فرنسا وولدن جزاء تلك الخدمة أولاداً لا يُعرف آباؤهم ، فلُقّبن بلقب « أمهات زمان الحرب » War-God-mothers) . . تصوّرْ قد بلغ والله من الطرافة أن تكاد لغات الشرق تعجز عن ترجمته . فجعلت هؤلاء النساء يتعاطين البغاء بصورة منظمة . وأصبح (تشجيعهن وإعانتهن) فضيلةً خلقيةً عند أولي الدعارة والفجور . وعنيت الجرائد اليومية الكبرى عناية بالغة باستمالة (رجال العمل) إليهن. وقامت بهذه الخدمة أكثر من غيرها الجريدتان المصوّرتان السيّارتان: فنتاسيو(Fantasio) ولافي باريزيان (La vie Praisienne) حتى جاء عدد واحد من هذه الجريدة الاخيرة يشتمل على ١٩٩ إعلانا عن أمرهن .

طوفان الوقاحة وجموح الشهوات

إن الهيجان الجنسي الذي يؤدي إلى كل هـذه الكثرة والرواج

لانواع الفواحش،إنما ينبعث من تأثير الآداب والصور والسينما والمسرحية والرقص ، وما إليها من مظاهر التهتك والتبذل .

فلا تزال هناك عصابة من أصحاب الثروة الانانيين يضرمون نار الشهوة في العوام بكل مايمكنهم من التدابير ، يروجون بذلك بضاعتهم وينمون تجارتهم. ثم هناك الجرائد اليومية والاسبوعية ، والمجلات الشهرية ونصف الشهرية ، المصورة ، التي تظهر كلها بقصص ومقالات متناهية في الفحش ، وصور عارية فاضحة ، لأن ذلك أضمن لشيوعها وكثرة انتشارها ويستخدم اصحابها لهذا الامر اعلى ماحباهم الله من مواهب الفطنة والذكاء والحذق الفني ، ومعرفة أسرار النفس البشرية لكي لا يفلت من كيدهم القارىء المسكين . وليس هذا فقط بل تأتي من وراء ذلك كتب ورسائل تصدر كل يوم من المطابع مملوءة بما شئت من معاني الخلاعة والوقاحة حول المسائل الجنسية وتبلغ من كثرة الشيوع أن تطبع للواحدة منها خمسون الف نسخة في طبعة واحدة ، وربما طبع الكتاب الواحد ستين طبعة أو تزيد . وهناك بعد ذلك ، دور للطباعة والنشر قد اختصت بنشر هذه الآداب الجنسية،ولرب كاتب نال الشهرة والعز من طريق الكتابة في هذه المواضيع . وإنه لم يعد الآن تأليف كتاب فاحش مخزاة أومهانة المؤلف، بل المؤلفون لمثل هاتيك الكتب ، إن نالت لدى الناس حظوة وقبولاً ، يجازون إما بعضوية المجمع العلمي الفرنسي ، أو بشرف « كروي دونور » (Creix d' honour)

وتنظر الحكومة إلى كل هذه المظاهر للتبذّل والإغراء والتهييج نظر المشاهد المتفرّج ولا تُنكر من امرها شيئاً .. اللهم إلا أن يذاع شيء متماد في الفحش ، فتعترضه الشرطة على الرغم منها ، وترفع أمره إلى المحكمة . ولكن لا بأس ! فإن هناك محاكم سمحة واسعة العفو لأمثال هؤلاء المجرمين ، فتخلي سبيلهم بعد شيء من الزجر . ذلك بأن الذين يجلسون للحكم في تلك المحاكم ، يكون معظمهم بأنفسهم من المتمتعين بهذا الصنف من الادب. ومنهم من يكون قلمه نفسه ملوثاً بتأليف أدب جنسي خليع . وإن اتّفق أن يكون فيهم قاضٍ من أنصار الفكر القديم يُخشى منه (جور وعُدول) في تلك القضية ، اتفق أكابر الكُتّاب والادباء على التدخّل في الأمر ، فأعلنوا صياحهم في الجرائد بضرورة وجود الجوّ الحرّ في المجتمع لترقية الفنون والآداب ، ونادوا أن تقييد الانسان بقيود الاخلاق على طريقة أهل القرون المظلمة ، معناه الاخذ بخناق الفنون الجميلة ومنعها من الرقيّ والازدهار .

ولننظر بأيّ الطُرق يتمّ للفنون الجميلة هذا الرقيّ والازدهار إنه يتمّ في أكثره بإشاعة تلك الصوَر العارية و (الفوتوغرافات) المُظهرة لعمليّة الفحشاء، التي تُعدّ منها آلاف مؤلفة من المجموعات (Albums) فتُوزّع ، لا في الاسواق والفنادق والمقاهي فحسبُ ، بل على المدارس والكليّات أيضاً . وقد كتب أميل بوريسي (Emile Pouerisy) في تقريره الذي قدّمه إلى الجلسة العامة الثانية لرابطة مَنع الفواحش :

« هذه الفوتوغرافات الداعرة المتهتّكة تصيب أحاسيس الناس بأشدّ

ما يمكن من الهيجان والاختلال ، وتحث مشتريها البؤساء على المعاصي والاجرام التي تقشعر من تصورها الجلود . وإن أثرها السيء المهلك في الفتية والفتيات لمّا يعجز عنه البيان فكثير من المدارس والكليات قد خربت حالتها الخلقية والصحية لتأثير هذه الصور المهيجة . ولا يمكن أن يكون للفتيات – على الاخص – شيء أضر وأفتك من هذه » .

ثم لهذه الفنون الجميلة ، تعمل المسارح والمقاهي والسينما وأبهاء الموسيقى وغيرها من انواع الملاهي ، فإن المسرحيات التي يشاهد تمثيلها أعلى الطبقات الفرنسية بإقبال واشتياق ، والتي ينال مؤلفوها وممثلوها الناجحون أوفر حظ من إعجاب الامة ورضاها ، تكون كلها مملوءة بدواعي الشهوة البهيمية ، ولا تكون ميزتها البارزة إلا أن تعرض على النظارة أحط ما يمكن من خلق إنساني بمعرض أسوة حسنة ومثل أعلى يمثل . فيقول بول بيورو : « أن من أراد من الباحثين أن يطالع حياتنا المدنية من خلال هذه النماذج للحياة ، التي لا يزال يعرضها كتاب مسرحياتنا ، منذ ثلاثين أو أربعين عاماً ، فلا جرم أنه يستنتج أن جميع الازواج المتزوجة في مجتمعنا قوم خونة متجردون من الوفاء اللازم للعشرة الزوجية . فيكون كل زوج منا إما بليداً غافلا ، أو يكون لزوجته بلاء ونكبة . وأما الزوجة فاحسن خصالها أن تكون في كل حين متبرمة من زوجها ، تكاد تميل بهواها عنه إلى غيره . »

وإذا كانت هذه حال المسارح التي تتفرج بها الطبقات العالية فقدر

في نفسك ماعسى أن تكون عليه ملاهي العامة ومسرحياتهم فكل ماقد يُعجب أوغاد الناس وسفلتهم ، من أساليب الكلام وحركات الدلال ومناظر العُري ، تعرضه هذه المسارح على منابرها بدون حياءٍ وتذممٍ ، وبغير قناع من تعريض أو كناية . وتؤكد للعامة من طريق الاعلان أن كل ماتتطلبه شهواتهم النفسية مهيّأ عندها ، وأن عرضها على المنصة يكون واقعياً (Realistic) لاتشينه الصنعة والتكلُّف . وقد جاء أميل بوريسي في تقريره بامثلة متعددة من أحوال تلك المسارح ، دُوِّنت بعد جولات في مختلف الملاهي والملاعب . فيقول وقد كنى عن أسمائها بحروف الهجاء :

• « كانت أغاني الممثلة وفرديّاتها(Monologues) وحركاتها في مسرح (ب) غايةً في الخنا والفحش . وكان المنظر الخلقي من ورائها يكاد يصور آخر مدارج الاختلاط الجنسي . أما نظّارة المسرح فكانوا أكثر من ألف ، يُرى من بينهم الأشراف أيضاً . وكان المجمع كله كالمسحور بسحر العَرض ، يرفع صوته بالترحيب والتحسين كل حين وآخر ! »

• « وفي مسرح (ن) كانت الأغاني القصار وما تخلّلها من كُلَيمات وما صحبها من حركات ولفتات ، بالغةً من الوقاحة والتبذل أقصاه . وكان هناك صبيان وفتية أصاغر ، يشهدون هذا العرض مع الأكابر ، ويصفقون بأيديهم عند كل منظر شديد الوقاحة . »

• « وفي (ل) صاح الحضور خمس مرات بالممثلة يطلبون منها تكرير تمثيلها الذي كانت تختمة بأغنية مُمعنة في الخنا والهُجر .»

• « وفي (س) ألح النظارة على ممثلة ، فحملوها مرّة بعد أخرى، على إعادة عرض متماد في الفحش ، حتّى صاحت بهم غاضبة : قاتلكم الله يا فُجار ! ألا ترون أن بجانبكم في هذه القاعة صغاراً ، ثم انصرفت من المنصة بدون أن تستكمل دورها في ذلك الفصل من المسرحية . فكان ذلك العرض بالغاً من الدناءة والفُحش أن لم تصبر على تكراره حتى تلك الماجنة المتمادية .»

• «وفي مسرح (ز) اقترعوا على الممثلات، بعد ختام المسرحية ، وكن بأنفسهن يبعن تذاكر اليانصيب بعشرة سانتيمات . فأي من طارت له إحداهن ، بات معها تلك الليلة . »

ويكتب بول بيورو : إنه ربما تُعرض على المنصة نساء عاريات لا تكون على أجسامهن خرقة ثوب . وقد كتب أدولف برياسون (Adolphe Briason) في جريدة طان (Tamps) الفرنسية المشهورة ، يحتج ويعترض على مثل هذه المنكرات : « لقد بلغ السيل الزبى . ولم يبق بعد هذا كله سوى أن يُعرض على أنظار الناس منظر الفاحشة بعينها والحق أن (الفن الجميل) لن يستكمل بدون ذلك ».

ولا يقل نصيب حركة منع الحمل وما يسمونه العلوم والآداب الجنسية

في إشاعة الفواحش وإفساد أخلاق الناس . إذ يـذيع القوم لأجلها من تفاصيل الحمل ومتعلقاته ، وطرق استعمال الآلات لمنعه ، بالخطب وبالفانوس السحري (Magic Lantern) في الحفلات العامة ، وبالصُور والبيـانات الإيضاحية في الرسائل والكتب ، مالا يبقى بعده شيء من أفعال الأعضاء الجنسية ، يحتـاج إلى شرح وبَسط . وكذلك يفعلون في كتب العـلوم الجنسية ، إذ لا يَدعون ناحية من نواحي الأفعال الجنسيّة - من شرح الأعضاء إلى آخر ماشئت - إلا يجلونها ويُبرزونها لكل كبير وصغير ، ويتخذون لكل ذلك قناعاً من أسماء (العلم) و (التحقيق) و (العلوم التجريبية) حتى يجل عن سهام النقد والتقريع . بل يتقدّمون ، فيدعون إشاعة كل ذلك (خدمة اجتماعية) . ويقولون : إنا لانريد بذلك إلا أن نجنّب الناس مزالقَ الشئون الجنسيّة . ولكن الحق أن نَشر هذه الآداب والتعاليم الجنسية ، وتعميمها على هـذا النطاق الواسع ، قـد أذهب الحياء عن نفوس النساء والرجال والشُبان والشواب . وبعث فيهم أشد مايكون من الوقاحة وقلة الحياء وقد آلت الحال بهذا النشء اليوم إلى أن صبية المدرسة التي لم تبلغ الحلم بعدُ ، تعرف من الشئون الجنسية مالم تكن تعرفه الثيبات فيما مضى. وكذلك الصبيان دون سنّ البلوغ ، تثور فيهم النزعات الجنسية قبـل أوانها ، فيشتاقون إلى مزاولة التجارب الجنسية ، ويُعطون قيادهم لشهوات النفس العارمة . وإذا كان الزواج المشروع حدٌ من العُمر معيّـن ، فإن هذه التجارب لا تتقيّـد بحد من العمر . بل يأخذ فيها الشباب من السنة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرهم .

وإذا كان انحطاط الأخلاق ، واتباع الاهواء ، وتعبد الشهوات ، قد بلغ من أمة ما هذا المبلغ الهائل ، وكانت هـذه حالة الرجال والنساء والشيوخ والشبان في انغماسهم في اللذات ، وكان الهيجان الجنسي قـد خبلهم من المس حتى أخرجهم من طورهم ، فمن الطبيعي أن تتوافى في تلك الأمة كل أسباب الهلاك والبوار. وهذه الأمم المتدرجة إلى الزوال، القائمـة على شفا حفرة من النار ، إذا شاهدها الناس في ظاهر السلطة والشوكة فيستنتجون أن انهماكها في الملاهي واللذات ليس بمانعها من الرقي بل هو عون لها عليه ، وان الأمم تكون في أعلى مجدها وأزهى رقيها أمضّ ماتكون في الاهواء والشهوات. ولكنهم ساءما يحكمون وما يستنتجون إذ أن قوى التعمير وقوى التخريب إذا كانت متفاعلة في أمة في الوقت الواحد، وكان جانب التعمير هو الغالب في أعمالها ونشاطها ، فمن السخف والحماقة أن تُعدّ قوى التخريب أيضاً من أسباب تعميرها .

افهم ذلك بمثل تاجر بارع في مهنته ، يكتسب ملايين بفضل ذكائه واجتهاده وتجربته ، ويسترسل مع ذلك في شُرب الخمر والمقامرة والقصف فهل من خطأ أكبر من عدّك كلا هذين الوجهين المتعارضين لحياته من أسباب رفاهته ورقيّه ؟ إنما الحق أن الجملة الأولى من صفاته هي السبب في تعمير كيانه ، والجملة الاخرى من صفاته هي عاملة على تخريبه . فإذا كان كيانه ثابتاً بفضل قوة الصفات الاولى ، فليس معناه أن الصفات

الاخرى ليست بفاعلـة فعلها التخريبي في الكيان . بل إذا دققت النظر وسبرت غور الامر ، بدا لك أن تلك القوى المدمرة المخربة لاتزال تتنقّص مما أودعه من قوى العقل والجسد ، وتأكل من ثروته التي قد اكتسبها بكد يمينه وتستدرجه إلى البوار ، وتتحين - في الوقت نفسه - فرصة الايقاع به دفعة واحدة . فشيطان المقامرة الغالب عليه قـد يفني ثروته المدّخرة في ساعة واحدة من أشأم ساعات حياته ، وهو متربص به الدائرة في كل حين . وشيطان الخمر المتمكن منه قد يركب به زللاً في حالة نشوة ، فيتركه صفر اليدين ، وهو أيضاً له بالمرصاد . وكذلك شيطان الدعارة والفجور لايزال ينتظر الفرصة ليدفعه إلى القتـــل أو مهلكة أخرى تفجؤه . وأنت لاتستطيع أن تقدّر ماذا كان مبلغ رقي هذا التاجر وتحسن حاله ، لو لم يكن واقعاً في براثن تلك الشياطين !

قِس على هذا كله حال أمة من الامم . فإنها تصعد في مدارج الرقي بادىء ذي بدء بفضل مافيها من قُوى التعمير والإنشاء ، ولكنها لاتتقدم في سبيل الرقي خطوات ، إلا تعود ، لفقد القيادة الرشيدة ، تهيىء بنفسها أسباب خرابها . صحيح أنها لاتزال إلى مدّة من الزمان تمضي قدماً بدافع ما يملكها من قوى التعمير والانشاء . ولكن عوامل الفساد والتخريب لاتنفك في الوقت نفسه تأكل من قوّة حياتها من الداخل ، حتى تجوف بنيانها وتُضعف كيانها إلى حد أن تهدمه صدمة فاجئة من صدمات الدهر . وفيما يلي نذكر عوامل الخراب والدمار البارزة التي قـد أورثها الامة الفرنسية نظامُها الاجتماعي الفاسد .

اضمحلال القوى الجسدية

إن أوّل ماقد جرّ على الفرنسيين تمكّن الشهوات منهم اضمحلال قوام الجسدية وتدرجها إلى الضعف يوماً فيوماً . فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم ، وتعبد الشهوات يكاد يأتي على قوة صبرهم وجلدهم، وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم فمن أوائل القرن العشرين لايزال حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب في المتطوعة للجند الفرنسي ، على فترة كل بضع سنين ، لأن عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لايزال يقل ويندر في الأمة ، على مسير الأيام . وهذا مقياس أمين يدلنا كدلالة مقياس الحرارة - في الصحة والتدقيق - على كيفية اضمحلال القوى الجسدية في الامة الفرنسية . ومن أهم عوامل هذا الاضمحلال : الامراض السرية الفتاكة. يدل على ذلك أن كان عدد الجنود الذين اضطرت الحكومة إلى أن تعفيهم من العمل وتبعثهم إلى المستشفيات ، في السنتين الاوليين من سني الحرب العالمية الاولى ، لكونهم مصابين بمرض الزهري : خمسة وسبعين ألفاً . وابتلي بهذا المرض وحده ٢٤٢ جندياً في آن واحد في ثكنة متوسطة . وتصوّر - بالله - حال هذه الأمة البائسة في الوقت الذي كانت فيه - بجانبٍ - في المضيق الحرج بين الحياة والموت ، فكانت أحوج مايكون إلى مجاهدة كل واحد من أبنائها المحاربين ، لسلامتها وبقائها ، وكان كل فرنك من ثروتها مما يضن به ويوفّر ، وكانت الحالة

تدعو الى بذل أكثر مايمكن من القوة والوقت وسائر الادوات والوسائل في سبيل الدفاع . وكان ـ بجانب آخر ـ أبناؤها الشباب هؤلاء الذين تعطل آلاف منهم عن أعمال الدفاع من جراء انغماسهم في اللذات، وما كفى أمتهم ذلك خسراناً ، بل هم ضيعوا جانباً من ثروة الامـــة ووسائلها في علاجهم ، في تلك الاوضاع الحـَرجة .

ويقول طبيب فرنسي نطاسي يُدعى الدكتور ابريد: « إنه يموت في فرنسا ثلاثون الف نسمةً بالزهريّ ومايتبعها من الامراض الكثـيرة ، في كل سنةٍ . وهذا المرض هو أفتك الامراض بالأمـّة الفرنسية بعـد حمىّ الدق » . وهذه جريرة مرضٍ واحـدٍ من الامراض السّرية التي فيها عدا هذا ، أمراض كثيرة أخرى .

فساد النظام العائلي

والنكبة الثانية العظيمة التي قدجرّها على التمدن الفرنسي ، طغيانُ الشهوة المطلقة ورواج الإباحية وقبولها : هي خراب النظام العائـلي ، وتقوّض بنيانه . إن النظام العائلي ـ كما هو معلوم ـ يتألّف ممّا يُعقد بين الرجل والمرأة من الرابطة الأبدية التي يُعبّر عنها بالنكاح فهـــذه الرابطة فيما بينهما تسُود حياةَ الافراد السكينةُ والدوام والاستحكام ، وهي التي تـُحوّل (فرديتهم) إلى الجماعية . وتُذلّل مافيهـم من نوازع الفوضى والشتات وتخضعه للتمدّن . وفي دائرة هذا النظـام ينبعث ذلك

الجوّ المطهّر من المودّة والأمن والإيثار ، الذي يتهيّأ الأجيال الناشئة فيه أن يدرجوا على الاخلاق الزكية والتربية الصحيحة والتنشئة الصالحة ولكن مجتمعاً كان الرجال والنساء فيه فارغي الأذهان من تصوّر النكاح ومقاصده ، ولم يكن للعلاقة الجنسية بين الصنفين عندهم من غاية سوى قضاء بعض الشهوات الحيوانية ، ثم كان في ذلك المجتمع أرسال من الذوّاقين والذوّاقات يهيمون كالفراش بكل زهرة من أزهار الروض يستنشقون عبيرها ويمتصّون رحيقها ، فلا يمكن أن يقوم فيه هذا النظام العائلي . وإن قام ، فلا يمكن ان يستقرّ : ذلك بأن رجاله ونساءه لا يعودون يصلحون للاضطلاع بأعباء الزواج وتبعاته ، وحقوقه وواجباته والتزاماته الخلقية ، ويكون من تأثير هذه الحالة العقلية والخلقية فيهم أن ينشأ كل جيل لاحقٍ على خُلُقٍ أسوأ مما كان عليه الجيل السابق . ويبلغ من أثرة الافراد وأنانيتهم ما يشتّت شمل المجتمع ، ومن نزق النفوس وتلوّنها ما يجعل سياستهم الوطنية وسلوكهم الدولي كريشةٍ في مهبّ الرياح ، لا تدوم على موقف . ويتكدّر عيش الافراد بخلو بيوتهم من الهدوء والسكون . ويُلحّ عليهم قلق نفسي دائم يحرمهم فراغ الخاطر وهدوء الذهن ، وكل هذا عذاب من جحيم الدنيا ، يُلقي الانسانُ فيه بنفسه لغرامه ، بل لهيامه المتطرّف بالمُتع واللذّات .

سبعة أو ثمانية في الالف هو معدّل الرجال والنساء الذين يتزوّجون في فرنسا اليوم . ولك ان تقدّر من هذا المعدّل المنخفض كثرة النفوس التى لا تتزوّج من أهاليها . ثم هذا النزر القليل من الذين يعقدون الزواج

قلّ فيهم من ينوون التحصن والتزام المعيشة البرّة الصالحة ، بل هم يقصدون به كل غرض سوى هذا الغرض . حتى إنه كثيراً مايكون من مقاصد زواجهم ، أن يُحلّلوا به الولد النغل الذي قد ولدته المرأة قبل النكاح ، ويتّخذوه لهم ولداً شرعياً . فقد كتب بول بيورو : « من العادة الجارية في طبقة العاملين في فرنسا أن المرأة منهم تأخذ من خدنها ميثاقاً ، ، قبل أن يعقد بينهما النكاح ، أن الرجل سيتّخذ ولدها الذي ولَدته قبل النكاح ولداً شرعياً له . وجاءت امرأة في محكمة الحقوق بمدينة سين (Siene) فصرّحت : « إني كنتُ آذنتُ بعلي عند النكاح بأنّي لا أقصد بالزواج إلا استحلال الأولاد الذين ولَدتُهم نتيجة اتّصالي به قبل النكاح . وأما أن أعاشره وأعيش معه كزوجة ، فما كان في نيّتي عند ذاك ، ولا هو في نيّتي الآن . ولذلك اعتزلتُ زوجي في أصيل اليوم الذي تمّ فيه زواجنا ، ولم ألتق به إلى هذا اليوم ، لأني كنتُ لا أنوي قط أن أعاشره معاشرةً زوجيةً » (الصفحة ٥٥)

قال عميد كلية شهيرة في باريس لبول بيورو : « إن عامة الشباب يريدون بعقد النكاح استخدام بغيّ في بيتهم أيضاً . ذلك أنهم يظلّون مدّة عشر سنين أو أكثر يهيمون في أودية الفجور أحراراً طلقاء ، ثم يأتي عليهم حين من دهرهم يملّون تلك الحياة الشريدة المتقلقلة ، فيتزوّجون بامرأة بعينها ، حتى يجمعوا بين هدوء البيت وسكينته ، ولذّة المخادنة الحُرّة خارج البيت » . (الصفحة ٥٦)

وإنّ زنا المُحْصَنَات والمُحْصَنين لا يُعدّ من العيب أو اللّوم في

فرنسا . فإذا كان أحد من المحصنين متّخذاً خليلةً دون زوجته ، فلا يرى لإخفاء الأمر من لزوم. ويعدّ المجتمعُ فعلَه ذلك شيئاً عادياً طبيعياً في الرجال . (الصفحة ٧٦ - ٧٧)

ولهذا كله قد ضَعُفت رابطةُ النكاح ، وبلغت من الوهن أن ينبتّ حبلُها لأدنى مناسبة . وربما لم تزد مدةُ هذه الرابطة على أكثر من ساعات معدودة . فيقال عن رجل فاضل من الفرنسيين ، كان قد تولى الوزارة بضع مرّات : انه طلّقته امرأته بعد خمس ساعات من انعقاد الزواج بينهما ، ورُبما كان من أسباب الطلاق هنات تافهة تُضحك الثاكل ، كاشمئزاز أحد الزوجين من غطيط الآخر في النوم، أو كون أحد منهما لا يُحبّ كلب الآخر . وقد بلغ من تفاحُش الطلاق أن محكمة الحقوق بمدينة سين فسخت ٢٩٤ نكاحاً في يوم واحدٍ . ووقع في سنة ١٨٤١ م التي قُرر فيها قانون الطلاق الجديد أربعة آلاف طلاق . وبلغ هذا العدد سبعة آلاف سنة ١٩٠٠ م ، وستّة عشر ألفاً سنة ١٩١٣ م ، وواحداً وعشرين ألفاً سنة ١٩٣١ م

وأد النسل

إن تربية الاولاد عمل خلقي سامٍ ، يتطلّب من المرء مغالبة النفس، وترك الاهواء والرغبات ، واحتمال المتاعب والمشاقّ ، وبذل الانفس والاموال . فلا يمكن أن يتأتى لهذه الخدمة السامية قوم أنانيّون عبيد النفس ، تغلب عليهم البهيمية وحبّ الذات .

فمن ستين سنة أو سبعين ، لا تزال الدعاية بحق حركة منع الحمل على أشدها . وقد زوّدت هـذه الحركة كل رجل وكل امرأة من الامـة الفرنسية بمعرفة التدابير التي يستطيع معها المرء أن يتمتّع بلذّات العلاقة الجنسية ، ثم يتّقي عاقبتها الطبيعية أي الحمل والتوليد . وإن من بلدة أو قرية إلاّ تباع فيها عقاقير وآلات منع الحمل في بياض النهار ، حتى صارت في متناول كل يدٍ ومن نتيجة ذلك أن لم يعد استعمالها مقصوراً على أهـل الدعارة وحـدهم ، بل صار يستخدمها كثير من الازواج المتزوّجين.وأصبح من أماني كل زوجين منهم ألاّ يقتحم بينهما الولدُ هذا الدغل الوبيل الذي يكدّر صفو اللذّات . وإن السرعـة التي لا يزال ينخفض بها معدّل التوليد في فرنسا . قد حدس منها العلماء والاخصائيون أنه يُمنع توليد ستّمائة الف نسمة ـ على الاقل ـ في كل سنة ، من جرّاء هذه العادة المنتشرة في البلاد .

وأما الحمول التي تستعصي على كل تلك الحيل والتدابير ، وتستقرّ ، فيتخلّص منها بالاسقاط ، ويُمنع بهذا التدبير أربعمائة الف نسمة أخرى من البروز . ولا تباشر هذا الاسقاط العوانس والابكار وحدهن ، بل تجاريهن في هذه السيئة المتزوجات أيضاً على قدم المساواة . ويُعَدّ هذا الفعل بريئاً من كل عيبٍ في نواميس الاخلاق ، بل يعد حقاً من حقوق المرأة واجباً . والقانون ، كأنه قد أغمض عينيه عنـه ، ومع أن الفعل جريمة في سجلّ القانون ، إلا أنه لا يؤاخذ ولا يُرفع إلى المحكمة إلاّ

واحداً في كل ثلاثمائـة من مرتكبيه . ثم إن الذين يرفـع امرهم إلى الحاكم ، يُبرّأ منهم هناك قدر ٧٥ في المائة . وقد يسّروا من تـدابير الاسقاط ونشروا علمهـا في العامـّة نشراً جعل معظم النساء يُباشرنه بأنفسهن . وأما اللاّتي لا يقدرن عليه ، فيجدن المعونة الطبية منهن على كثب . مما عاد به قتل الولد في الرحم أهون على القوم من قلع الضرس الموجع في الفم .

وقد مسخت هذه العقلية عاطفة الامومة في المرأة مسخاً جعل الأم التي ما زالت الدنيا تعتبر حنانها أسمى مـدارج الحبّ الانساني تتضجّر من الاولاد ، بل تكرههم ، بل تُعـاديهم ، فالذين يسلمون من الاولاد من غوائل تدابير المنع والإسقاط ويخرجون إلى حيز الوجود ، يُعاملون بأشد ما يكون من الفظاظة والقسوة . ويذكر بول بيورو هذه الحقيقة المؤلمة بما يأتي :

« كثيراً ما نطـّلع في الجرائد على مصائب الاطفال الذين يسومهم آباؤهم سوء العذاب . وهذه الجرائد لا تذكر من تلكم الاحداث إلا مايكون له خطر . ولكن الناس يعلمون : أي قسوة يُعامل بها هؤلاء الضيوف الثقلاء، الذين قد برم بهم آباؤهم لما هم قد نغّصوا عليهم لذّة الحياة .. وهذه الارواح المسكينة لا تجد إلى الوجود سبيلاً إلاّ حينما تنكص بعض النساء عن الإقدام على الإسقاط . ولكنهم إذا جاؤوا في هذه الدنيا ، يذوقون وبال مجيئهم فيها حقّ مذاقه . »

وربما تبلغ هذه الكراهية للأولاد من بنات حواء أن يأتين

بالمضحكات المبكيات . فقيل انه مات لامرأة ابن ستة اشهر ، فوضعت نعشه بين يديها ورقصت بالفرح وغنّت . ثم طافت بجاراتها تقول : « إنا لن نلد ولداً آخر بعده ويا راحة نفسي ونفس بعلي من موت هذا المُلثّيق . أفلا ترين أي مخلوق حقير هو هذا الذي لا ينقطع عن البكاء ، ويظلّ يبثّ القذر في الفناء . يكاد المرء لا يتخلّص منه أبداً » . (الصفحة ٧٥)

وأدهى من ذلك وأمرّ أن قتل الاولاد هذا إلى الزيادة والانتشار بسرعة عظيمة . والحكومة الفرنسية وجها كلها متهاونة مستخفّة بهذه الجريمة العظيمة كصنيعها في إسقاط الحمل . فقد رُفع إلى محكمة (لوران) فتاتان قتلتا اولادهما . ولكنها أعفيتا من العقوبة . وكانت إحداهما قد أهلكت ولدها بالاغراق على حين كان اقاربها لا يزالون يربّون لها ولداً سابقاً ، وكانوا مستعدّين لتربية هذا الآخر . ولكن الظالمة أبت إلا ان تقتل المسكين . وارتأت المحكمة ان جرمها هين يغتفر . واما الاخرى فخنقت طفلها ، ولما رأت فيه بعد ، حشاشة نفسٍ تضطرب ، رمت به عُرضَ الحائط فشجّت رأسه . وهذه المرأة أيضاً لم يرها القضاة الفرنسيون تستحقّ العقوبة او القصاص . وفي سنة ١٩١٨ م نفسها جيء إلى محكمة (سين) براقصة ، حاولت نزع لسان ولدها من حلقه ثم حطمت رأسه . واخيراً قطعت منه الوتينَ . ولم تكن هذه المرأة أيضاً مجرمةً عند القضاة أو المحامين .

فهل ترى من حيلة او تدبير ينقذ من البوار أمة تمعن إلى هذ الحد الفاحش في عدائها لنسلها . إن التناسل أمر لا بدّ منه لاطراد بقاء امة من

الامم . فكل أمة تعادي نشأها فإنها تعادي نفسها وترمي بنفسها الى الانتحار . وهي تكفي بذاتها أن تمحو وجودها بأيديها وإن لم يكن من حولها عدو . والامة الفرنسية — كما أسلفت — لا تزال تهبط فيها نسبة المواليد منذ ستين عاماً متوالية . ففي بعض السنين تزيد نسبة الوفيات على نسبة المواليد ، وفي الاخرى تتساويان ، وفي الثالثة لا تزيد نسبة الوفيات إلا بقليل جداً . وبجانب آخر ، لا يزال عدد الجالية المهاجرين في فرنسا ينمو ويكثر . فكانوا قرابة ثلاثة ملايين من بين اثنين وأربعين مليوناً من سكان فرنسا الاصليين سنة ١٩٣١م . وإن استمرت الحال على ما هي عليه الآن ، فلا يُستبعد أن تعود الامة الفرنسية ، عند ختام القرن العشرين ، أقلية في وطنها هي .

أما بعد ، فهذه كلها هي نتائج تلك النظريات التي أقيمت على أساسها حركة تحرير المرأة والمحافظة على حقوق النساء في خلال القرن التاسع عشر !!

مزيد من الأمثلة

لم نقتصر في الصفحات الماضية على ذكر نظريات أهل فرنسا ونتائجها الحاصلة فيهم ، إلا مراعاةً للاطراد التاريخي . ولا يحسبنّ أحد أن الامة الفرنسية تنفرد بذلك كله وتشذّ عن غيرها في هذا الباب . بل الامر أن جميع الأمم التي قد آمنَتْ بما ذُكر آنفاً من نظريات الاخلاق ومبادىء الاجتماع المتطرفة ، تماثلها وتجاريها في تلك الحال . وهاك مثالاً بالولايات المتحدة الاميركية التي قد بلغ فيها هذا النظام الاجتماعي أوج شبابه :

تأثير البيئة المهيجة في الاطفال

يكتب القاضي بن لندسي (Ben Lindsey) الذي قد أتيح له الاطلاع الواسع على اخلاق النشء الاميركي ، لكونه رئيساً لمحكمة جنايات الصبيان (Juwenil Court) بدَنْوَرْ (Denwer) يكتب في كتابه « تمرد النشء الجديد » (Revolt of modern youtlr) : « أن الصبية في أميركا قد أصبحوا يُراهقون قبل الاوان ، ومن السنّ الباكرة جداً يشتدّ فيهم الشعور الجنسي » . ويحث هذا القاضي عن أحوال ٣١٢

صبيّة على سبيل النموذج. فعلم أن ٢٥٥ صبيّة منهن كن أدركن البلوغ فيما بين الحادية عشرة والثالثة عشرة من سني أعمارهن . يُوجد فيهن من أمارات الشهوة الجنسيّة والمطالب الجسدية مالا يكون عادةً إلا في بنات الثامنة عشر فمن فوقهن سناً ! » (الصفحة : ٣٢٨) .

وكذلك يذكر الدكتور اديث هوكر (Edith Hooker) في كتابه : « القوانين الجنسية » (Laws of sex) : أنه ليس من الغريب الشاذّ حتى في الطبقات المثقفة أن بنات سبع أو ثمـاني سنين منهم يخادنّ لداتهن من الصبية وربما تلوث معهم بالفاحشة ، فيقول :

« بنتٌ في السابعة من عمرها ، من بيت عريق في الشرف والمجد ، ارتكبت الفحشاء مع أخيها وعددٍ من أصدقائه . ونفرٌ آخر من خمسة أولاد يشتمل على صبيّتين وثلاثة صبيان متجاورين متقاربي البيوت وُجدوا متعلّقين بعضهم ببعض بالعلاقات الجنسية ، وقد حفزوا على ذلك غيرهم من الاولاد أيضاً . وكان أكبر أولئك سنّاً ابن عشر سنين . وبنتٌ أخرى في التاسعة ، كانت في ظاهر الامر تحت رقابة شديدة ، وُجدت سعيدةً بكونها حبيبة عشاقٍ ذوي عدد ! »

وقد جاء في تقرير طبيب من مدينة بالتي مور (Balti more) أنه قد رُفع إلى المحاكم في تلك المدينة أكثر من ألف مرافعة في مدة سنة واحدة ، كلها في ارتكاب الفاحشة مع صبايا دون الثانية عشر من العمر . (الصفحة : ١٧٧)

وهذا كله ثمرة بكر للبيئة المهيجة التي تهيأ فيها عوامل الإثارة والإذكاء للعواطف من كل جانب . فيقول كاتب أميركي : « ان الاوضاع التي يعيش فيها معظم أناسنا في هذه الايام تبعد عن الفطرة بعداً يجعل الفتية والفتيات يشعرون بدبيب الحب في نفوسهم من السن الخامسة عشرة ، وساء ذلك مصيراً . لان هذا الولوع بالامور الجنسية الناشىء فيهم قبل الاوان قد يعود عليهم – بل هو دائماً يعود – بأسوأ ما يكون من النتائج . وأهونها أن البنات في سن الصبا يفررن مع أخدانهن أو يتزوجن في السن الباكرة . وينتحرن إن هن لقين في غرامهن الخيبة والفشل .

مرحلة التعليم

وكذلك فإن الاولاد الذين يحتدّ فيهم الشعور الجنسي قبل أوانه يجدون المدارس أوّل مجال لممارسة التجارب الجنسية ، وتكون هذه المدارس نوعين : أحدهما المخصوصة بالجنس الواحد من الاولاد ، والآخر : المختلطة .

فالنوع الاول من المدارس ، تنتشر فيها سيئتا تمتّع الجنس بالجنس (Homo Sexuality) والاستمناء (العادة السرية) وذلك لان العواطف التي قد أذكيت جمرتها في عهد الصبا ، ثم جاءت البيئة زاخرة بأسباب إشعالها وإضرامها ؛ لا بدّ أن تجد سبيلا إلى ما يُسكّن لهيبها ويُطفىء نارها

فيكتب الدكتور هوكر : انه لاتزال تحدث في مثل هـــذه المدارس والكلّيات ودور التربية للممرضات والمدارس الدينية حوادثُ من تسافح الولدين من الجنس الواحد فيما بينهما. وقد تلاشى ـ أو كاد ـ ميلهم الطبيعي إلى الجنس المخالف(١) . ويسرد في هذا الصدد حوادثَ متعددة من تلوث الصبية مع الصبية، والصبايا مع الصبايا بالفحشاء، ومن كونهم لاقوا من وباله ما يسوء ويؤلم . ويعلم أيضاً من كتب أخرى مدى انتشار هذه السيئة ـ مخالطة الجنس بالجنس ـ في الناس: فيكتب الطبيب لوري (Dr.Lowry) في كتابه (Herself) : انه كتب عميد مدرسة من المدارس ذات مرة إلى أربعين أسرة يفضي إليها بأن صبيانها وجدوا على حال مروعة من الدناءة الخلقية ، فلم يعد يمكنه الآن إبقاؤهم في المدرسة (٢) .

وأما المدارس من النوع الآخر ، التي يختلط فيها الطلبة والطالبات في الدرس ، فتوجد فيها أسباب التهييج مقترنة بأسباب التسكين . وإن الهيجان العاطفي الذي كانت بدايته في عهد الطفولة يشتد في هـــذه المدارس ويوفي على نهايته . فأدب متناه في الخلاعة والفحش يطالعه الفتية والفتيات . وقصص غرامية ومجلات داعرة مشتملة على مايسمونه (الفن) وكتب فاحشة فاضحة حول المواضيع الجنسية ، ومقالات مملوءة بمعلومات التدابير لمنع الحمل هذه كلها هي اكثر ما يستهوي الطلاب والطالبات في عنفوان الشباب . ويقول المصنف الاميركي الشهير : هاندرش فان لون

(١) الصفحة ٣٣١
(٢) الصفحة ١٧٩

(Hendrich Von Loon): « هذا الادب الذي كثر رواجه في الجامعات الامير كية هو أبشع مجموعة للخنا والفحش والدناءة، لم يعرض قط مثلها على العامة قبل هذا ، بكل هذه الحرية . ثم إن المعلومات التي تحصل من دراسة هذا الادب ، يتناولها الشباب والشواب فيما بينهم بالبحث والنقاش بما شئت من الحرية والجراءة. ثم يعالجونها بالعمل والتجربة، فيخرج الفتية والفتيات إلى حفلات البهجة والانس (Petting parties) حيث يسترسلون في شرب الخمر والتدخين ، ويمتعون انفسهم بالرقص والغناء [1] . ومما يخمنه القاضي لندسي الاميركي أن خمسا واربعين في المائة من فتيات المدارس يدنسن اعراضهن ، قبل خروجهن منها . وترتفع هذه النسبة كثيراً في مراحل التعليم التالية فيكتب :

« إن طالباً في مدرسة ثانوية تكون عواطفه دون عواطف الطالبة شدة والتهاباً فالصبية هي التي تقدم أبداً وتأمر . وما يفعل الصبي إلا أن يتبع ويأتمر . »

بواعث محركات شديدة

إن المدارس والكليات ، على مساوئها تلك ، يسودها ولا شك جو من النظم والرقابة يحول دون الحرية العمليــة قليلا او كثيراً . ولكن هؤلاء الشبان حينما يخرجون من معاهد التعليم بتلك العواطف الملتهبة

(١) الصفحة ١٧٣ من كتاب « كيف استطيع ان اتزوج »

والعادات الفاسدة ، ويدخلون في غمار الحياة ، تنشط سورة شبابهم من كل عقال ، فيجدون فيما حولهم سعيراً من نار الشهوات يزيد عواطفهم لهيباً ؛ ويجدون في الوقت نفسه ما يطفىء أوارها بدون صعوبة ولا عسر.

وقد ذكرت في مجلة اميركية هذه الاسباب التي لا تزال تؤدي الى رواج الفحشاء وقبولها هناك ، بالكلمات الاتية :

« عوامل شيطانية ثلاثة تحيط ثالوثها بدنيانا اليوم ، وهي جميعها في تسعير سعير لأهل الارض. أولها : الادب الفاحش الخليع الذي لا يفتأ يزداد في وقاحته ورواجه بعد الحرب العالمية بسرعة عجيبة . والثاني : الافلام السينمائية التي لا تذكي في الناس عواطف الحب الشهواني فحسب ، بل تلقنهم دروساً عملية في بابه . والثالث : انحطاط المستوى الخلقي في عامة النساء ، الذي يظهر في ملابسهن ، بل في عريهن ، وفي إكثارهن من التدخين واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام . هذه المفاسد الثلاثة فينا الى الزيادة والانتشار بتوالي الايام ، ولا بد ان يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءها آخر الامر فإن نحن لم نحد من طغيانها ، فلا جرم أن يأتي تاريخنا مشابهاً لتاريخ الرومان ومن تبعهم من سائر الامم الذين قد اوردهم هذا الاتباع للأهواء والشهوات موارد الهلكة والفناء ، مع ما كانوا فيه من خمور ونساء . ومشاغل رقص ولهو وغناء ! »

هذه الاسباب الثلاثة التي قد طبقت اجواء التمدن والاجتماع لا تنفك

أبداً عن تحريك العواطف في كل شاب وشابة يجري في عروقه ولو قليل من الدم الحار . وما كثرة الفواحش هذه إلا نتيجة لازمة لهذا التحريك المستمر .

كثرة الفواحش

إن النساء اللاتي قد اتخذن من الفحشاء حرفة برأسها في اميركا ، يقدر مجموعهن – على أقل تقدير – بين أربعمائة وخمسمائة الف . ولكن لا يقيسن القارىء أمر العاهرة الاميركية على ما يعهد من امر العواهر في الشرق . فإنها لا تكون عاهرة بالنسب ، بل هي امرأة من سواد النساء كانت إلى الامس الدابر تحترف مهنة حرة ، فابتليت بعشير السوء ، ففسدت ، ولجأت إلى حي البغايا ، وستقضي فيه بضعة اعوام ، ثم تغادر هذا الشغل وتتولى الوظيفة في مكتب أو معمل . وقد دل الفحص والتحقيق على أن نصف البغايا الاميركيات يأتين من خوادم البيوت ، والنصف الباقي منهن يكن من العاملات في المكاتب والحوانيت والمستشفيات ، ممن يتركن وظائفهن الى هذه الحرفة. كل هؤلاء يبدأن بهذه المهنة في السن الخامسة عشرة أو العشرين في عامة الاحوال حتى إذا بلغت إحداهن الخامسة والعشرين أو الثلاثين ، هجرت البغاء الى عمل آخر . فتعود تلك المرأة التي كانت إلى الامس عاهرة فاجرة ، موظفة ذات منزلة وشرف [1] ويستطيع القارىء من ذلك أن يدرك الحقيقة من وراء وجود خمسمائة الف عاهرة في القطر الاميركي .

(١) « البغاء في الولايات المتحدة الاميركية » : الصفحة ١٣٨–١٣٩

وإن البغاء في الغرب ، كما مر في الباب السابق ، هو بمثابة الشغل التجاري الدولي المنظم . فمن أكبر أسواقه في أميركا عواصم نيويورك وريودي جنيرو وبونس آيرس . ولكل من المركزين الأكبرين من مراكزه التجارية في مدينة نيويورك مجلس تنفيذي ينتخب رئيسه وأمينه بطريقة الانتخاب المألوفة . ولكل تلك المراكز مستشارون من رجال القانون ، يراقبون مصالحها إذا هي وقعت في قضية قانونية . ثم تستخدم تلك المراكز نخاسين لمراودة الفتيات عن انفسهن ، يتجولون في البلاد بحثاً عن صيدهم . ومن امتداد نفوذهم في المجتمع أنه عُني رئيس رابطة الحالية بشيكاغو ، ذات مرة ، باحصاء عدد الفتيات المُغوَيات في مدة خمسة عشر شهراً ، فعلم أنه وردت على مكتب الرابطة رسائل مائتين وسبعة آلاف فتاة ، أخبرن فيها المكتب بكونهن في الطريق الى شيكاغو . ولكنه لم تبلغ الغاية منهن ، إلا الف وسبعمائة . وما علم بشيء عن مصير الباقيات .

ثم هناك ، علاوةً على دور البغاء ، دورٌ للقاء (Assignation Houses) ومحالٌ للزيارة (Call Houses) مفرّشة بالأثاث والرياش ومهيأة في كل حين لالتقاء السادة والسيدات إذا ماأراد أحدهم الاجتماع بالآخر . ودل الفحص أن كان في بلدة من البلاد الاميركية ثمانوسبعون داراً من هذا الطراز . وكان في الاخرى ٤٣ داراً ، وفي الثالثة ٣٣ داراً[1] وتلك الدور لا تغشاها الآنسات فحسب ، بل تختلف اليها كثير

(١) الصفحة ٣٨ من كتاب (البغاء في الولايات المتحدة)

من المتزوجات أيضاً[١] . ويقول كاتب اصلاحي شهير : إن ثلث الطبقة المتزوجة في نيويورك لا يلتزمون الوفاء في تبعاتهم الزوجية ، مما يتعلق بأخلاقهم وأجسادهم . ولا تختلف حال نيويورك في هذا الباب عن المدن الاخرى »[٢] .

والمصلحين الاخلاقيين في القطر الاميركي مجلس يُعرف « باللجنة الاربعة عشرية » (Committee of Fourteen) يُعنى بالفحص عن مكامن الفجور والتحقيق في حالة البلاد الخلقية واتخاذ التدابير العملية لاصلاح الاخلاق ، على نطاق واسع وقد جاء في تقريرها : ان كل ما يوجد في البلاد الاميركية من المراقص والنوادي الليلية ومحالي الزينة (Beuty Saloons) وأماكن التدريم (Manicure shops) وحجرات التدليك (Message Rooms) ومراكز تمويج الشعر (Hair Dressings) قد أصبح جلّها مواطن للفجور ودوراً للبغاء ، بل هي أقبح منها وأشنع ، لما يُرتكب فيها من الرذائل التي لا تصلح للذكر .

الامراض السرية الفتاكة

وهذه الكثرة من الفواحش قد جرّت – ولا غرو – كثرة الامراض وانتشار عدواها في الناس . فقد قدّروا ان تسعين في المائة من أهالي القطر الاميركي مبتلون بهذه الامراض . ويعلم من دائرة المعارف البريطانية

(١) الصفحة ٩٦

(٢) الصفحة ١١٦ من كتاب (Herself)

أنـــه يعالج في المستشفيات الرسمية هناك مائتا الف مريض بالزهري ، ومائة وستون الف مصاب بالسيلان البني (Conorrhea) في كل سنة ، بالمعدل . وقد اختص بهذه الامراض الجنسية وحدها ستمائة وخمسون مستشفى على انه يفوق هذه المستشفيات الرسمية نتاج الاطباء غير الرسميين الذين راجعهم ٦١٪ من مرضى الزهري و٨٩٪ من مرضى السيلان[1] .

هذا ويموت في اميركا مابين ثلاثين وأربعين الف طفل بمرض الزهري الموروث وحده في كل سنة . وإن الوفيات التي تقع بسبب جميع الامراض - عدا السل - يربو عليها جملة عدد الوفيات الواقعة من مرض الزهري وحده . وأقلّ مايقدّره المسؤولون في مرض السيلان أنه قد اصيب به ٦٠٪ من النفوس في سن الشباب ، فيهم العُزب والمتأهلون . وقد أجمع الماهرون في امراض النساء على أن ٧٥٪ من اللاتي تجرى العملية الجراحية على اعضائهن الجنسية يوجدن متأثرات بمرض السيلان[2] .

الطلاق والتفريق

ومن البديهي أنه لايمكن في مثل هذه الحال أن يسلم النظام العائلي والرابطة الزوجية من الفوضى والاضطراب . ذلك بأن النساء اللاتي يكسبن قوتهن بأيديهن ، ولا يحتجن الى الرجال في شأن من شؤونهن ،

---

(١) الصفحة ٤٥ من الجزء الثالث والعشرين .

(٢) الصفحة ٣٠٤ من كتاب القوانين الجنسية (Laws of Sex)

عدا قضاء الشهوة ، ويجدن الرجال لهذا الغرض قريباً منهن ، بدون أن يتقيدن بالزواج، لاجرم ان يعددن الزواج شيئاً فضولياً لاحاجة اليه ولا طائل تحته . زد على ذلك أن الفلسفة الجديدة والافكار المادية قد نفت من ضمائرهن الشعور بأن مخادنة الرجال بدون الزواج عار أو إثم . وأن البيئة الفاسدة قد جعلت المجتمع أيضاً بليد الحس فاقد الشعور ، حتى لم يعد ينظر إلى أمثال أولئك الفاجرات بعين المقت أو الملام . فيكتب القاضي لندسي الاميركي يعبر عن أفكار سواد البنات والفتيات :

« مالي أتزوّج ؟ وهؤلاء أترابي قد تزوجن في السنتين الماضيتين ، فماذا جنين منه ؟ إلا أن كان نصيب نصفهن منه الطلاق ؛ وإني أعتقد أن لكل فتاة في هذا العصر حقاً طبيعياً في حرية العمل والتصرف فيما يتعلق بالحب . إذ نعرف في هـــذه الايام كثيراً من التدابير لمنع الحمل ، فنستطيع أن نتقي بها خطر المولود الثقيل وما عسى أن يتبع ولادته من أزمات . ونحن على ثقة بأن استبدال هذه الطريقة الجديدة بالطرق القديمة التقليدية هو من مقتضيات العقل في هذا الزمان . »

هؤلاء الوقحات اللاتي يفكرن هذا التفكير ، ما كان ليحفزهن على الزواج إلا عاطفة الحب وحده . ولكن هـــذه العاطفة أيضاً كثيراً ما لاتصدر من صميم النفس وسويداء القلب ، بل يكون من أسبابها جاذبةٌ عارضة في جمال المحبوب . فاذا قضي الوطر مـن شهوات النفس ، لم يبق بين الزوجين عينٌ للحب ولا أثر . ويكفي عندئذ أهون مايكون بينهما

من خلاف في العادات والطباع ، أن ينزغ بينهما نزغاً ويبدل حبهما بغضاً وفركاً ، حتى ينتهي الأمر إلى تقديم المرافعة إلى المحاكم فيكتب القاضي لندسي : « في بلدة دنور ، في سنة ١٩٢٢ ، أعقب كلَّ زواجٍ تفريقٌ بين الزوجين . وبإزاء كل زواجين عُرضت على المحكمة قضية الطلاق . وهذه الحال لا تقتصر على بلدة دنور بل الحق أن جميع البلدان الاميركية على وجه التقريب عائلها في ذلك قليلاً أو كثيراً . »

ويمضي في كتابته : « ان حوادث الطلاق والتفريق بين الزوجين لاتزال تكثرُ وتزداد . وإن اطّردت الحال على هذا ـ كما هو المرجو ـ فلا بد أن تكون قضايا الطلاق المرفوعة إلى المحاكم في معظم نواحي القطر على قدر مايُمنح فيها من الامتيازات للزواج»[1] .

ومنذ قليل من الزمان نُشر في جريدة (Free Press) بدترويت (Detroit) مقال يبحث في هذه الاوضاع ، قد جاء فيه :

« إن ماقد نشأ بيننا اليوم من قلة الزواج وكثرة الطلاق وتفاحش العلاقات غير المشروعة ـ الدائمة أو العارضة ـ بين الرجال والنساء ، يدل كله على أننا راجعون القهقرى إلى البهيمية ، فالرغبة الطبيعية في التناسل إلى التلاشي ، والجيل المولود مُلقىً حبلُه على غاربه ، والشعور بكون تعمير الأسرة والبيت لازما لبقاء المدنية والحكم المستقل يكاد ينتفي من

(١) الصفحة ٣١١ ـ ٣١٤ من كتابه : Revolt of Modern Youth

النفوس . وبخلاف ذلك أصبح الناس ينشأ فيهم الإغفال عن مآل المدنية والحكومة وعدم النُصح لها » .

والعلاج الناجع الذي قد اقترحوه بأخرة لهذه الكثرة الفاحشة من الطلاق والتفريق ، هو تزويج « النكاح الاختباري » . (Gompanionate marriage) ولكن الدواء جاء أضرّ وأفتك من الداء . والمراد بهذا النكاح الاختباري ان يعاشر الرجل المرأة حيناً من الزمان ، بدون أن يعقدا بينهما « زواجا من النوع القديم » فإن تآلف قلباهما في أثناء هذه العشرة ، تزوّجا . وإن تكن الاخرى ، افترقاوراح كلٌ منهما لسبيله يبحث عن زواج آخر . على أنه يجب عليهما خلال مدّة التجربة هذه أن يجتنبا النسل ؛ لأنهما إن جاءا في أثنائها بولد ، تحتم عليهما أن يعقدا النكاح ويدخلا في حظيرة الزواج . وهذا هو الذي يُسمّى في روسيا بالحُبّ الطليق : (Free Love) .

الانتحار القومي

كل هذا الاتبّاع لأهواء النفس ، والنفور من تبعات الزوجية ، والتبرّم بالحياة العائلية والارتخاء في الروابط الزوجية ، يكاد يُذهب في المرأة عاطفةَ الامومة الفطرية التي هي أشرف العواطف الروحية وأسماها في النساء ، والتي لا يقف عليها بقاء الحضارة والتمدُّن فحسبُ ، بل بقاء الانسانية جمعاء . وما نجمت سيئّات منع الحمل وإسقاط الجنين وقتل الاولاد إلاّ بنضوب هذه العاطفة في نفس المرأة فالمعلومات عن

تدابير منع الحمل موفورة لكل فتى وكل فتاة، في الولايات المتحدة الامير كية على الرغم من قيود القانون. والآلات والعقاقير المانعة للحمل معروضة للبيع في الحوانيت كالسلعة المباحة، تستصحبها دائماً بنات المدارس والكليات، بل عامة النساء. لكي لا تفوت إحداهن لذات عشية من عشيات الشباب، إن نسي خدينها أن يأخذ أدواته معه. فيكتب القاضي لندسي:

« ٤٩٥ بنتاً في السن الباكرة من بنات المعاهد الثانوية، اعترفن لي بأنهن كن جربن العلاقة الجنسية مع الصبيان. إلا أنه لم تحمل منهن إلا خمس وعشرون. وأما الباقيات، فسلم بعضهن من الحمل بمحض الاتفاق. ولكن كانت لأكثرهن خبرة كافية بتدابير منع الحمل. وهذه الخبرة قد عمت فيهن إلى حد لا يكاد الناس يصيبون في تقديره».

هذه الادوات المانعة للحمل، تستعملها الأبكار توفيراً لحريتهن، وتستعملها المتزوجات دفعاً للنسل عن أنفسهن، ذلك بأن الولد لا يكلفهن متاعب التربية والتعليم فحسب، بل يحول كذلك دون حريتهن في تطليق الازواج. ومما حمل عامة النساء يكرهن الأمومة هو الرأي: أنه لا بد لهن إن أردن استيفاء نصيبهن من لذة العيش، أن يجتنبن هذه القيود والسلاسل، وأن الحمل والولادة تذهب بجمالهن وبهجتهن[1]. وأياً كانت الاسباب، فالواقع أن ٩٥٪ من العلاقات الجنسية الحاصلة اليوم بين الرجال والنساء، يحولون بينها وبين نتائجها الفطرية بتدابير منع

(١) الصفحة ٨٢ من كتاب «الرجولة والزواج» (Manhood and Marriage) لمكفادن (Macfadden).

الحمل . وأما الخمس الباقية في المائة ، التي تنتج الحمل ، فتعالج بتـدابير أخرى من الإسقاط وقتل الاولاد . يقول القاضي لندسي : إنه يُسقط في أميركا مليون حمل على أقل التقدير في كل سنـة ويقتل آلاف من الاطفال من فور ولادتهم .

الحالة في انكلترا

لا أريد أن أسهب في هذه التفاصيل المؤسفة المُحزنة . ولكن أرى مع ذلك ألا أختتم هذا الجانب من البحث بدون أن أورد فيـه مقتبسات من كتاب تاريخ الفحشاء (A History of Prostitution) لجورج رائيلي اسكات ـ هذا الانكليزي الذي يكتب ، وهو يشير إلى حالة بلاده ، في الغالب ـ :

« عدا النساء اللاتي لا يملكن من وسائل الكسب غير أن يبعن أجسامهن ، هناك كثرة كاثرة ـ لا تزال تزداد ـ من النساء اللاتي يملكن وسائل أخرى لاكتساب حاجتهن ، ومع ذلك يتعاطين البغاء حرصاً على زيادة الايراد . وهؤلاء لا يختلفن عن عامة البغايا والمواهر في شيء ، ولكن لا يُطلق عليهن هذا الاسم بل لنا أن ندعوهن : العاهرات غير المحترفات (Amateur Prostitutes) . وقد بلغ عدد هؤلاء العاهرات غير المحترفات في هذه الايام مبلغاً لم يُعهد قط فيما قبل . فهؤلاء يوجـدن في كل طبقة من طبقات المجتمع ، من الدنيا إلى العليا . ويبلغ من نخوتهن

أنك إن دعوت إحداهن عاهرة ولو بكناية ، ثارت ثائرتها غضباً . إلا أن غضبهن ما كان ليغير من وجـــه الحقيقة شيئاً ، والحقيقـة الواقعة ، على كل حال ، هي أنه لا فرق بينهن وبين بغي ماجنة من بغايا (بـكاديلي) من الوجهة الخلقية . وقـد أصبح تعاطي الفجور وعدم التصون ، بل اتخاذ الاطوار السوقية، معدوداً عند فتاة العصر من أساليب العيش المستجدة (Fashion) ويدخل في هذه الاساليب أيضاً: التدخين واستعمال الخمور الحامضة وصبغ الشفاه بالاصبع الاحمر ، وإظهار الخبرة بالمعلومات الجنسية وتدابير منع الحمل والتحدث في الادب الفاحش . ولا تزال تكثر النساء اللاتي يزاولن العلاقات الجنسيـة قبل الزواج من غير ما تحرج . وفي حـكم النادر والشاذ وجود الابـكار اللاتي يكن في الحقيقة والواقع أبكاراً عندما يعقدن النـكاح ـ عقد الوفاء الابدي ـ أمام منبر الكنيسة . »

ويمضي هذا الـكاتب في بحثه ، فيحلل في مقام آخر الاسباب التي قد أفضت بأحوال المجتمع إلى هذا الحد المتطرف . ومن الاحرى أن نسرد تحليله ذلك في كلماته هو :

«أولها هذا الولوع الفاحش بالتبرج،الذي قد بعث في نفس كل فتاة أشد الحرص على الازياء الفاتنة الغالية من أحـدث الطـرُز ، وأدوات الزينة والزخرفـة من شتى الانواع ! وهـذا من أكبر أسباب هذه الفحشاء غير المحترفة.فكل من له عينان بصيرتان،ينظر أن من تمر به ليل

نهار من مئات الفتيات وآلافها ، كثيراً ما يكون عليهن من الملابس الفاخرة الثمينة ما لا يمكن أن تتسع له مكاسبهن الطيبة . ولذلك يصدق القول ، في هذه الآونة أيضاً ، كما كان يصدق قبل نصف قرن ، إن تلك الازياء الفاخرة لا يشتريها لهن إلا الرجال . أما الفرق بين هذه الآونة وتلك الايام ، فهو أن كان الذين يشترون لهن تلك الملابس إذ ذاك هم بعولتهن أو آباؤهن أو إخوتهن . والذين يشترونها لهن الآن هم رجال آخرون غير أولئك . »

« وإن لحرية النساء ايضاً يداً لا تُنكر في ايجاد هذه الاحوال . وقد بلغ من ضعف رعاية الآباء ورقابتهم لبناتهم أن قد تهيأ لهن من الحرية والانطلاق مالم يكن ميسوراً حتى للابناء قبل ثلاثين أو اربعين عاماً » .

«والسبب الآخر الخطير الذي قد عمت لاجله الفوضى الجنسية في المجتمع أن النساء لايزلن يتهافتن على الاشغال التجارية ووظائف المكاتب والحرف المختلفة ، حيث تسنح لهن فرص الاختلاط بالرجال صباحَ مساء وقد حط ذلك من المستوى الخلقي في الرجال والنساء، وقلل جداً من قوة المدافعة في النساء لاعتداءات الرجال على عفتهن ، ثم أطلق العلاقة الشهوانية بين الجنسين من كل القيود الخلقية . . فالآن اصبحت الفتيات لا يخطر ببالهن الزواج أو الحياة العفيفة الكريمة حتى صار اللهو والمجون الذي كان يطلبه في الزمان الغابر أوغاد الناس ، تطلبه كل فتاة اليوم . وأمست البكارة والفتوة شيئاً من آثار الماضي، يؤود حفظُها فتاةَ العصر الجديد فليست متعة الحياة عندها إلا أن يعبّ المرء كأس اللذّات إلى صبابتها

في الشبـاب . فهي تسعى وراء تلك اللذات وتبحث عنها في المراقص والأندية الليلية والفنادق والمقاهي . وربما أمعنت ، في بحثها هـذا ، إلى أن تصحب رجلا أجنبياً إلى نزهة نازحة في السيارة . وبذلك تلقي بنفسها راضية مختارة ، إلى بيئة وأوضاع تشعل النزعات الجنسية إشعالاً ثم هي لا تخاف النتائج الطبيعية لذلك ، بل ترحب بها وتستقبلها بطيبة نفس . »

السؤال الفيصل

إن الذين يُنكرون الحجاب في وطننا وفي سائر أقطار الشرق ، وجْهةُ أنظارهم في الحقيقة هذا النمط من الحياة . وهذه الحياة هي التي قد تأثّرت بمظاهرها الخلاّبة أحاسيسُهم ومشاعرهُم . وهذه النظريات ، وهذه المبادىء الخلقية ، وهذه المنافع المادّية ، واللذّات ، هي التي قد فتنَتْ جوانبُها المشرقة عقولهم وأفئدتهم . فليس السبب في كراهيتهم الحجاب إلاّ كون فلسفته الاساسية مناقضةً لفلسفة الاخلاق الغربية التي آمنوا بها ، وكونها حائلةً بينهم وبين ما يطمحون إليه بأبصارهم من الفوائد واللذّات . أما هل هؤلاء مستعدّون لقبول الجوانب المُظْلمة من تلك الحياة أم لا؟ وبكلمة أخرى هل هم يرضون الوصول إلى النتائج العملية لتلك المبادىء والنظريات؟ فأمرٌ ليست حالهم فيه سواء . ففريق يعرف تلك النتائج كل المعرفة ويرضاها لنفسه ، ويعدّها أيضاً جوانب مُشرقةً ، لا مظلمةً ، للحياة الغربية . وآخر يعتقد هذا الجانب من حياة الغربيّين مُظلماً ، فلا يريد أن يقبله ، ولكنه يتهالك على الفوائد التي تتّصل بذلك النمط من الحياة . وثالث لا يفهم

تلك النظريات ولا يعرف نتائجها،ولا هو يريد أن يُعمل فكره ورويّته في تبيّن ما بين تلك النظريات ونتائجها من علاقة ، بل قُصاراه أن يتّبع ما هو معمول به في العالم . وقد اختلطت هذه الطبقات الثلاث بعضها ببعض اختلاطاً ربما لا يتيسّر معه للمرء تعيين طبقة مخاطبه إذا حاوره . وكثيراً ما يؤدّي هذا الاختلاط والنماذج إلى ارتباك في البحث والتواء في الموضوع . فالحاجة داعية إلى أن يفرّق بين هذه الطبقات الثلاث وتُميّز إحداها عن الاخرى . ثم يُتناول الكلام في كل واحدة منها على حسب أفكارها ومنازعها .

المستغربون [1] من اهل الشرق

فأصحاب الطبقة الاولى قد آمنوا ، على علم وبصيرة ، بتلك الفلسفة والنظريات ، وتلك المبادىء العمرانية التي قد بُنيت عليها حضارة الغرب ومدنيّته . فهم يفكّرون في شؤون الحياة بفكر الغرب ، وينظرون إليها بتلك الانظار التي نظر إليها بها مؤسّسو النهضة الاوربيّة الجديدة. ويودّون أن يبنوا الحياة المدنية في دولهم أيضاً على الطراز الغربي . فالغاية القُصوى عندهم من تعليم المرأة ، هي أن تستأهل لكسب الرزق ، وتكون مع ذلك

(١) المستغربون : المائلون إلى الغرب المفتتنون بحضارته . هكذا استعمل هذه الكلمة الكاتب الكبير العلامة محمد البشير الابراهيمي في بعض مقالاته في مجلة (البصائر) ، فاخترناها على غيرها من الكلمات في هذا المعنى كالمتغربين والمتفرنجين . (المعرب)

بهجة المجالس ، بارعةً في فنون التسلية والإمتاع . ومنزلتها الصحيحة عندهم في العائلة ، هي أن تكون ـ كالرجال ـ عضواً من اعضائها الكاسبين ، تُوَفيّ ميزانيةَ الاسرة المشتركة ما في ذمتها من الدخل. ومقامها الحقيقي عندهم في المجتمع ، هو أن تضيف إلى الحياة الاجتماعية عُنصراً لطيفاً من زينتها وجمالها ودلالها، فتُدفيء القلوب بكلامها العَذْب، وتشنّف الآذان بغنائها الساحر وتنشّط الارواح برَقْصها المُغري وتعرض كلَّ مفاتن جسمها على الرجال بتَرَجْرُجها واضطرابها ، لكي تتمتّع به نفوسهم وتلتذّ أبصارهم ، ويسري في دمائهم الباردة شيء من الحرارة . وكذلك إن وظيفة المرأة في الحياة الوطنية لا تعدو في رأيهم، أن تتولى الخدمة الاجتماعية ، فتعمل في المجالس والبلديات ، وتحضر الحفلات والمؤتمرات . وتبذل عقلها ووقتها في فض المشاكل السياسية والمدنية والاجتماعية ،وتُساهم في كل نوع من الالعاب والرياضات، حتى تضرب الرقم القياسي في السباحة والعَدْو والقَفْز والطيران البعيد... وبكلمة أخرى تُعنى بكل مايتّصل بخارج البيت ولا تبالي مايتصل بداخله. فهذه هي الحياة المُثلى في نظرهم، وهذا هو الطريق المؤدّي إلى الرقيّ الدنيوي عندهم وكل مايعترضه ويحول دونه من النظريات الخلقية البالية، فهو عبث وباطل محض. ولأجل هذه الحياة المتجدّدة قد استبدلوا القِيَم الخلقية (Moral Values) الجديدة بالقِيَم العتيقة المتوارثة على نحو مافعلته أوروبّة . فالمنافع الماديّة واللذّات الجسدية أحظى وأرجح عندهم من كل شيء . بل هي وحدها ذات قيمة وقدر حقيقي . وأما ماإزاءها

من الحياء والعفـّة وطهارة الاخلاق ، ووفاء الحياة الزوجية ، وحفـظ النسب ؟ وما هو من قبيلها من الامور ، فكل ذلك شيء رَدٌّ لاقيمة له. بل هو من أباطيل الفكر المُظلم والنزعةالرجعية التي لا يمكن التقدّم إلى الامام بدون القضاء عليها .

هؤلاء – كما رأيت – مؤمنون حقاً بالدين الغربي ، فلا يزالون يجتهدون لنشر تلك النظريات التي قد آمنوا بها ، في هذه البلاد الشرقية، بـكل تلك الطرُق والتدابير التي قد اتخذها الغرب لذلك فيما مضى !

الادب الجديد

فتناوَلْ ـ قبل كل شيء ـ أدبهم الذي هو بلا ريب أكبر عامل في تربية العقول ، تَرَ القوم لايزالون يُحاولون في هذا الذي يسمّـونه (الادب) ـ وهو أبعد شيء عن الفضائل والآداب ـ أن يزيّنوا للنشء الجديد هذه الفلسفة الخلقية الجديدة ، وينتزعـوا من نفوسهم وأذهانهم كل أثر للأقدار الخلقية القديمة . وهانحن نعرض فيما يلي نماذج من هـذا الادب الارديء الجديد :

قد ظهر في مجلة شهرية هندية ،ذات مكان مرموق في الادب ، مقال عنوانه (الآنسة شيري في الدرس) ،وكاتبه فاضل من أهل الثقافةالعليا والذكر النابه في الاوساط الادبية، ويشغل منصباً أعلى من مناصب الحكومة. مُحصّل هذا المقال أن بنتاً من بنات الأسر الشريفة تجلس أمام أستاذها للدرس،

وفي أثنائه تتقدّم إلى أستاذها رسالةَ حُبٍّ قد جاءتهـــا من صديق شاب ، للقراءة والمشورة . والصديق قد كانت صادفته في حفلة شاي ، حيث عرّفت أحدهما بالآخر آنسةٌ أوروبيةٌ ، ومن يومئذٍ جرى بينهما اللقاء والاجتماع والمراسلة ، حتى وقع في نفس الفتاة اليوم أن تتعلمَ من أستاذها كتابة الاجوبة لرسائل صديقها الغرامية حسب مُقتضى الآداب. فالاستاذ يحاول أن يَشغَل تلميذته عن تلك السفاسف بالقراءة والدرس، ولكن الفتاة تقول :

« التعليم لاريب أطلبه وأتوخاه . ولكنه التعليم الذي يساعـد على الظفر بأماني النفس التي أحلم بها في يقظتي ، لاالذي يجعل مني في هذه السن الباكرة عجوزاً خامدة الشعور . »

فيسأل الاستاذ: «هل لك أصدقاء غير هذا الصديق الذي ذكرت؟» فتجيب الفاضلة : « نعم لي أصدقاء متعددون ولكن ميزة هذا الشاب على غيره جميعاً أنه يحسن الزجر .»

— أرأيتِ إن اطّلع أبوكِ على هذه المراسلة بينك وبينه !

— وهل ترى أبي لم يكتب مثل هذه الرســائل في شبـابه قط . لا ياسيدي ! إنه رجل ذو حظٍ لابأس به من الثقافة الجديدة وما أدراك ، لعله لايزال يكتبها حتى هذه الآونة ، فإنه لم يدخل في الشيخوخة بعدُ ، بفضل الله .

— أما قبل خمسين سنة من هذا العصر، فما كان يخطر ببال أحد أن يكتب الى آنسة شريفة كتاباً في الغرام .

— وهل كان الناس لا يحبون إلا الرذلات السافلات في تلك الايام، إذاً ما كان أطيب عيش الرُذّال في تلك الايام ، وما أخبث عيش الاشراف !

وآخر كلمات شيري التي هي مقطع القصيد وقد بلغ فيها الكاتب نهايته من التفلسف الادبي هي : « نحن – معشر الشباب – نواجه اليوم تبعة مضاعفة ، هي ان نحيي – بجانب – تلك النعم واللذات التي قد ضيعها أسلافنا ، ونقضي – بجانب آخر – على خصال الكذب والغضب التي قد أحيوها وخلفوها . »

وفي مجلة أدبية اخرى ذائعة الصيت ، نشرت قصة موجزة بعنوان (الندامة) ، قبل سنة ونصف ، خلاصتها في كلمات موجزة ان عذراء من بيت كريم تعاشق رجلا ، وتدعوه الى بيتها في غيبة أبيها وفي خفية من أمها ، فيتلوثان بالفحشاء ، فتحمل ، ثم تجلس بعد ذلك يوماً تناجي نفسها وتحتج لتبرير فعلتها الدنسة بالكلمات الآتية :

« لمَ بي هذا الاضطراب ؟ ومم يخفق قلبي ؟ هل يلومني ضميري ؟ وهل أنا نادمة على ما وقع مني ؟ لعله كذلك ! ولكن ماحيلتي بعدُ ، وحديث تلك الليلة المقمرة قد كُتب في صحيفة حياتي بماء الذهب ،

وذكرى تلك الساعات الساحرة في نشوة الشباب هي أعزّ ما قد ادخرته في حياتي ؟ ألستُ مستعدة لبذل كل ما أملك لاسترداد تلك الساعات العذاب ؟ »

« وممّ إذاً خفقان قلبي ! أمن خشية إثم ركبتُه ؟ وهل ارتكبتُ إثماً ؟ هيهات هيهات ! فمن الذي اذنبتُ اليه ؟ ومن آذيته بذنبي ؟ وانما أقدمت على بذل وتضحية . فبذلتُ أنفسَ ماعندي لذاك الحبيب وياليتني كنت أستطيع أن أبذل له أكثر منه ! ولست أخاف الاثم . ولكني أخاف... نعم أخاف هذا المجتمع السمج البغيض الذي يرمقني ويحدق إلي بنظرات فيها الشك والريبة والاتهام »

« ولماذا أخاف هذا المجتمع ياصاح ؟ ألأني قد أثمتُ ؟ ولكن ماهو إثمي أما كانت غيري من بنات المجتمع صانعةً مثل ماصنعته ؟ .. في تلك الليلة البيضاء الناعمة وفي تلك الخلوة ، آه ما كان أجمله ! وكيف وضع فاه على فمي ، وضمني إلى صدره المريض ! أواه على تلك المتعة الذاهبة ! كيف لصقت بصدره الدافىء المتعطر بكل دعة وطمأنينة . ثم آثرت كل هذه الدنيا وما أملك فيها من تلك اللحظات من اللذّة والنشوة والسرور . فماذا كان بعده ؟ وماذا يصنعه غيري عندئذ ؟ أكانت امرأة من هذه الدنيا تملك أن تأبى عليه في مثل تلك الساعة ؟ ».

« أفإثم هو ؟ كلا لم أرتكب إثماً . وما بي من خجل عليه . وها أنا ذي مستعدة لإعادة مافعلتُ . وما العفّة؟وماذا يريدون بها ؟ أهي المذارة

لاغير ؟ أم هي طهارة الافكار ؟ لم أعُد عذراء ولكن هل يعني ذلك أني قد فقدت عفتي ؟!! ».

« ألا فليَصنَع هذا المجتمع الفاسد البغيض ماهو صانعه ، ولا أبالي. وأي ضير قد ينالني منه ؟ لا شيء والله ! فلماذا أستخذي إذاً من اعتراضه السفيه الاخرق ، ولمَ أشفق من نجواه وهمساته ؟ وأصفرّ وجهي من الذُعر ؟ ولماذا أهرب من تهكمه الفارغ ؟.. وهذا قلبي يشهد بأني لم آت نُكراً ، بل حسناً فعلتُ ونعماً صنعت . ومالي إذاً أتأثم منه ، ولماذا لا أعلن بملء فيّ أني قد فعلته وياحبّذا مافعلت ! ».

هذا هو الاسلوب الفكري والمنطق الذي يريد الاديب المتجدّد في عصرنا هذا أن يلقّنه كل فتاة من فتياتنا - ولعلّه يريد ذلك لابنته وأخته أيضاً - فهو يدعوهن إلى أنه أيما صدر دافيء متعطر وجدته إحداهن في ليل مقمر ، فلتلصق به ولتنضمّ اليه ، لأنه هو الطريق الواحد الممكن في تلك الظروف . وليس لامرأة أن تفعل غير ذلك في مثل تلك الحال. وليس هذا من الإثم في شيء ، بل هو بذل وتضحية . وأيضاً لا يضير هذا بالعفّة ، فإن العفة هيهات أن تنال منها التضحية بالبكارة ، مادامت تصحبها الافكارُ الصالحة المنزّهة ، بل هو مما يقويها ويحكمها ، بل هو مأثرة جليلة يجب أن تُكتب في صحيفة حياة المرأة بماء الذهب . ولتجتهد كل امرأة أن تكون صحيفة حياتها ملأى بمثل هذه المآثر الذهبية . وأما المجتمع ، فإن كان يعيب مثل هؤلاء الآنسات العفائف ، فلا شك في

فساده وسماجته . والذنب في الحقيقة ذنبه، إذ هو يعترض على تلك الفتيات ذوات البذل والإيثار ، لاذنب البنت الكريمة التي لا تأبى الانضمام إلى صدر مفتوح في ليلة من ليالي الغرام . وإن المجتمع الظالم الذي يستقبح هذا الفعال ، لايجدر بأن يخشاه المرء ، وأن يتوارى منه بعد قيامه بتلك المأثرة . لا وربك ، بل ينبغي لكل فتاة أن تتعالى بتلك الفضيلة الخلقية وتجاهر بها بكل جرأة وقوة جأش . وبدل أن تخجل بنفسها،يجب أن تخجل المجتمع وتنحي عليه باللائمة ، إن استطاعت ! فانظرْ إلى هذه الوقاحة والجرأة التي لم تكن تُقدم عليها حتى القواعد في حيّ البغايا ، في زمن من الأزمان . لأن أولئك البائسات ، لم تكن بأيديهن مثل هذه الفلسفة الخلقية التي تجعل الاثم صوابا والصواب مأثمة . ولئن كانت المومسة في ذلك العهد الماضي تبيع عفتها و كرامتها ، فقد كانت ولا شك تعدّ نفسها مهينةً ومرتطمةً في حمأة الآثام . ولكن هذا الأدب الجديد قد جاء يثب بنت كل أسرة كريمة إلى ماقصرت عن شأوه مومسات الغابر ، لأنه قد ابتدع ـ ولا يزال ـ لتأييد فجورها ودعارتها فلسفةً خلقية جديدة .

وفي مجلة أخرى ، ذات رواج عظيم في أوساطنا الادبية ، قد نُشرت قصة بعنوان (أخو الزوج) . وكاتبه نجل أبٍ كان له فضل لاينكر في إخراج أدب خلقي عالالاناث . وكان لهذه الخدمة التي أسداها إليهن أحظى وأحبّ إلى النساء الناطقات باللغة الاردية في الهند . في هذه القصة يضع الاديب الشاب بين يدي أخواته القارئات أسوة فتاة كانت

تسرسل في جسمها مثل مسّة الكهرباء ، بما تصوره في أخي زوجها من سورة الشباب ونزوات الفتوة ، قبل أن تتزوّج . والتي كان من نظريتها الثابتة منذ صباها : أن الشباب الذي ينقضي في خمود النفس وسكونها ، لا يختلف عن الشيخوخة والهرم في شيء . فكانت تقول : عندي أنه لابدّ للشباب من الثورة والاضطراب الناشيء من النزاع بين العشاق والأحبّة . فلما زُفت هذه الآنسة ، وهي تحمل في ذهنهــا هذه النظرية وذاك التصور ، انطفأت في نفسها جذوة العواطف بمنظر اللحية على وجه زوجها . فأزمعت ، حسبما دبرته في نفسها من قبلُ ، أن تميل بهواها عن الزوج إلى شقيقه . ولم تلبث أن سنحت لها الفرصة لذلك . إذ غادرهــا زوجها إلى أوربة لتحصيل العلم . فعلقت بأخيه وتساقيا كؤوس الحب مترعةً في غيابه ، وخانت الزوجة الزوج وغـــدر الاخ باخيه بأقصى ما شاءت نفوسهما . وقد كتب الكاتب قصة هذا الفعال بقلم الفاجرة نفسها فهي تكتب إلى صديقة لها لم تتزوّج بعد ، كل ماتأتيه وما ترتكبه ، وتبسط لها ذكر جميع المراحل التي قد اجتازها حبهُما إلى أن بلغ الغاية . وفي بيانها هذا لاتتحرّج من تصوير كل مــاقد يمرو المرء من كيفيات النفس والجسد في الاختلاط الجنسي مما لا يبقى بعده إلا أن يُصور عمل الفاحشة بعينه . ولعلها قدتركت لمخيلة القراءوالقارئات أن تسدهذهالثلمة في التصوير بنفسها .

فإن أنت قارنت بين هذاالادب والادب الفرنسي الذي قد سقنا لك بعض نماذجه فيما سبق ، تبيّن لك أن هذا الرعيل من أدبائنا الشرقيين

لا يزالون يترسمون في سيرهم خطى أساتذتهم الغربيين . فالطريق هو الطريق والغاية هي الغاية . وهم يربون العقول ويعدون الأذهان لذلك النظام الغربي للحياة ، من الجهة الفكرية والخلقية . وعنايتهم في ذلك مصروفة إلى المرأة على وجه خاص ، لكي لا يترك فيها أثر للخفر أو الحياء .

التمدن الجديد

ثم ليست هذه الفلسفة الخلقية وهذه النظرية للحياة بقوة وحيدة في مضمار العمل . بل أصبحت تؤازرها فيه مبادىء الديمقراطية الغربية ونظام التمدن الرأسمالي . وهذه القوى الثلاث لا تزال تتعامل لسَبك الحياة الاجتماعية في صيغة من صنع الغرب . فلا يزال يُذاع حول المواضيع الجنسية أردأ نوع من الأدب وأفحشه ، مما يكثر دورانه في أيدي الطلبة والطالبات في المدارس والكليات . ولا تزال الصوَر العارية وصور الفاجرات من النساء زينة الجرائد والمجلات وتحاسين المقاهي والمنازل . وأصبحت البيوت والاسواق كلها تدوي بالغناء الفاحش الركيك . وأصبح مدار العمل في السينما إثارة العواطف وتحريك الشهوات فتزيّن للناس الدعارةُ والفجور على شاشتها البيضاء كل مساء ، تزييناً بجمل حياة الممثلين والممثلات أسوةً تتبع ، لكل فتى وفتاة . فإذا خرج الشبّان والشواب من تلك الملاهي المشوّقة المستفزة ، غدت نفوسهم الثائرة المقلقلة ترتاد فيما حولها موارد الهوى ، وتلتمس فرصَ العشق والغرام .. كل هذه مظاهر شتىً للانتفاع

الرأسمالي . ولأجل هذا النظام الرسمالي للحياة لاتزال تطرأ على المُدن والحواضر - بسُرعة - تلك الأوضاع التي لاتجد فيها النساء مندوحة عن كسب الرزق بأيديهن . وهذا النظام هو الذي قد ساعد على ظهور الدعاية بحق منع الحمل ، بكل ما تبعه من الآلات والأدوات والعقاقير .

إن النظام الديمقراطي الجديد الذي وصلت إلى بلادنا الشرقية (بركاته) بواسطة انكلترا وفرنسا في الغالب ، قد جاء بسيئات ثلاث : ففتح - أولاً - باب النشاط السياسي والاجتماعي على مصراعيه أمام طبقة الإناث . وأقام - بجانب آخر - هيئات ومؤسسات لا مندوحة فيها للصنفين عن الاختلاط . وثالثاً قد أرخى من عنان القانون وقيوده إرخاءً أصبح معه الجهر بالفواحش ، بل ارتكابها فعلاً ، لا يُعد من الجرائم في أغلب الاحوال .

فالذين قد عزموا اتباع هذا الطريق في حياتهم بقلب مطمئن مقتنع ، قد اكتمل الانقلاب - أو كاد - في حياتهم الخلقية والاجتماعية . فعادت نساؤهم يخرجن من بيوتهن في ملابس شفافة عارية يخيل إلى الناظر كأن كل واحدة منهن ممثلة من ممثلات (هوليوود) وأصبح يرى فيهن كل الجسارة والصفاقة . بل يتبين المرء من ملابسهن الفاضحة وألوانهن البراقة ، وعنايتهن بالتزين وحركاتهن من التثني والتغنج ، أنه لا مطمح أمام أعينهن إلا أن يكن مغنطيساً جنسياً يجذبن الرجال إليهن جذباً . وقد قل الحياء فيهن إلى حد أن عدن لا يستحيين من

المختلط مع الرجال شبه عاريات ، بل من عَرْض أنفسهن في تلك الحالة لتؤخذ صُوَرُهن وتُنشر في المجلات . والحياء لم يعُدْ له وجه عندهن حقاً . إذ أن جميع أجزاء الجسد الإنساني بمنزلة سواء في التصوُّرات الخلقية الجديدة. فإذا جاز للمرأة أن تُبرز من جسمها الكفَّ وأخمص القدم ، فأيّ ضير عليها في الكشف عن مَفْتن فَخْذها وحلمة ثَدْيها. ومتعة الحياة ولذّتها التي يُعبَّر عن جملة مظاهرها باسم الفن (Art) ، هي عنـد هؤلاء القوم أجلّ وأسمى من كل قيـد خلقي ، بل هي في نفسها مقياس للأخلاق . ومن ثمَّ ترى الآباء منهم والاخوان يكاد أحدهم يخرج من إهابه فخراً وسروراً ، إذا شهد ابنته أو أخته الآنسة تُعجب مئات الحضور والسامعين المتشوّقين ببراعة غنائها ورقصها وتمثيلها الغرامي وتنال رضاهم وتحسينهم . وان النجاح المادّي الذي يعدُّونه غايةَ الحيـاة ومقصودَها ، أرجح وأغلى في رأيهم من كل ما يمكن أن يُنال هذا ببذله. فالفتاة التي تؤهّل نفسَها للظفر بهذا المقصود ـ النجاح المادّي ـ ولنَيْل الحظوة لدى المجتمع ، إن فقدت عفّتها في هذا السبيل، فكأنها لم تفقد شيئاً ، بل حازت كل شيء . ومن ذلك لا يكاد هؤلاء يفقهون وَجْهَ الطعن على تعلُّم فتاةٍ مع الفتيان في المدرسة أو الكلية ، أو على ذهابها منفردةً في سنّ الشباب ، إلى أوربة لتحصيل العلم .

فصل الخطاب مع المستغربين

هؤلاء هم أشد الناس اعتراضاً على الحجاب . وهو في رأيهم شيء

حقيرٌ ظاهرُ البُطلان ، يكفي لرده وإبطاله التهكم به والسخرية منه . ولكن مثلهم في ذلك كمثل من كان لا يجد ضرورة وجود الأنف على وجه الانسان ، فغدا يستهزىء بكل من رأى على وجهه أنفاً . فهذا الدليل الجاهلي لا يرعب إلا الجهلاء ويجب أن يفهموا - إن كانوا يعقلون - أن بيننا وبينهم اختلافاً أساسياً يتعلق بأقدار الاشياء. فالأمور التي نغالي بقيمتها نحن، هي عند أولئك القوم رخيصة تافهة. ولذلك فان الطريق العملي الذي نراه واجب الاتباع حسب معيارنا لتقدير الاشياء، لا بد أن يكون في ظنهم فضولياً نكداً . ولكنه ما دام بين الجانبين مثل هذا الاختلاف الاصلي الرئيسي، فمن الطيش وخفة العقل أن يبدأ المرء بحملته على الفروع ، قبل أن يبحث ويتكلم في أصل الاختلاف ومبدئه . أما الاقدار الانسانية فليس الحكم الفيصل في تعيينها وتحديدها إلا قوانين الفطرة . وذلك أن كل ما اقتضاه تركيب الوجود الانساني تبعاً لقوانين الفطرة وما كان فيه فلاح الانسان وصلاحه ، هو وحده في الحقيقة يستحق العناية والتقدير.. فتعالوا إذاً ! نختبر ما عندكم بهذا المقياس وننظر أيّنا على الحق في تعيين قيم الاشياء وأقدارها . فهاتوا براهينكم العلمية ونأتي ببراهيننا . ثم نضع هذه وتلك في كفتي الميزان ونوازن بينهما كأهل الصدق والرشاد، لنرى أيهما ترجح في الميزان وأيهما تشول . فإن أثبتنا لكم بذلك أن معيارنا للاقدار هو الصحيح ، كان لكم الخيار في أن تقبلوا هذه الاقدار المستندة إلى العلم والعقل، أو تبقوا متمسكين بتلك الاقدار التي اخترتموها تبعاً لأهواء أنفسكم فحسبُ . ولكن موقفكم في هذا الاخير لا بد أن

يكون من الخطأ والضعف بحيث يجعلكم أنتم موضعَ الهزء والسخرية ، بدل أن تسخروا من غيركم .

الطائفة الثانية

ثم هناك طائفة ثانية ، تواجهنا بعد الاولى. وإذا كانت الاولى متألّفة من المسلمين وغير المسلمين ، فهذه الثانية تشتمل في الغالب على المسلمين . وهؤلاء قد راج بينهم خلط عجيب من بعض السفور وبعض الحجاب ، ولا يزالون (مذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) فبجانب تنزع نفوسهم نزعة إسلامية، وهم لا يؤمنون بتلك المعايير التي قد جاء بها الاسلام للأخلاق والتهذّب والكرامة وحسن الفعال ، ويريدون أن يحلّوا نساءهم بحلي العفّة والحياء ، ويطهروا بيوتهم من الأدناس الخلقية ، وليسوا مستعدين لقبول تلك النتائج التي قد ظهرت ـ ولا بدّ أن تظهر أبداً ـ لاتّباع مبادىء التمدن والاجتماع الغربيين . وبجانب آخر ، هم زاحفون بأزواجهم وبناتهم وأخواتهم إلى الطريق الذي قد سلكته الحضارة الغربية ، متعدين حدود النظام الاجتماعي الاسلامي ، كارهين حيناً ومترددين آخر ، تارة يحجمون ، وأخرى يقدمون ، وقد ظنوا غلطاً في الفهم أنهم بالجمع بين بعض الطريق الغربي وبعض الطريق الاسلامي على هذا النحو ، سيجنون منافع الطريقين وبركاتها جميعاً ، فستبقى الاخلاق الاسلامية في بيوتهم محفوظةً موفورة ويبقى نظام حياتهم العائلية مجموعاً محكماً ، وسيجمع نظامهم الاجتماعي محاسنَ الاجتماع الغربي لامساوئه ولذّاته

ومنافعه دون مضارّه . ولكن الحق أنه لا يصح ـ اولاً ـ تلقيح فرعين اقتُطعا من حضارتين مختلفتين في المقاصد والغايات ، لان هذه المزاوجة المتكلّفة بين المتناقضين أحرى ـ في القياس ـ بأن تجمع مضارّهما جميعاً من أن تجلب منافعها جميعاً. ثم إنه مما يناقض الفطرة ويخالف العقل انك بعد ان تُرخي لنفسك من عنان النظام الخلقي الاسلامي المحكم وتسمو دهاالتعدي لحدود القانون قد تتمكن من كبح جماحها عند الحد الذي ترى الوقوف عنده خالياً من الضرر . فهذا الشغف بالازياء العارية والتفاني في الزينة والتبرّج ، والبدء بتعوّد الجراءة في مجالس الخلان ، والإقبال المتزايد على الصور العارية والقصص الغرامية ، وتعليم البنات على الطراز الغربي. كل هذه المظاهر لمجاوزتك حدود الاجتماع الاسلامي إن كانت لا تعود عليك بنتائج عاجلة ، ولا تنال مضارُّها الجيلَ الحاضر ، ولكنه من البلاهة والحمق الظنُّ بأن الاجيال القادمة أيضاً ستسلم من أضرارها . ذلك بأن بداية كل طريق منحرف في التمدّن والاجتماع تكون لاشك حقيرةً متواضعةً ولكنها إذا انتقلت من جيل إلى آخر ، ومن ثان إلى ثالث ، فانها تعود خطأً عظيما وأمراً مستفحلاً ومصداق ذلك اوربة واميركا ، فإن الاسس الخاطئة المعوّجة التي نُظم عليها اجتماعها من جديد . لم تظهر نتائجها فيها عاجلةً ، بل تمَّ ظهور تلك النتائج الكاملة أخيراً في الجيل الثالث والرابع. لذلك كان هذا الجمع المتكلّف بين الطرق الغربية والطرق الاسلامية ، وهذا الحجاب السافر ، ليس بشيء ثابت مستقر ، بل رجحانه الطبيعي إلى الطريقة الغربية المتطرفة . والذين هم مستمسكون به الآن ، يجب أن

يعلموا أنهم بعدُ في بداية المسير الذي إن لم يصل الى نهايته هؤلاء ، فلابُدَّ ان يصل اليه خلفهم أو الجيل الذي يليهم .

السؤال الفيصل

وهنا ينبغي للقوم أن يتثبّتوا في الامر وقبل أن يخوضوا في سيرهم عليهم أن يجزموا موقفهم من سؤال أساسي ، هو بكلمات موجزة : هل أنتم مستعدون لقبول النتائج التي قد حصلت في أوربة واميركا ، وهي ثمرات طبيعية لازمة لذلك الطريق الاجتماعي ؟ وهل أنتم ترضون أن تروا في مجتمعكم مثل تلك البيئة الغربية المهيجة للشهوات ؟ وأن يروج في أمتكم ماراج في أمم الغرب من فقدالحياء وزوال العفة ، وغلبة الفواحش فتعم الامراض السرية كالأوبئة ؛ ويتبدد نظام العائلة والبيت ، ويكثر الطلاق والتفريق ، ويتربى الشباب والشوابُّ على قضاء الشهوات أحراراً من كل قيد ، وينقطع التناسل بتدابير منع الحمل وإسقاطه وقتل الاولاد ، ويضيّع الفتيةُ والفتيات خير ما أوتوا من قوة العمل وصحة الجسم في شهواتهم المجاوزة لحدود الاعتدال ، حتى لا ينجو من ذلك الصغارُ ، فتنشأ فيهم النزعات الجنسية قبل الاوان ، ويُصيب نموَّهم الجسدي ونشأتهم الفكرية فتور عظيم منذ بداية عمرهم ؟!

فان كنتم تريدون أن تقبلوا كل هذه العواقب الوخيمة طمعاً في المنافع المادية واللذات الحسّية ، فأنتم أحرار في ان تتبعوا سبيل الغرب ؟ ولا تشغلوا انفسكم بذكر الاسلام . ولكنكم قبل ان تسلكوا تلك السبيل

يجب عليكم ان تُعلنوا قطع صلتكم عن الاسلام ، حتى لا يكون لكم بعد ذلك أن تخدعوا أحداً باسمه ، ولا تكون فضيحتكم وسوء سمعتكم سبباً في تشويه سمعة الاسلام والمسلمين .

ولكنكم إن كنتم غير مستعدين لقبول تلك النتائج ، بل توخيتم لأنفسكم نظاماً صالحاً مُطهراً للتمدن ، تنمو فيه الفضائل والملكات الانسانية الشريفة ، ويجد فيه الانسان بيئةً هادئة ساكنةً لارتقائه العقلي والروحي والمادّي ، ويتمكّن فيه الرجال والنساء من القيام بخدماتهم المدنية ، بخير ما أوتوه من المقدرة والكفاءة ، على نجوة من خلجات الشهوة البهيمية ، وتثبت فيه دعامة التمدن ـ أي الأسرة ـ وتستحكم ، ويُحفظ وجود الأجيال ، ولا تقوم فتنة اختلاط الانساب ، وتكون فيه الحياة العائلية للمرء بحبوحة الدّعة والراحة والسكون ، ومثوىً آمناً لتربية الأولاد وتنشئتهم ومجالا للمشاركة والتعاون العملي بين أفراد الاسرة . إن كنتم تطلبون مثل هذا التمدّن الصالح المطهّر فلا تولّوا وجوهكم شطر الغرب لأنّه سائر في الجهة المعاكسة . ومن المحال العقلي أن يبلغ المرءُ غايتَه في الشرق، باتّجاهه نحو الغرب. إن كنتم تقصدون كل هذا فعليكم بسلوك سبيل الاسلام وحده !

على أنكم قبل أن تقصدوا هذا السبيل ، يجب أن تنزعوا عن نفوسكم ما علق بها من حب المنافع المادية واللذات الحسية ، لتأثركم بمظاهر التمدن الغربي الفاتنة ، وأن تنفوا عن أذهانكم تلك النظريات والتصورات التي

قد اقتبستموها من الغرب ، وتهجروا هجراً جميع المبادىء والمقاصدالتي قد أخذتموها من التمدن والاجتماع الغربي . ذلك بأن الاسلام له مبادىء ومقاصد خاصة ، وله نظريات عمرانية مستقلة ، وقد اصطنع لنفسه نظاما اجتماعياً حسب ما تقتضيه طبيعة مقاصده ومبادئه ونظرياته العمرانية . ثم إنه يحافظ على هذا النظام الاجتماعي بضوابط معلومة وطريق تأديبي مخصوص ، قد قرر بحكمة بالغة ومراعاة لخصائص النفس الانسانية كاملة مما لا يمكن أن يسلم هذا النظام بدونه من الفوضى والاختلال . وليس هذا النظام خيالياً قائماً على الأوهام Utopia كديموقراطية افلاطون، بل هو قد ثبت على محك الدهر طوال ثلاثة عشر قرناً ونصفاً ، ولم يورث أمة من الأمم ، ولا قطراً من أقطار العالم ، خلال هذه المدة الطويلة ، شيئاً مما أورثه التمدن الغربي إياها من المفاسد والشنائع في مدة قرن واحد لاجل ذلك إن كنتم تريدون الانتفاع بهذا النظام الاجتماعي المختبر المحكم، فلا بد لكم أن تأخذوا أنفسكم بتأديبه وتخضعوا كل الخضوع لضابطه . ثم ليس لكم بعده أن تدسوا في هذا النظام ، بغير حق ، كل ما اخترعته عقولكم أو ما ورد عليكم من غيركم ، من أفكار فجة وطرق مقترحة غير مجربة ، تخالف مزاج هذا النظام وطبيعته .

أما **الطبقة الثالثة**، فهي تشتمل على السفهاء والمغفلين الذين ليس فيهم من الكفاءة والأهلية ما يفهمون به الأمور ويفكرون فيها بأنفسهم ويرون فيها رأيهم . ولذلك لا يستحقون أن يعنى بأمرهم ، فأجدر بنا أن نعرض عنهم ، ونتقدم في بحثنا إلى الأمام !

قوانين الفطرة

إن الفاطر قد خلق النوع الانساني ـ كسائر الانواع ـ أزواجاً ، أي جعلهم صنفين اثنين ، يميل أحدهما الى الآخر بدافع طبعه . ولكن الذي يدل عليـــه ما علم من أحوال سائر الانواع الحيوانية ، هو أن الغاية من وراء التقسيم الصنفي والميلان الطبعي فيها هي مجرد بقاء أنواعها ولذلك قد أودعت تلك الانواع من هذا الميلان مالا بد منه لبقـاء كل نوع منها ، ووزعت في جبلتها قوة وازعة لاتدعهاتتخطى ذلك الحدالمعين في أداء وظيفتها الجنسية . وأما الانسان ـ بخلاف ذلك ـ فهذا الميلان فيه ليس يحده حد ولا يضبطه ضابط ، وهو أكثر وأشد فيه منه في سائر الانواع فلا يقيده وقت من أوقات الليل والنهار ، ولا فصل من فصول السنة الاربعة . ثم ليس في جبلته قوة وازعة تقف به عند حد بعينه . بل الرجل والمرأة يميل أحدهما إلى الآخر ميلاناً دائماً أبدياً ، وقد ركب فيها ما لا يعد ولا يحصى من أسباب الجذب والانجذاب الصنفي ، وأشربا في قلوبهما حب الجنس الآخر والولع به .ووضعت في تركيب أجسامهما وفي تناسبها وألوانها وهيئتها وملمسها ، وفي كل جزء منأجزائها جاذبية

الجنسين بعضها لبعض . وأودعت رنة صوتها ومشيتها وحركاتها ولفتاتها قوة أخاذة . ثم قد بث القدر فيما حولها ما لا يحد من الاسباب التي تحرك فيها النزعات الجنسية وتميل أحدهما إلى الآخر . فرفيف الريح، وجريان الماء ، وخضرة النبات ، وعبير الرياحين ، وزقزقة الطيور ، وعارض السماء ونعومة الليل المقمر ! كل هذه المظاهر لجمال الفطرة وبهاء الكون ، إن منها شيء إلا يحرك فيها العواطف بنفسه أو بواسطته .

ثم إنك إن تأملت نظام الجسم الانساني ، علمت أن ما أودعه من مخزون القوة العظيم ، هو في الوقت نفسه ، قوة الحياة وقوة العمل وقوة الوظيفة الجنسية . فالغدد (Glands) التي تهيء لأعضاء الانسان الحاثات (Hormones) وتبعث في جسمه قوة العمل والفطنة والنشاط، هي التي قد وكل إليها أن تنشيء فيه قوة الوظيفة الجنسية ، وتنمي فيه العواطف المحركة لهذه القوة وتزوده بصنوف الادوات من الجمال والرواء والوضاءة والروعة لاستثارة تلك العواطف . ثم تبعث في ناظرته وسامعته وشامّته ولامسته ، وحتى في مخيلته صفة التأثر بتلك الاصوات الجمالية .

وهذه الحكمة والتدبير نفسه ، قد راعته الفطرة في قوى الانسان النفسية . فكل ما أودعته نفس الانسان من القوى المحركة ، تتصل أسبابها بغريزتين قويتين : إحداهما ، التي تحفزه على حفظ وجوده وخدمة ذاته . والاخرى ، التي تدفعه إلى التعلق بالجنس المخالف . ففي عهـــد الشباب ، حينما تكون القوى العملية في الانسان على أشدها ، تبلغ هذه

الغريزة الثانية من القوة والشدة أنها كثيراً ما تقهر الأولى . ويبلغ من تأثيرهـا في الانسان أنه ربما لا يتردد في الالقاء بيديه إلى التهلكة وهو يعـــلم !

تأثير الجاذبية الجنسية في انشاء التمدن

لأي شيء ترى هذا التدبير المحكم ؟ ألمجرد بقاء النوع ؟ لا ، لان النوع الانساني لا يحتاج لبقائه إلى كل ذاك التناسل الذي يحتاج اليه السمك والمعز وما اليها من الانواع . فما العلة إذاً لكون الفاطر قد جعل حظّ الانسانمن الميلانالجنسي أكثر من كل ماسواهمن الانواع،وأعدّ له من أسباب التحريك والتهييج مالم يُعده لباقي الحيوان ؟ هل ذالك كله لتوفير اللذّةوالمتعة للانسان ؟ لا ، ليسالامر كذلك أيضاً . لانالفطرة لم تجعل اللذة والمتعة شيئاً مقصوداً بذاته في حال من الاحوال . وإنمـا هي تضع اللذة في عمل من الاعمال ، حفزاً للانسان والحيوان عليه ، لتحقيق مقصودأسمى وأجل ، حتىيقوموا بهذه الخدمة راضين ، شاعرين بأنهم يفعلون ذلك لمصالحهم ، لا لمصالح غيرهم . فتأمّل الآن : ماهو ذاك المقصود الأسمى الذي ترمي اليهالفطرة في هذا الأمر . إنك مهما فكرتَ وتروّيتَ لمتلقه لكل هذا التدبيرمن غاية سوىأن الفطرةتريد للانسان ـ بخلاف سائر الانواع ـ أن يتحضر ويتمدّن !.

فلهذا السبب وحده قد وُضعت في قلبه تلك الغريزة للحب والهوى

الجنسي ، التي لاتقتضي مجرّد الاتصال الجسدي ، والوظيفة الجنسية ، بل تتطلب عشرة دائمة وصلة قلبية وتعلقاً روحياً قوياً .

ولهذا السبب وحده قد جُعل الميلان الجنسي في الانسان أضعاف مافيه من قوة الجماع . ولو أنه يأتي الوظيفة الجنسيّة بقدر ما أودع من الشهوة والنزوع الجنسي ، أستغفر الله ، بل بقدر معشار مافيه من تلك الشهوة والنزوع ، لخانته صحتُه ونفدت قواه قبل أن يبلغ تمام عمره الطبيعي . وهذا من الدليل البين على أنه ليس المقصود بتوفير النزوع الجنسي فيه أن يأتي الوظيفة الجنسية أكثر من سائر الحيوان ، بل يراد به وصل الرجل والمرأة بهذا السبب القوي ، وجعل علاقة ما بينهما ثابتةً مطردة !

ولأجل ذلك قد رُكِّب في طبع المرأة - بجانب الشهوة والجاذبية الجنسية - الحياء والاحتشام والصدود والامتناع والفرار التي تتصف بها كل امرأة قليلاً أو كثيراً . ولا ريب أن طبع الفرار والامتناع هذا ظاهر على إناث سائر الحيوان أيضاً، ولكنه في أنثى الانسان أكثر وأشدّ. وقد زيد في شدته بما وُضع فيها من غريزة الحشمة والحياء . وهذا أيضاً يُستنبط منه أن المقصود بوجود القوة المغناطيسية الجنسيّة في الانسان هو تحقيق الاتصال الدائم بين زوجيه ، لا أن تنتهي كل نزعة جنسية فيهما إلى وظيفة جنسية .

ولهذا السبب قد خلق الطفل الانساني أضعف وأعجز من نتاج

سائر **الحيوان** . فيحتاج الولد الانساني ـ بخلاف الحيوانات الأخرى ـ إلى رعاية والديه وتربيتها مدة بضع سنين، ويتأخر فيه نشوء القوة والاهلية لكسب قوته ، والاستقلال بنفسه في المعاش . وهذا كذلك مما يُراد بـه ألا ينحصر اتصال الرجل والمرأة في التعلـّق الجنسي بينهما ، بـل تحملها نتيجة هذا التعلق على التعاون والتعامُل في الحياة .

ولهذا نفسه قد **فطر الانسان أحنى على أولاده وأكثر حباً لهم من كل الحيوان** . فالحيوانات تفارق أولادها بعد أن تُربيها لمدة قليلة ، ثم تنقطع بينها الاسباب حتى لا يعْرف بعضها بعضاً بعد ذلك . والانسان ـ بخلاف ذلك ـ يظلّ مأسورَ الفؤاد بحُب أولاده ، حتى بعـد انقضاء مدة التربية ، ثم يمتد حبُّه هذا من أولاده إلى أولاد أولاده . ويبلغ من سلطان هذا الحب على طبع الانسان الحيواني الاناني أنـه يُحب لأولاده أكثر مما يُحب لنفسه ويود من قرارة نفسه أن يهيء لخَلَفه أحسن مـا يكون من أسباب العيش ، ويورثهم كل ثمرات أعماله ومجهوداته في الحياة. فما كانت الفطرة ترمي من وراء هذه العاطفة الشديدة من الحُب إلا أن تحوّل التعلـّق الجنسي بين الرجل والمرأة إلى رابطة أبدية . ثم تتخذ هذه الرابطـة أداةً لإنشاء العائلة ، ثم تمضي هذه السلسلة من حب الأقارب والادنين تربط كثيراً من العائلات بآصرة الصهر ، حتى تشتركَ في الحب والاحتاء ، فيحملها هذا الاشتراك على التعاون والتعامُل . وبذلك يقوم نظام التمدُّن .

يتضح من ذلك كله أن وفور هذا الميلان الجنسي الذي لا يخلو منه عصب من أعصاب الجسد الانساني أو ناحية من نواحي روحه ونفسه ، والذي قد هيأ الفاطر لتعزيزه وتقويته أسبابا ومحركات في كل جانب من جوانب هذا الكون ، على نطاق واسع جـــداً ، المقصود به : **صرف (الفردية) في الانسان الى (الجماعية)** . وإن الفاطر قد جعله قوة محرّكة أصلية للتمدن الإنساني . فبهذا الميلان الشديد والانجذاب الدائم يتحقق الوصل بين الجنسين من النوع الإنساني . ومن هذا الوصل بينهما تكون بداية الحياة الاجتماعية (Social Life) .

وإذا تحقق هذا الأمر ، تبين أن مسألة العلاقة بين الرجل والمرأة ، هي في الحقيقة مسألة أساسية للتمدن ، يتوقف على حلهـا الصحيح أو الخاطيء ، صلاح التمدن أو فساده وخيره أو شره ، وقوته أو ضعفه . وأن بين الجنسين الانسانيين علاقتين إحداهما علاقة بهيمية ــ وبكلمـات أخرى جنسية شهوانية خالصة ــ ليس المقصود بها إلا بقاء النوع . وأخرى علاقة انسانية يُراد بها للجنسين أن يتعاونا فيما يشتركان فيه من المصالح والأغراض ، حسب مـا أوتي كل واحد منهما من المواهب والكفاءات الفطرية ويُمينهما على هذا التعاون حبهما الجنسي الذي يكون بينهما واسطة

الاتصال . وهذان العنصران ـ البهيمي والانساني ـ يتعاملان في الجنسين ويستخدمانهما للقيام بشؤون التمدن وفي الوقت نفسه لإنتاج المزيد من الأفراد الذين يواصلون تدبير تلك الشؤون . وصلاح التمدن متوقف على أن يكون امتزاج هذين العنصرين معتدلاً متزناً .



لوازم المدنية الصالحة

هيا بنا نعالج المسألة بالتحليل . فنعلم كيف تمتزج العلاقات - البهيمية والانسانية - بين الرجل والمرأة امتزاجاً معتدلا متزناً ، وأي صُور من الانحراف والشطط تعتري هذا الامتزاج فتجر على التمدن الفساد .

١

تعديل الميلان الجنسي

إن أهم وأولى ما يواجهه المرء من المسائل في هذا الصدد هو النزوع والميلان الجنسي كيف يكبح جماحه ويحد من طغيانه . وقد مر آنفاً أن هذا الميلان في الانسان أشد وأقوى منه في سائر الحيوانات ولا ينحصر الامر في أن القوى المهيجة على أشدها في داخل الجسم الانساني فحسب ، بل الامر أن قد نُشر في خارجه أيضاً ، من كل جانب من هذا العالم الواسع ما لا يُعد من المحركات الجنسية . وهذه الغريزة التي قد أعدّت لها الفطرة نفسها كل تلك الأسباب ، لو أن الانسان يأتي ويهيىء الأسباب

لتقويتها وإنمائها بإعمال فكره وقوة اختراعه ، ويختار لنفسه نوعاً من التمدن ، يزداد فيه هيامه الجنسي ويشتد مع الايام ، ثم تتيسر له فيه فرص إروائه وتسكينه ، فإن هذه الغريزة لا جرم أن تفحش وتتخطى حدود الاعتدال، ويغلب العنصرُ الحيواني في الانسان عنصرَه الانساني كل الغلبة ، وتأكل هذه البهيمة الجامحة انسانيته وتمدنه معاً .

إن العلاقة الجنسية وما يتقدمها من المبادىء والحوافز ، كل واحد منها قد جعلته الفطرة لذيذاً ممتعاً ولكنها لم تجعل هذه اللذة فيه - كما سبق أن أشرنا إليه - إلا لتحقيق مقصدها وهو إنشاء التمدن . أما شغف الانسان بهذه اللذة متجاوزاً حدّ القصد ، وانهماكه في طلبها دون سائر الامور ، فقد يجرّ وهو فعلاً ما زال ولا يزال يجرّ الخرابَ والدمار ، لا على التمدن وحده ، بل على النوع الانساني أجمع . فانظرُ في أخبار الأمم البائدة وآثارها ، تجد أن غريزة الشهوة كانت فاحشةً فيهم ومتغلبة عليهم . فهذه آدابهم تراها مملوءةً بالمواضيع الجنسية المهيجة ، وهذه أخيلتهم وأفكارهم وقصصهم وأشعارهم وصورهم وتماثيلهم ومعابدهم وقصورهم - كلها ناطقة بطغيان شهواتهم . وانظرُ كذلك في أحوال الامم التي هي سائرة اليوم في سبيل الخراب تجد القصد هو القصد والطريق هو الطريق ومهما حاول هؤلاء أن يخفوا شهواتهم المفرطة باسم الفن والادب اللطيف وتذوّق الجمال وما شاكله من الاسماء الجذّابة ، فان الحقيقة لا تتبدل بتبدُّل السِمَة والعنوان . أرأيت ما هذا الذي قد جعل المرأة في المجتمع الحديث أرغبَ في صحبة الرجال منها في صحبة النساء ؟ وجعل الرجل

أحرصَ على عشرة النساء منه على عشرة الرجال ؟ وما السبب في زيادة حبّ الزينة والتجمّل في الصنفين مع الايام ؟ ولماذا تكاد المرأة تتجرد من ملابسها في هذا المجتمع المختلط؟وما الذي يحملها تكشف عن عورات جسمها وتعرضها على الانظار عورةً بعد عورة ، والرجال ينادون : هل من مزيد ؟ وما العلة في أن الصُورَ الفاحشة والتماثيل المجردة والرقص العريان هي أحبّ الاشياء إلى الناس ولماذا لا تجد النفوس لذّة في الأفلام السينمائية ما لم تمازجها أحاديث الحبّ والغرام ، وما لم يُضَف إليها كثير من مقدمات العلاقة الجنسية من القول الفاحش والعمل المهيّج ؟ أرأيت ما هذه كلها وما شاكلها من المظاهر الكثيرة الأخرى ؟ وهل تنمّ هذه كلها على شيء غير طغيان الغريزة في الأناثي والذكور ؟ وهل يكون مصير التمدّن الذي تقوم فيه هذه البيئة المفرطة في الشهوات غير الهلكة والثبور ؟

الحق أن مثل هذه البيئة بما تمتاز به من شدة الميلان الجنسي والتهيج الدائم والتحريك المستمر ، لا بدّ أن يضعفَ فيها النسل ، ويفسد نموّ القوى البدنية والعقلية ، وتتوزّع الافكار وتتشرد الاذهان ، (١)

---

(١) مما كتبه بعض الأطباء : إن زمن البلوغ يدخل على الانسان بكثير من التغيرات الهامة . فتعتري أفعال نفسه وجسده المختلفة خلاله حالة انقلابية ، وتحصل فيه النشأة والنمو من جميع الوجوه. ولاحتمال تلك التغيرات الواقعة في جسده ، وقبول تلك النشأة والنمو ، يحتاج المرء في هذه الآونة إلى استيعاب كل قوته . ومن هذا تنقص فيه المكافحة الأمراض. وهذا العمل الطويل-من النمو العام ونشأة الاعضاء=

وتكثرَ الفواحش وتعمّ الامراض السرّية ، وتقوم الحركات المختلفة لمنع الحمل وإسقاطه، وقتل الاولاد. ويسود الرجال والنساء يخالط بعضهم بعضاً كالبهائم ، بل يستعملوا الميلان الجنسي الذي قد جعلت الفطرةُ حظّهم منه أكثر من سائر الحيوان ، فيما يناقض مقاصد الفطرة وينافيها ويبذّوا في بهيميتهم كل أنواع الحيوان حتى القردة والماعز،وهذه البهيمية الشديدة الطاغية لا جرم أن تهدم التمدّن والحضارة، بل تهدم الانسانية نفسها ، ومن استرسل فيها من الناس حري بأن يتعثر بهم الانحطاط الخلقي في حضيض من الذلّة ، لا ينهضون منه أبدَ الدهر .

ومثل هذا المصير لابدّ أن يلقاه التمدّن الذي يختار جانب التفريط فكما أن إفراط الميلان الجنسي وتجاوزه حدّ الاعتدال ضارّ ، كذلك

= وحدوث التغير في الجسم وفي النفس – الذي ينتقل بالانسان من طور الصبا إلى طور الرجولة ، عمل متعب شاق ، تكون طبيعة المرء في اثنائه في كد وكدح ، فلا يجوز أن يحمل عليها في تلك الحالة حمل باهظ ، ولا سيما العمل الجنسي والهيجان الشهواني اللذان هما يضران بها أبلغ الضرر .

ويكتب عالم ألماني شهير في علوم النفس والعمران: إن الاعضاء الجنسية لكونها تحت تأثير هيجان غير عادي (Sensation) لحاسة اللذة والشبق في الانسان ، تكون مستعدة أبداً لاجتذاب جانب كبير من قواه الذهنية إلى نفسها أو قل لغصبها والاستبداد بها . فهي إن قويت في المرء وغلبت عليه ، تشغله بالمتع واللذات الفردية بدلاً من خدمة التمدن .

وهـذه المنزلة الخطيرة لتلك الاعضاء في جسم الانسان يمكنها أن تنحرف بحياته الجنسية ، كلما غفل ، عن جادة القصد والاعتـدال وتبدل نفعها له ضررا فيجب لذلك أن يكون أهم غايات التعليم أن يوصد باب هذا الخطر العظيم .

كبته وتذليله فوق الحد المعقول ضار . وإن النظام التمدني الذي يدعو الانسان إلى العزوبة الدائمة والرهبنة وإماتة الشهوة بالرياضات والمشاق، فإنه يحارب الفطرة، والفطرة لا تُغلب بل تَغلب، وتجحف بمن عارضها. أما تصور الرهبنة الخالصة ، فمن البديهي أنه لا يمكن أن يكون اساساً لتمدُّنٍ بشري ، لأنه في الحقيقة مناف للتمدن والحضارة . ولا ريب أنه يمكن بإثبات تلك التصورات الرهبنيـة في النفوس أن تُنشأ في المجتمع بيئة خلوٌ من مؤثرات الشهوة ؛ تجعل العلاقة الجنسية فيها شيئاً محتقراً مستشنعاً في ذاته ، ويقرر اجتنابها معياراً للفضيلة ، ويحاول بكل الوسائل الممكنة أن يكبت هذا الميلان في نفس الانسان. ولكن الحق أن انكبات هذا الميلان الجنسي في الانسان معناه انكبات الانسانية فيه حقاً ؛ لأن هذا الميلان لن يهن ولن يتراجع وحده ، بل سيراجع معه ذكاء الانسان وقوّته العلمية وموهبته العقلية وعزيمتـه وجرأته وهمته وشجاعته ، وبوَهن هذا الميدان ستتراخى في الانسان جميع قواه ومقدراته ، ويبرد فيه الدم ويجمد، ولن يعود أهلاً للترقّي والنهوض . وذلك لأن أكبر القوى المحرّكة في الانسان هي هذه القوة الجنسية بلا نزاع .

فمن أول واجبات التمدن الصالح الرجوع بهذا الميلان الجنسي من مَضلّتي الافراط والتفريط إلى جادة القصد والاعتدال، وضبْطه بما ينبغي من ضابطٍ . ويجب لهذا الغرض أن يُدبَّر للحياة الاجتماعية نظام يمنع - بجانبٍ - كل ما يخترعه الانسان بإرادته وباتّباعه الشهوات من أسباب

التهييج والتحريك المتجاوز حدّ الاعتدال (Abnormal) ، ويضع بجانب آخر طريقاً لإرواء غليل الشهوات الفطرية المعتدلة (Normal) يوافق مقاصد الفطرة نفسها .

٢

تشكيل الاسرة

وبالطبع ينبعث هنا في ذهن الباحث السؤال عن مقصود الفطرة ومطلوبها ، ماذا هو ؟ وأنّى نجده ؟ وهل قد خلّي لنا في الامر ، وتُركنا نخبط في الظلام لنضع أيدينا على ما نشاء ، فنقرّر أنه مقصودَ الفطرة ؟ أم نحن لا نُدرك هذا المقصود إلا بالتأمّل في نواميسها ؟ ولعل أكثر الناس يقولون بالاولى ، فيُطلقون على كل ما تهوى أنفسهم حكم مقصود الفطرة ، بدون أن ينظروا في نواميسها ولكنه إذا خرج باحث يلتمس وجه الحقيقة فإنه لا يخطو في سبيله خطوات ، حتى يُخيّل اليه أن الفطرة نفسها تدله وتُشير له إلى غايتها ومقصودها .

فما هو بديهي معلوم أن مقصود الفطرة الرئيسي من خلق الانسان أزواجاً كجميع الانواع الحيوانية ، ومن وضْعها الجاذبيّة الجنسية فيها ، هو بقاء النوع . ولكن الفطرة لا تطالب الانسان بهذا وحده ، بل هي تطلب منه وراء ذلك أموراً ، نستطيع بقليل من التأمّل أن نعرف ماهي تلك المطالب ، ومن أي نوع هي ؟

إن أول مايُلتفت إليه بهذاالصدد،هو كون الطفل الانساني يختلف عن أولاد سائر الحيوان ، من حيثُ اقتضاؤه وقتاً أكثر وعنايةً أبلغَ وعملاً أتعب ، لاجل رعايته وتربيته . وإن نحن فرضناه وجوداً حيوانياً محضاً ، فإنا نجد حتى في هـذه الصورة المفروضة أنـه يستغرق أعواما متعدّدة قبل أن يستطيع القيام بقضاء حوائجه الحيوانية ، كالتماس قُوته والمدافعـة عن نفسه ، ويكون الضعف والعجز في السنتين أو السنوات الثلاث الاولى من عمره بحيث لايمكنه حتى أن يحيا ويعيش بدون عنايةٍ مطـّردة من أمه .

ولكن الظاهر أن الانسان،مهما كان ممعناً في توحـّشه ، ليس بالحيوان فحسبُ ، بل لابدّ لحياته من مدنيّةٍمن أيّة درجةٍ كانت . وهذه المدنية تُضيف إلى واجبهالفطري من تربية الاولاد ، واجبَين آخرَين : أولهما أن يستخدم لتربية ولده كل مايتيسّر له من وسائل التمدن . والثاني أن يربيه تربيةً تؤهلهلتدبير شؤون التمدن في المحيط المدني الذي وُلد فيه، ولأن يقوم مقام العاملين السابقين فيه .

ثم إنه كلما كان التمدن أعلى درجةً وأزهى رقيّاً ، كان هذان الواجبان أثقل عبئاً وأفدح خطباً ، فبجانب تكثرالوسائل اللازمة لتربية الاولاد على مضيّ الايام . وبجانب آخر لايكتفي التمدن بطلب العاملين ذوي الثقافة العالية لقيامه وبقائه ، بل هو يقتضي لأجل نموّه وارتقائه أن يكون كل جيل لاحق أعلى رتبةً وأكمل أداةً من الجيل السابق ،

وبعبارة أخرى يطلب من كل مربٍّ أن يربّي ولده تربيةً أحسن من تربيته وينشّئه على مستوى أعلى من مستواه . وناهيك بهذا الايثار العظيم الذي يستنزل المرء حتى عن عاطفة حبه لذاته !.

هذه هي مطالب الفطرة الانسانية . وأول من تُوجه اليه هذه المطالب هي المرأة . وذلك أن الرجل قد يكون منه أن يتصّل بالمرأة ساعة من الزمن ، ثم يبتعد عنها وعن تبعة ذلك الاتّصال . ولكن المرأة لا تستطيع أن تُفلت من نتيجة اتصالها بذلك الرجل عدةً من السنين ، بل مدة العمر غالباً . فإنها إن حملت ، لا تفارقها نتيجة ذاك الاتصال بحال من الاحوال مدّة خمس سنوات على الاقلّ . ثم إن أرادت المرأة أن تقوم بجميع مقتضيات التمدن ، فمعناه أن تظلّ المسكينة التي ذاقتْ عُسَيلةَ الرجل ساعةً من الزمان ، مثقلاً كاهلها بتبعات الفعل مدة خمسة عشر عاما علاوةً ، فتتساءل النفس في هذا المقام : كيف يكون لأحد الفريقين أن يستعدّ لقبول تبعة الفعل الذي قد اشتركا فيه جميعاً . وأنّى المرأة أن ترضى النهوض بهذا الامر الفادح مالم تتخلّص من خشية الغدر من قبل شريكها في ذاك الفعل ، وما لم تطمئنّ نفساً من جهة تربية أولادها، ثم مالم تُعفَ عن العمل لكسب حوائج حياتها إلى حدّ كبير . فالحمل لامرأةٍ لا قيّم لها من الرجال خَطب جلَل ونكبة عظيمة ، بل هو آفة الآفات من الطبيعي أن تبغي نفسها التخلص منها . وأنّى يكون لها لعمر الله أن ترحب بها وتهش اليها ؟!.

لذلك إن وجب بقاء النوع وقيام التمدن فواجب لامحالة على الرجل الذي يُلقح امرأةً من النساء، أن يُشاركها أيضاً في القيام بتبعات الامر. ولكن ما السبيل لاقناعه بقبول هذه الشركة وهو قد فُطر على الاثرة وحب مصلحة الذات . أما الواجب الطبيعي من ابقاء النوع ، فقد فرغ من نصيب عمله منه ساعةَ ألقح المرأة . فيلازم الحملُ بعد ذلك المرأة وحدها ، ولا يكون له شأن مع الرجل . ثم إن الرجل لاتدفعه النزعة الجنسية أيضاً إلى أن يباشر تلك المرأة نفسها . فإنه إن شاء هجرها إلى الثانية ، وهجر الثانية إلى الثالثة ، ومضى هكذا ينثر بذره هنا وههنا لذلك فلو ترك الأمر إلى رضاه ، فلا مُسوغ لان يرضى القيام بهذا العبء بطيبة نفسه. فماذا عساه ـ ياترى ـ يحمله على أن يُنفق ثمرات جهوده على هذه المرأة والولد ؟ ولماذا يُقيم على حبّ هذه الحُبْلى البطينة ، ولا يفارقها إلى غادة خُمْصانة ؟ ولماذا يُربي مضغة لحم نكد على نفقته ؟ ولماذا يحْرم نفسه النومة الهادئة بصياح الخبيث وصراخه ؟ ويترك هـــذا الشيطان الصغير يحبو في بيته ويعبث بكل ماتقع عليه يده ، فيُسبب له الخسائر ، ثم يبثّ في أطرافه القذر ولا ينجح فيه نهيٌ أو زجر ؟!

إن الفطرة نفسها قدعالجت هذه المسألة إلى حدّ ما، فخلقت في **المرأة** ميزةَ الجمال والصباحة ،وصفة الإمتاع والتسلية ، وملكة الايثار والتضحية في سبيل الحُبّ ، لكي تنتصر بهذه الاسلحة على الفردية الأنانية في الرجل وتصبي فؤاده وتمتلك عليه لُبّه . وقدجعلت في **الولد** أيضاً قوة عجيبة للتسخير، لكي يَسبي أبويه في حُبه على رغم حماقاته المسخطة ، المُوجبة

الخسائر . ولكن ليست هذه كلها من الامور التي تكفي وحدها في أن تدفع قوتها الانسان إلى احتمال الخسارة والاذى والتضحية عمراً من السنين ، لاجل القيام بواجباته الخلقية الفطرية التمدنية . فإن الانسان لاشك يلازمه أيضاً عدوه الازلي ، الشيطان ، الذي لايزال يتحين الفرصة كل حين ليعدل به عن جادة الفطرة ، والذي لاتزال جعبة كيده مملوءة بفنون من الأدلة والتسويلات لاستغواء بني آدم من كل جيل ، وفي كل زمان .

إنه من معجزات الدين حقا أنه يحض الانسان ـ بصنفيه ـ على التضحية والبذل لاجل مصالح النوع والتمدن ويحول هذا الحيوان الاناني إلى إنسان ، ثم يحفزه على الايثار . وان الانبياء والمرسلون هم الذين فهموا مقاصد الفطرة فهماصائباً،فقرروا الصورة الصحيحة للتعلق الجنسي بين الرجل والمرأة وتعاونهما في شؤون التمدن ، وهي النكاح . وهم الذين جرت على أيديهم سنة النكاح في كل أمة ، وفي كل ربع من ربوع الارض . وما هو إلا بفضل المبادىء الخلقية التي نشرها أولئك الرسل ان تمكن الانسان من الاستعداد الروحي الذي يقويه على احتمال متاعب هذه الحياة وخسائرها .والا فمن ذا ترونه احق بأن يكون عدواً للطفل من والديه ؟ وعلى قواعد الاجتماع التي وضعوها تأسس النظام العائلي الذي يرغم سلطانه القوي الفتية والفتيات على التزام هذه الرابطة القائمة على المسئولية وهذا الاشتراك العملي في شؤون الحياة . والا فإن مطالب شبابهم البهيمية تكون بالغة من الشدة ان لا يكاد يمنعهم الشعور

بالنيمة الخلقية وحده ـ بغير التأديب الخارجي ـ من الانطلاق مع شهواتهم بدون قيد . ان غريزة الشهوات في نفسها حرب على الجماعية (Anti Social)؛ وهي نزّاعة إلى الاثرة والفردية والفوضى ، وليس لها ثبات أو قرار ، ولا فيها شعور بالمسئولية وهي لاتحرّك المرء إلا للتمتّع باللذة العارضة ، وليس من اليسير الهيّن تسخير هذا العفريت لخدمة مصالح الحياة الاجتماعية هذه الحياة التي تتطلب الصبر والثبات والجهد والبذل والشعور بالمسئولية والكدح المستمر . فليس غير قانون النكاح وغير نظام الاسرة يُذلل هذا العفريت وينتزع منه مصادر الخبث والفوضى والانتشار ، ويجعله أداةً لتعاون الرجل والمرأة واشتراكهما العملي الدائم الذي لا بدّ منه لتعمير الحياة الاجتماعية . فإن ينعدم هذا القانون، وهذا النظام العائلي ، تتلاشَ حياة الإنسان المدنية ويصبح الاناسي يعيشون عيشة الانعام ، حتى يمّحي نوعهم عن صفحة هذا الوجود .

فالطريق الذي تريد الفطرة نفسها أن يُفتح لقاءَ مطالب الانسان الفطرية ، بعد منع الميلان الجنسي فيه من الفوضى والانحراف ، ماهو إلا أن يكون بين الرجل والمرأة اتصال أبدي بصورة النكاح ، ويكون هذا الاتصال بينهما أساساً للنظام العائلي . وهذا النظام العائلي هو الذي يهيئ للتمدّن كل مايحتاج إليه من الآلات المستّيرة لنظامه الواسع . فما يبلغ الفتية والفتيات في الوسط العائلي سنّ البلوغ حتىّ يهتم رؤساء الاسرة بأن يلتمسوا لهم أزواجا يوافقونهم أكثرَ حتى ينتجوا بتواصلهم نسلا أعلى وأجود . ثم متى أنسلوا نسلا يجتهد كل عضو من اعضاء هذا النظام العائلي

برغبة قلبية صادقة أن يربّيه أحسن التربية فيجد الطفل في محيط العائلة ، مذ يفتح عينيه في هذه الدنيا ، بيئة من الحنوّ والعطف والرعاية والتعهد والتربية ، تكون لنموه ونشأته كالماء الفـُرات لبارض النبات. والحق ان محيط العائلة هو الذي يمكن أن يجد فيه الطفل نفوساً تحبه وتعطف عليه بل من يودّون من صميم قلوبهم أن يبلغ الطفل في حياته مكانـة اجتماعية أعلى من التي ولد عليها وانها الابوان اللذان يحبان ان يجدا الاولاد في حال احسن من حالها وعلى مكانة أرقى من مكانتها ، فيجتهدان من انفسهما - بدون شعور أو ارادة - ان يجعلا الجيل اللاحق أحسن من السابق ، ويمهدان بذلك سبيل الارتقاء الانساني. وهذا الجهد والسعي منهما لا تشوبه شائبة من الاثرة . فإنهما لا يريدان شيئاً لانفسهما وإنما يريدان فلاح ولدهما ويعتبران نشأته انسانا ناجحاً جيد التربية جزاء وافياً لمساعيهما وجهودهما. وأنّى يمكنك أن تجد في غير النظام العائلي أمثال هؤلاء العاملين المخلصين (Labourers) والخادمين الاوفياء (Workers) الذين لا يكفيهم أن يعملوا لمصلحة النوع الانساني بدون أجر ، بل يبذلون لهذه الخدمة كل ما يملكون من الوقت والراحة والقوة والكفاءة وذات اليـد . ويضحون بأنفس مايملكون في سبيل الامر الذي لا تنال ثمرانه إياهم ، بل ينتفـع بها غيرهم ، ويكتفون من الجزاء لجهوداتهم بأنهم قد هيؤوا لغيرهم عاملين وخادمين من النمط الحسن : **أفتجد نظاماً أطهر وأرقى في الانسانية من هذا النظام العائلي .**

هذا ويحتاج النوع الانساني لبقائه ، والتمدن الانساني لاطراده وارتقائه كل سنة إلى ملايين من الازواج يتقدمون للقيام بهذه الخدمة وتبعاتها راضين مختارين . فيتعاقدون بينهم النكاح ويؤسسون المزيد من الاسر . وهذا العمل التمدني العظيم الذي هو جار امامك في هذه الدنيا ما كان ليجري ويرتقي مالم يظل أمثال أولئك العاملين المتطوعين يتقدمون دائماً لهذه الخدمة ، ويهيئون الايدي العاملة لهذا العمل . وإن انقطعت سلسلة هذا التطوع ، وغدا العاملون السابقون يتنحون عن العمل بفعل الاسباب الطبيعية ، فلا جرم ان ينقص عدد العمال مع الايام . ويأتي على الوجود حين من الدهر تعود قيثارته بلا أوتار تنغم . فكل من يعمل لتسيير هذا العمل التمدني، فليس واجبه أن يسيّره في حياته هو وكفى، بل يجب عليه كذلك ان يعنى بإعداد امثاله من العاملين الذين يقومون مقامه من بعده .

وإن أنت تدبرت الأمر من هذه الوجهة ، وجدت أن أمر النكاح لا ينحصر في أنه الصورة الشرعية الوحيدة لارواء الغليل الجنسي ، بل هو في الواقع فريضة جماعية ، وحق فطري للجماعة على الفرد وما كان الفرد ليجعل اليه الفصل في أن يعقد عقدة النكاح او لا يعقد، وان الذين يأبون عقد النكاح بدون عذر معقول هم في الحقيقة حيلة" على المجتمع، طفيليون (Parasites) بل هم غدرة متلصصون . ذلك انه مامن نفس انساني وُلد على هذه الارض إلا وقد استفاد ، من لدن بدء حياته إلى سن شبابه ، من الثروة العريضة الواسعة التي هيأتها له الأجيال السالفة ، ماشاء الله ان

يستفيد ، ولم يتمكن من بقائه ونموه ونشأته في الصفات الانسانيـة إلا بفضل النظم والمؤسسات التي اقاموها . فبقي في اثناء هذا كلـه يأخذ ويستمد ولا يُعطي ولا يُمدّ وأنفقت الجماعة قوّتها وثروتها لتكميل قواه الناقصة رجاءَ أن يكافئهـا يوم يقدر على المكافأة . فهو الآن ، وقد اشتد ساعده ، إن كان يطالب لنفسه الحرية الذاتية والاستقلال ، ويقول : اني لستُ فاعلا شيئاً الا أن أقضي شهواتي فحسبُ ، ولن أقوم بما يتبع هـذه الشهوات من التبعات والواجبات ، فإنه لاشك غادر بالجماعة خداع لها ، وكل لحظة من لحظات حياته بين الجماعة ظلم وعدوان . ولو أن للجماعة حظاً من الشعور لحكمت عليه حكم السرَقة واللصوص وأهل الغش والتزوير بدل ان تكرمه وتدعوه سيداً او آنسة أو أستاذاً محترما . اننا لاشك قد توارثنا كل الثروة والذخيرة التي قد تركتها الاجيال السالفة ـ اردنا ذلك أم لم نُرده ـ فكيف يجوز لنا الآن أن تكون لنا الحرية كل الحرية في امر القانون الفطري الذي قد وافانا هذا الميراث بموجبه فنكون مختارين في أن نحقق مقصود ذلك القانون ، أو لانحقق ، وأن نُعدّ الجيل الذي يرث هذه الثروة والذخيرة التي خلّفها النوع الانساني أو لانُعدّ ، وأن نربي نفوساً آخرين ـ كما رُبّينا نحن ـ لتمهد تلك الثروه والقيام عليها أو لانفعل !

٣

سد باب الاباحية الجنسية

وبجانب النـكاح وتشكيل العائلة ، يجب أيضاً ان يُسد باب قضاء

الشهوات الجنسية خارج حصن النكاح سداً محكماً، لأنه لا يمكن أن يتحقق بدونه مقصد الفطرة الذي تستلزم لأجله النكاح وتشكيل العائلة .

وأكثر الناس في هذه الجاهلية الجديدة أيضاً ، كأهل الجاهلية القديمة ، يعدّون الزنى فعلا طبيعياً ، ويعتبرون النكاح من مخترعات التمدن أو من حشوه وزوائده . فمن رأيهم أن الفطرة كما خلقت كلّ نعجة لكل كبش ، وكل كلبة لكل كلب ، كذلك قد خلقت كل امرأة لكل رجل في هذا العالم . وما الطريق الفطري إلاّ أن يقع الاتصال الجنسي بين كل فردين من الجنسين ، كلما اشتهياه وتمكنا منه وتراضيا عليه ، شأن اثنين من الحيوان . ولكن الحقيقة أنهم يخطئون خطأ بيّناً في التعبير عن الفطرة الانسانية . وذلك أنهم قد زعموا الانسان حيوانا محضاً . فكلما ذكروا الفطرة والطبع أرادوا بها فطرته الحيوانية لا فطرته الانسانية. والعلاقة الجنسية المُطلقة التي يعبرون عنها بالفعل الطبيعي لاشك أنها طبيعية بالنسبة للحيوان ، ولكنها ليست من الفطرة في شيء الانسان . إنها لا تخالف فطرته الانسانية وحدها ، بل تخالف ، من حيث نتائجها ، فطرته الحيوانية أيضاً وذلك أن الانسانية والحيوانية ليستا شيئين متباينين في الانسان بل هما يمتزجان في وجود واحد ، ويؤلفان بمزيجها فيه شخصية واحدة ، وترتبط مقتضياتها في تلك الشخصية بعضها ببعض ارتباطاً يجعل الإعراض عن مقصد إحداهما إخلالاً بمقصد الأخرى بالتبع .

ويرى المرءُ الزنى في ظاهر أمره يقضي حاجة الفطرة الحيوانية على

الاقل ، لان غاية التناسل وبقاء النوع تتحقق بمجرد الوظيفة الجنسية سواء أحصلت داخل حظيرة النكاح أو خارجها ولكنك إن ترجع البصر إلى ماذكرناه آنفاً ، يتبين لك أن هذه الفعلة ضررها بمقتضى الفطرة الحيوانية في المرء كضررها بمقتضى الفطرة الانسانية فيه . ذلك بأن فطرته الانسانية تقتضي أن يكون لعلاقته الجنسية ثبات ودوام ، حتى يشترك الأبوان في تربية الطفل ، ويقوم الوالد بكفالة الولد وأمه ، مدّة من الزمان . ولكن المرء إن لم يكن على ثقة من كون الولد من صلبه هو لم يرضَ أبداً أن يتكلف في تربيته الجهد والايثار ولا رضي للولد أن يرث تركته . وكذلك إن المرأة إن لم تكن على يقين من أن الرجل الذي يلقحها ، مستعدّ لكفالتها وكفالة ولدها ، لم ترض أبداً أن تعاني متاعب الحمل . ثم إن لم يتعاون الأبوان على تنشئة الولد ، لم يمكنه أن يبلغ في تعليمه وتربيته ومكانته الخلقية والعقلية والاقتصادية مبلغاً يجعله عاملاً مفيداً للتمدن الإنساني . كل هذه مقتضيات الفطرة الانسانية في ابن آدم . فإذا أهملها الرجل والمرأة وجاءا يتعلقان بعلاقة جنسية عارضة ، كأنواع الحيوان فإنهما لا ريب يُهملان مقتضى الفطرة الحيوانية أيضاً ـ وهو التوليد والتناسل. لأنهما حين يتصلان لا يقصدان ـ وما كانا ليقصدا ـ التوليدَ والتناسلَ ، بل تكون غايتهما من العلاقة الجنسية إذ ذاك مجرّد التلذّذ والتمتع وإرواء غليل الشهوات ، مما هو مخالف لمقصود الفطرة أصلا .

ويستضعف أصحاب الجاهلية الجديدة أنفسهم هذه الناحية من العلاقة الجنسية المطلقة، فتراهم يُضيفون إلى حججهم لتبريرها حجّة أخرى بقولهم: لو

أن اثنين من أفراد الجماعة يقضيان بعض ساعاتهما في المتعة والسلوة ، فأيّ خير في ذلك على المجتمع حتى يتدخل فيما بينهما ؟ إن المجتمع لاريب يجوز له التدخل في أمرهما إن كان فيه إكراه من جانب الآخر ، أو قصد أحدهما فيه إلى الخديعة ، أو سبّب قضية تمسّ مصلحة الجماعة . ولكنه إن لم يكن هناك شيء من ذلك ، وانحصر الأمر بين شخصين في تمتع أحدهما بالآخر ، فأي مبرّر للمجتمع حتى يحول بينهما ؟ وإن جاز التدخل في مثل هذه الشؤون الذاتية للناس ، فما الذي يبقى إذاً من معاني الحرية الشخصية.

هذا التصوّر للحرية الشخصية من جهالات القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، التي ينقشع ظلامها مع أول إشعاعة من نور العلم والتحقيق . فبقليل من التأمل والتفكير قـــد يفهم المرء أن الحرية التي يطلبونها للأفراد ، لامساغ لها في الحياة الجماعية . ومن شاء ذلك النوع من الحرية ، فليقصد الغابات ورؤوس الجبال وليعش هناك عيش أوابد الحيوان . فإن الاجتماع الانساني عبارة عن نسيج من العلائق والروابط ، قد اشتبكت فيه حياة كل فرد واحد بأفراد آخرين لا يُحصون ، فتتأثر بهم وتؤثر فيهم . ومع مثل هذه الصلات الشابكة بين مختلف الافراد ، لا يمكن أن يُعد أي فعل من أفعال الانسان فعلا شخصياً وفردياً محضاً ولا يكاد يتصور عمل شخصي لا تعود آثاره في جملتها إلى الجماعة ، بل ليس من خاطر يخطر ببالنا ـ دع عنك أفعال الاعضاء والجوارح ـ إلا يؤثر في أنفسنا ، وينعكس منها إلى غيرنا فيؤثر فيهم . وكذلك ليست حركة من حركات اجسامنا وقلوبنا إلا وتنتقل منا نتائجها ، وتمتد إلى حيث لا يبلغ علمنا . وإذا كان الامر

كذلك ، فكيف يجوز القول بأن استعمال أحد من الافراد قوته لا يؤثر إلا في نفسه ، ولا يتعلق في شيء بغيره ، ولذلك ينبغي أن يكون حراً في أمره . وإن كان أحد لا يؤذن له في أن يأخذ بيده عصاه ويمشي في السوق يديرها كيف يشاء ، أو يحرك قدميه ويلج على الناس المنازل والبيوت على هواه ، ويسوق سيارته في الزحام بغير حيطة أو حذر ، أو يجمع في بيته كل ماشاء من وسخ أو قذر نقول إن كانت هذه وأمثالها من تصرفات المرء الشخصية مما يجب أن يقيد بالضوابط الاجتماعية ، فما بال قوته الجنسية وحدها أن تشرف بالاطلاق من كل قيد أو ضابط اجتماعي ، فيُباح للرجل أن يستعملها كيف يُريد .

أما القول بأن اللذة التي يتمتع بها الرجل والمرأة في مكان متوارٍ عن الانظار ، لا يكون لها من تأثير في الحياة الاجتماعية ، فمن جهل الاحداث الاغرار . الحق أن أثرها لا ينحصر في المجتمع الذي ينتميان اليه فحسب ، بل يجاوزه إلى الانسانية جمعاء ، ولا تقتصر آثارها السيئة على الجيل الحاضر وحده ، بل تتعداه إلى الاجيال القادمة . فإن الرابطة الاجتماعية والعمرانية التي قد ارتبطت فيها الانسانية برمتها ، لا يشذ عنها أي فرد من الافراد ، وفي أي حالٍ كان ، وفي أي خِدْرٍ احتجب . إنه يكون مرتبطاً بحياة الجماعة وهو من وراء الجُدر وداخلَ الابواب المغلقة ، كما يكون مرتبطاً في زحمة السوق وفي حفل المَجْمع . إنه وقتَ مايكون مشتغلاً في خلوته بتضييع قوة توليده في لذةٍ عارضة عقيم ، يكون في الحق عاملاً لاشاعة الفوضى في الحياة الاجتماعية ولتضييع حق النوع

الانساني وإيراث الجماعة مالا يُحصى من المضارّ المادية والتمدنية. وإنه لأثَرته وأنانيّته هذه يفت في ساعد جميع النظُم والمؤسسات التي قد انتفع بها من حيثُ هو فرد من أفراد الجماعة، ولكن أبى أن يقوم بنصيبه من العمل لقيامها وبقائها. إن الجماعة قد أقامت جميع المؤسّسات من البلدية إلى الدولة ومن المدرسة إلى الجندية، ومن المصانع إلى مجالس التحقيق العلمي، معتمدةً على أن كل من يتمتّع بها من أفرادها سيؤدّي نصيبه المفروض في إحكامها وترقيتها. ولكنه لما جاء هذا الخائن الغدّار يستعمل قوته الجنسية بحيثُ لم يقصد بها القيام بواجبات التوليد والتناسل وتربية الاولاد، فكأنه قَطع – على حدّ ما نواه – دابرَ ذلك النظام بضربة واحدة وفسخ ذلك العقد الاجتماعي الذي كان مشتركا فيه باعتبار إنسانيته عينها، وحاول بذلك أن يلقي عبأه على غيره بدلَ أن ينهض به بنفسه. فلم يكن إذاً من كرام الناس، بل هو خائنٌ متلصّصٌ نَهّابٌ، والتسامح في أمره ظلم للانسانية جمعاء.

إنّ مكانة الفرد في المجتمع، إن فهمتَ حقيقتها حق الفهم، لم تشكّ في أن كل قوة من القُوى، أودعَتْها أجسامنا ونفوسنا، ليست لانفسنا وحدنا، بل هي وديعة للانسانية جمعاء عندنا. ونحن مسئولون في هذه بين يديها. فنحن حين نُهلك نفوسنا أو نضيّع قوة من قوانا، أو نضرّ بأنفسنا من سيّئات أعمالنا، لا يكون فعلنا هذا فعلَ من أضاع أمراً كان علكه، أو أضرّ بشيء كان له التصرُّف فيه، بل يكون ذلك منا بمثابة خيانة في ما ائتُمنّا عليه للعالم الانساني أجمع، وإضرار بالنوع الانساني

برمته. وذلك أن وجودنا في هذا العالم يشهد نفسه بأن غيرنا تحمّلوا أعباء التبعات والمشاق، فأخرجونا من ظلمات العدم إلى نور الوجود. ثم جاء نظام الدولة يرعانا ويصون نفوسنا من التلف، وبقيت أقسام حكومتنا الصحية تعمل لحفظ حياتنا وصحة أبداننا. ثم توفرت آلات مؤلفة من النفوس على تهيئة حاجاتنا ولوازم حياتنا، وتعاملت جميع المؤسسات الاجتماعية لتنشئ قوانا وتربي ملكاتنا، حتى جعلتنا على ما نحن عليه الآن. أفمن جزاء الحسنة بالحسنة أو من العدل والنصفة أن نعود فنضيّع تلك القوى التي قام غيرنا بكل هذه الخدمة لاجل ايجادها وإبقائها وتنشئتها وإغنائها، أو نجعلها مضرة بالانسانية بدل أن نجعلها نافعة لها؟ لاجل هذا قد حُرّم الانتحار. ولهذا السبب قال أعظم الحكماء: إن ناكح اليد ملعون. ولهذا قررت سوأة قوم لوط من أعظم الجرائم. ثم لهذه العلة لا يعتبر الزنى أيضاً متعة ومسلاة فردية، بل يعدّ ظلماً للجماعة الانسانية كلها.

وهيّا بنا الآن نتأمل: كم من مظلمة اجتماعية تمت إلى الزنا برحم ماسّة؟

١ ـ إن أول ما يجنيه الزاني من عمله هذا هو أنه يعرّض نفسه لخطر الاصابة بالامراض السرية القاتلة. وبذلك لا ينقص مما في قواه من المنفعة العامة فحسب، بل يجرّ على الجماعة والنسل أيضاً ضرراً بالغاً. وإن مرض السيلان الذي هو أول ما يبتلى به الفاجر، يقول فيه الأطباء: إن هذه القرحة في الإحليل قلّما تندمل، ولا يخلص من أذاها الانسان إلا في النادر. ومن قول طبيب نطاسي: «من أصيب بالسيلان مرة أصيب به للأبد». وهذه العاهة كثيراً ما تتلف الكبد والمثانة والخصيتين وغيرها

من الاعضاء ، وتسبب وجع المفاصل وأمراضاً أخرى، كما أنها قد تُسبِّب العُقم الأبدي . ثم إنها من الامراض السارية من نفس إلى آخر . وأما مرض الزهري فمَن منا لا يعلم أنه يسمِّم نظام الجسد كله ، ولا يبقى من قمة الرأس إلى أخمص القدم عضو من أعضاء الجسد، غيرَ متأثرٍ بسمومه وأذاه . وهذا المرض لا يُبيد قُوى المريض وحده ، بل يتعداه إلى من لا يُحصى من النفوس الأخرى بطرُق شتَّى . ثم ينتقل من المريض إلى أولاده وأولاد أولاده ، فيعانون أذاه بلا ذنب يجنُون . والاولاد الصمّ البكم العُمْي المجانين ، هم من أهون ثمرات ساعات اللذّة القلائل تلك التي عدّها الاب الظالم أعزّ ما في حياته .

٢ ـ وإذا لم يكن حتماً ابتلاء كل زانٍ بالامراض السرّية ، فمن اللازم المحتوم ابتلاؤه بالمفاسد الخلقية التي تتعلّق بهذا الاثم بالضرورة فالوقاحة والخديعة والكذب والدغل والاثرة والخضوع للشهوات وجموح النفس وتشرُّد الفكر وذوّاقيّة الطبع وتطلعه إلى كل جديد ، والغدر وقلة الوفاء كل أولئك من آثار الزنا التي تترتّب على أخلاق الزاني نفسه ومما لا شك فيه أن من يجمع في نفسه هذه الخصال ، لا تنحصر آثار مفاسده الخلقية في الشؤون الجنسية فحسبُ ، بل هو يُتحف الجماعة بهذه الخصال لا غيرُ في كل شعبة من شعب الحياة . وإن كانت هذه الخصال قد ربَتْ ونمَتْ في كثرةٍ كاثرةٍ من أفراد الجماعة، فلا جرم أن يفسد بها كلٌّ من الآداب والعلوم والفنون والملاهي والالعاب والصناعات والمهن

والاجتماع والاقتصاد ، والسياسة والقضاء ، والخدمة العسكرية وتدبير الدولة . ومن اللازم في النظام الديمقراطي خصوصاً ، أن يكون لكل صفة من صفات الافراد أثر بادٍ في حياة الامة كلها . فإذا كانت أمة من الامم لا يتّصف أفرادها بثبات في الطبع ، وكانت أكثر أجزاء تركيبها متجردة من خلال الوفاء والايثار وضبط الشهوات ، فأنّى يكون في سياستها قرار أو ثبات ؟!

٣ ـ ومما تستلزمه إباحة الزنى أن تجري في المجتمع حرفة البغاء . وذلك أن من يقول بأن لرجل شابٍّ حقّاً في أن يمتّع نفسه بلذّات الشباب فكأنه يقول مع ذلك بأن تكون في المجتمع لهذا الغرض طبقة من الاناث تكون في أسفل الذُلّ والمهانة بكل اعتبار . ولكن من أين تأتي أولئك النساء ؟ أفلا يخرجن من هذا المجتمع الذي يعيش فيه ؟ أو لا يكنَّ من بناته هو وأخواته ؟ بلى ، لابد أن تنفر من أولئك النساء اللاتي تجدر كل واحدة منهن بأن تكون ربّة بيت ومؤسّسة عائلةٍ ومربّية اولادٍ ، طائفة إلى حي البغايا ، ليكنّ كمراحيض البلدية موضع قضاء الوطر لكل خليع داعرٍ ويتجرّدْنَ من جميع الخصائص النسوية الشريفة ، ويتدرّبْن على التكسب بالغنج والدلال ، ويسفلن إلى أن يبعن محبّتهن وقلوبهن وأجسامهن ، ومحاسنهنّ ومفاتنهنّ ، لكل زائرٍ جديد في كل ساعة ، ويبقين مدّة أعمارهن أداةً لقضاء شهوات غيرهـن ، بدلَ أن يقُمن بخدمةٍ نافعةٍ مثمرةٍ للمجتمع .

٤ - وإباحة الزنى لاجرم تضرُّ بضابط النكاح التمدني ، بل يؤول بها الامر إلى أن يزول النكاحُ ويبقى الزنى وحده . وذلك أنه يعود الميّالون إلى الزنى - رجالاً ونساءً - قلّما يصلحون لان يحيوا حياة زوجية صالحة . لان هذا السلوك العملي الفاسد يبعث في نفوسهم من سُوء الدِخْلَة وفجور النظر وذوّاقيّة الطبع وتشرّد الفكر ، ويُربّي فيهم من تلوُّن العواطف وعدم ضبط الشهوات ، ماهو أقْتَلُ من السمّ لتلك الصفات التي هي ضرورية للعلاقة الزوجية الصحيحة بين الرجل والمرأة . فهؤلاء إن ارتبطوا برابطة الزواج ، فلن تتحقق بين الزوجين منهم تلك الصلة من حسن المعاملة والمحبة والوفاء والثقة والاعتماد ، والمواءمة والانسجام ، التي تُنتج نسلاً جيداً وتُنشيء بيتاً معموراً بالراحة والسعادة. ثم إن البيئة التي يكون فيها الزنى هيناً ميسوراً ، لا يمكن أن تدوم فيها طريقةُ النكاح المحببة للتمدن ، إذ ما بال الذين تتيسر لهم فرص قضاء الشهوات النفسية بدون أن يلزموا أنفسهم بتبعاتٍ ، يتحملون أعباء التبعات والواجبات بعزمهم عقدة النكاح .

٥ - وإباحة الزنى وترويجه لا يقطع دابرَ التمدن والعمران فحسبُ بل يستأصل النسل الانساني أيضاً ، فانه كما سبق أن أثبتناه ، لا يقصد أحد من الاثنين - الرجل والمرأة - بعلاقتهما الجنسية المُطلقة أن يقوم بخدمة التناسُل وبقاء النوع .

٦ - ثم إن الزنى إن حصل منه للنوع الإنساني والمجتمع أولادٌ ، فكلهم أولاد النغول . وليس من الصحيح ما يظنّه بعضُ السفهاء من أنَّ

مراعاة الحلة والحرمة في الانساب إنما تصدر عن مجرّد العاطفة . بل الحق ان توليد ولدٍ عن زنيةٍ عدوان عظيم على الولد نفسه وعلى التمدن الإنساني بأسره من وجوه عدّة . أولها ، أنه ينعقد حمل هذا الولد في رَحِم أمه ساعةَ يكون أبواه كلاهما تحت غلبة العواطف البهيمية الخالصة وإن العواطف الانسانية الطاهرة التي تغمر الزوجين المتناكحين وقت اتصالهما الجنسي ، لا يمكن أن تخالط أبداً هذين الفاجرين المتسافحين ، لأنهما لا يصل أحدَهما بالآخر إلا هيجان البهيمية المحضة في نفوسهما ، وتكون جميع الخصال الانسانية معطلةً فيهما وقتئذٍ . ومن هذا لا يرث ولدُ الزنية عن أبويه إلا خصائص الطبع البهيمي . ثم إن الولد الذي لا يأتي أبويه كشيء مطلوب محبوب ، بل ينزل بينهما نزول النكبة المفاجئة ، والذي يفقد في أغلب الأحوال عطفَ الابوّة ووسائلها ، ولا تتيسر له إلا تربية الأم الناقصة التي لا تكمّلها تربية الاب ، وهذه التربية أيضاً ربما يخالطها الضجر والإعراض ؛ والذي لا يتمتع برعاية الاجداد والجدّات والاخوال والاعمام ومن يليهم من ذوي القربى ، لاجرم أن ينشأ إنساناً ناقصاً غير تامّ الانسانية ، فلا تتكون له سيرة صحيحة ، ولا تتجلى فيه كفاءات موهوبة ، ولا تتوفر له وسائل التقدم والاجادة العملية ، فيكون في حد ذاته ناقصَ الانسانية ، عادم الوسيلة ، فاقـــد الحامي والنصير ، مظلوماً مدحوراً ؛ ويكون للتمدّن نكداً عقيماً ، لا ينفعه النفع الذي كان ينفعه إيّاه لو ولد حلالاً .

ومن رأي حماة الإباحية في قضاء الشهوات أنه يجب أن يكون هناك نظام قومي لتنشئة الاولاد وتعليمهم ، فيولدهم الآباء والامهات بالعلاقات الجنسية المطلقة فيما بينهم ، ويكون للنظام القومي أن يربيهم ويؤهلهم لخدمة التمدن . وغرضهم من هذا الاقتراح توفير حرية النساء والرجال وفرديتهم ، وتحقيق مقاصد التناسل وتربية الاولاد بدون تقييد شهواتهم النفسية بقيود الزواج . ولكن العجب أن الذين يحرصون هذا الحرص على فردية الجيل الحاضر ، هم يقترحون للجيل اللاحق نظاماً للتعليم القومي أو التربية الرسمية ، لا مجال فيه لنشأة الفردية وارتقاء الشخصية . فهذا النظام الذي سينشأ فيه ألوف مؤلفة من الأطفال على غرار واحد وطريقة واحدة ، لا يمكن أن تبرز فيه شخصيتهم الفردية ، بل هو أحرى بأن يحدث فيهم أكثر ما يكون من المشابهة والسوية المتصنعة . فيخرج الاولاد من هذا المركز التربوي متماثلين كالسبائك الحديدية تخرج من مصنع . فتأمل مبلغ تصور هؤلاء السفهاء بشأن الانسان من الدناءة والاسفاف . إنهم يريدون أن يخرجوا الاجيال الانسانية القادمة كتخريج أحذية (باتا) ، ولا يعلمون أن إعداد شخصية الطفل من ألطف الفنون وأدقها ، ولا يمكن أن يعالج إلا في مجال عملي صغير يكون فيه كل رسام منصرفاً بعنايته إلى صورة واحدة . وأما المعمل الذي يصور فيه العمال الأجراء ملايين من الصور المتشابهة المتماثلة ، فلا شك أن يضيع فيه هذا الفن ، بدل أن يرتقي ويتحسن .

ثم إن هذا النظام الاجتماعي للتربية والتعليم ، لا بـدّ أن يحتاج إلى عاملين أكفاء يقومون عن المجتمع بخـــدمة التربية والتنشئة الأولاد . وظاهر أيضاً أنه لا يصلح لهذه الخدمة من العاملين إلاّ الذين يتصفون هم أنفسهم بضبط العواطف والاهواء والوقوف عند حدود الأخلاق . وإن لم يكونوا كذلك،لم يستطيعوا أن يربّوا النشء ويمرّنوهم على الالتزام الخلقي . فقل لي إذاً : من أين سيأتيك أمثال هؤلاء العاملين المربّين ؟ وإذا كنت لم تُرد بهذا النظام الاجتماعي للتعليم والتربية إلا أن يُخلّى سبيل الرجال والنساء لأن يقضوا شهواتهم من غير قيد ، وتكاد تجرّدهم بذلك عن صفة الالتزام الخلقي وضبط الشهوات، فكيف بالله تتّخذ منهم معلّمين ومربّين للأخلاق؟وأنّى تجد من مجمع العميان نفراًمن البُصراء ليعلموا الأجيال الناشئة سلوك سبيلهم بعيون مبصرة .

٧ — وإن المرأة التي يزني بها رجل أناني مغرض . ويُصيّرها أمّاً للولد ، تخيب حياتها وتفسد للأبد ، وينصب عليها وابل من الذلّةوالنكبة والمقت العام ، لا ينقطع عنها ما دامت حيةً . ولحل هذه المشكلة قـد جاءت المبادىء الخلقية الجديدة تقترح بأن يساوى بين كل أنواع الامومة من حيث الكرامة والعزّ، سواء أكانت عن نكاح أو سفاح . فيقول أصحاب هذه المبادىء : إن مرتبة الامومة تجدر في كل حال بالتكريم ، وإن الفتاة التي تأخذ على عاتقهامسئولية الامومة لسذاجتهاأو عدم حيطتها، من الظلم أن يلومها المجتمع ويطعن عليها . ولكن هذا الحل ـ وإن هوّن

على الفاجرات فجورهن ـ آفة للمجتمع ونكبة عظيمة من حيث آثاره المجموعة . وذلك أن المقت والزراية ، الذي ينظر بها المجتمعُ إلى أم الولد النغل ، هو بجانبٍ سدٌّ مانع لأفراده عن ركوب المعاصي ، والفجور ، وبجانب آخر ، هو دليل على حياة الشعور الخلقي في المجتمع نفسه . فلو أن أم النغل تُرفع إلى درجة أم المولود الشرعي ، فمعناه زوال التمييز بين الخير والشرّ والبرّ والاثم والخطيئة والصواب في نفوس الجماعة . وهب الجماعة تهدمُ هذا التمييز فعلاً . فهل يُغني ذلك في شيءٍ عن حلّ تلك المشاكل التي تواجه أمَّ النغل ؟ إنكم قد تساوون بين الاومنين في نظريتكم وآرائكم ، ولكن الفطرة لا تساوي بينهما بتاتاً . وهما ، في نفس الأمر ، لا يمكن ان يستويا ، لأن مساواتهما مما يخالف العقل والمنطق والحقيقة والانصاف . وكيف يمكن لعمر الله أن تستوي المرأتان : إحداهما حمقاء غلبتها غريزة الشهوة البهيمية فجعلتها تستسلم لرجلٍ مُغرضٍ ، لم يكن ينوي ان يتكفلها هي وولدها . والاخرى : كيسةٌ ضبطت نفسها وكبحت جماح عواطفها إلى أن وجدت رجلا شريفاً مستعداً لتحمل تبعاتها ، فأي عقل يحكم على هاتين المرأتين حكما سوياً ، وأنت إن شئت ، قد تجعل بينهما مساواة ظاهرة متصنعة ، ولكنك لن تستطيع أن تهيء لهذه الحمقاء كل تلك الكفاءة والرعاية والعشرة المؤاسية والتعهد الممزوج بالمودة ، والتفقد المقترن بالنصح ، وتلك الطمأنينة والسكينة التي لا تتأتّى الا لذات الزوج؟ ثم من أين تجد لذلك الطفل شفقة الوالد وعطف الاعمام ومحبة الاجداد؟ قُصاراك أن تحمل الرجل على أداء النفقة . ولكن هل النفقة هي كل

ماتحتاج اليه الام والولد في هذه الدنيا ؟ فالحقيقة الواقعة التي لاتنكر اذاً ، هي ان المساواة بين الامومتين - الشرعية وغير الشرعية - مهما ضمنت للفاجرات من الطمأنينة الظاهرة ، لا تنجيهن من النتائج الطبيعية لحماقتهن ، ولا تنجي اولادهن من مضارّ ولادتهن في احضانهن .

ولهذه الاسباب كلها ، من الضرورات اللازمة لقيام الحياة الاجتماعية ونشأتها ونموّها على الخطط الصحيحة ، ان تمنع في الجماعة فوضى العمل الجنسي ، ولا يجوّز لتسكين الغرائز الشهوانية إلا وجه واحد ، هو الزواج . فان اعطاء الافراد حرية الزنى والفحشاء غلوٌ في مسامحتهم ، وعدوان على المجتمع ، بل هدم لكيانه . والمجتمع الذي يتهاون بهذا الامر ويُغمض عن الزنا زاعماً إياه شيئاً من باب الترفيه عن النفس وقضاء الوقت في المتعة واللذّة (Having a good Time) ويسامح في نثر بذور النسل هنا وهناك بلا قيد (Sowing wild Oats) ، هو في الحقيقة مجتمع جاهل ، لايعرف حقوقه ، ومن ثمّ يعادي نفسه . ولو أنه يشعر بحقوقه ويتفطّن الآثار السيّئة التي تترتّب على المصالح الاجتماعية من جرّاء إباحة الحرية الفردية في العلائق الجنسية ، لنَظَرَ إليها كنظره إلى السرقة والتلصّص والقتل . بل هذه الإباحية في الفحشاء أشدُّ من السرقة ، فإن السارق أو اللصّ أو القاتل لا يسلب إلاّ فرداً أو بضعة أفراد من المجتمع ، ولكن الزاني يعتدي على المجتمع بأسره وعلى اجياله القادمة أيضاً ، فهو يخون ملايين من الناس في آنٍ واحد ، وعواقب

جريمته هذه أوسع وأعمق من جرائم سائر المجرمين . ولما كان من المسلَّم به وجوب كون قوة القانون من وراء المجتمع ، لتُعينه وتحميه من اعتداءات الافراد الصادرة عن أثرَتهم وطغيانهم ، وكانت السرقة والقتل والسلب والنهب والتزوير وماسواها من صوَر غصب الحقوق تُعدُّ لأجل ذلك من الجرائم والمآثم ، فتُسدُّ فتنتُها بقوّة قانون العقوبات ، فلا مبرّر لئلا يحفظ القانونُ المجتمعَ من مُوبقات الزنى ، ولا يُعَدُّ هذا من الجرائم المعاقَب عليها .

ومن الظاهر البيِّن أيضاً من حيث المبدأ والقاعدة أنه ما كان النكاح والسفاح ليكون كلاهما جزءاً لنظام اجتماعي في آن واحد . وذلك أنه إن أبيح للمرء أن يقضي شهوات نفسه بدون قبول التبعات ، فمن العبث تقرير ضابط النكاح لنفس الفعل ومثَلُه كمثل أن يرخّص للناس ركوب القطار بدون التذكرة ،ويُوجَب عليهم في الوقت نفسه إحراز التذكرة للسفر فيه ،فإنه لا يليق بعاقل أن يفرض الطريقين كليهما في الوقت الواحد . وما الوجه الصحيح في الأمر إلاّ أحد اثنين : إما يُلغى شرط ابتياع التذاكر إلغاءً ، ويُجعل السفر بدونها مباحاً ، أو يُعزَم فيه على الناس فيقرّر السفر بدون التذكرة جريمةً أبداً . كذلك اختيار الوجهين المتباينين في الحكم على النكاح والسفاح مما لا يسوّغه العقل بتةً . فإن كانت ضابطة النكاح من لوازم التمدن ـ كما أثبت آنفاً بالادلّة والبراهين ـ فمن اللازم مع ذلك أن يعدّ السفاح إثماً وجريمةً[1] .

(١) من الوهم الشائع عند بعض القوم أن فتى في مقتبل الشباب ،يجب ان يتاح=

ومن أبرز ماتمتاز به الجاهلية أنه لا يُهتمّ فيها إلاّ بما تكون نتائجه محدودةً ملموسةً، وتتمثّل أمام العيون وشيكاً بصورة مرئيةٍ . وأما ما كانت نتائجه غير مدركةٍ للحال لكونها أعمق في الاثر وأبطأ في الظهور، فلا يُلقى إليه بال ، بل هو يُعدّ غير صالح للاكتراث له . ومن هذا استعظامُهم للسرقة والقتل والنهب . وتهاونُهم بالزني والفحشاء . ومن العجب حقاً أن المرء الذي يجمع في بيته جرذان الطاعون أو ينشر في الناس الامراض السارية ، لا يعدّه تمدّن الجاهلية حقيقاً بالعفو والمعذرة أبداً ، لان فعلته تلك يتبيّن لهم جانب ضررها وفسادها . ولكن الزاني الذى يستأصل شأفة التمدّن لاجل غرضه ومصلحته لاغيرُ ، فلأن

=له بعض الفرص لتسكين شهواته بحجة أنه من الصعب على المرء في عهد الشباب مقاومة هيجان العواطف . وفي مقاومته له ضرر بصحته. ولكن المقدمات التي قد بنيت عليها هذه النتائج كلها خاطئة. وذلك أن مثل هذه السورة العاطفية الشديدة التي لايمكن غلبتها ، حالة غير معتدلة (Abnormal) لاتعرو النفوس المعتدلة (Normal)إلا لوجود نظام تمدني فاسد يلهب فيهم نار الشهوة إلهابا . فكل مانجد فيما حولنا في السينما والصور والموسيقى والآداب ومزاحمة النساء المتبرجات للرجال في كل مكان من هذا المجتمع المختلط ــ كل هذه الاسباب التي تحول النفوس المعتدلة عن اعتدالها في غريزة الشهوة . والا فمن المحال المستبعد أن تهيج الشهوة في عامة الرجال والنساء في بيئة هادئة معتدلة ، هيجانا لايمكن ضبطه بالتربية العقلية والخلقية . والظن بان اجتناب العمل الجنسي في عهد الشباب مضر بالصحة ، ولذا ينبغي أن يزني المرء توفيرا لصحته ، ان هو إلا مغالطة للنفس وخداع للضمير المحتسب . إنما الواجب لحفظ الصحة وصون الاخلاق أن يبدل هذا النظام الاجتماعي المنحرف ، وتلك المقاييس الزائفة للعيش الهنيء ، التي قد جعلت النكاح صعباً والسفاح أمراً هيناً سهلا .

مضارّ عمله هذا لاتُرى عياناً ولا تُحسُّ إحساساً ، بل هي ممّا يُعقل أو يُتصوّر ، يظنّه الجاهلون موضعَ الاعذار والمسامحة ، بل هم يكادون لا يفهمون وجهَ الخطأ في عمله ذلك. ولو أن التمدن يكون أساسه العقل والعلم بفطرة الأشياء ، بدلا من الجاهلية ، لما اختار أهله مثل هذا السلوك العملي .

٤

التدابير اللازمة لمنع الفواحش

إن الفعل الذي يتحقّق ضرره بالتمدن ، لا يكفي في منعه وسدّ بابه أن يُعدّ جريمةً في القانون ويُقرّر له حدّ أو عقوبة ، بل يجب أن تُتّخذ لذلك معه أربعة تدابير أخرى :

أولا ـ تهذّب عقلية الافراد بالتربية والتعليم . ويُصلح من نفوسهم إصلاحاً يعودون معه يُنكرون ذلك الفعل بأنفسهم فيعدّونه إثماً ، ويكفهم شعورهم الخلقي نفسه عن ارتكابه .

ثانياً ـ يؤلّب الرأي العام والأخلاق الجماعية على عداء ذلك الإثم أو الجريمة إلى حدّ أن يصبح عامّة الناس يعتبرونه عاراً ومخزاةً ، وينظرون إلى مرتكبه بعين المقت والزراية . وذلك لكي تمنع قوّةُ الرأي العام كلّ من نقصت تربيته أو ضعُف فيه الوجدان الخلقي من ارتكاب ذلك الإثم .

وثالثاً ـ يُحسم في نظام التمدن جميع الاسباب التي تحرض الأفراد على تلك الجريمة وترغّبهم فيها . وأيضاً يـُقضى فيه ـ بقدر الامكان ـ على الاسباب التي تضطرهم اليها .

ورابعاً ـ يُقام في سبيل هذه الجريمة من الموانع والعقبات في الحياة التمدنية ، مالا يتيسر معه للمرء ارتكابها ، وإن تعمّده وسعى فيه .

كل هذه التدابير الاربعة مما يشهد بصحته وضرورته العقل ، وتتطلبه الفطرة ، ومما تعمل به المجتمعات فعلا في جميع العالم . وما من مجتمع أو نظام مدني إلا ويستخدم قليلا أو كثيراً من هذه التدابير الاربعة ـ علاوة على نظام العقوبات ـ لمنع الأفعال التي تتقرّر في قانونه جرائمَ . فإذا كان من المعلوم المسلّم به أن فوضى العلاقات الجنسية مهلكة للتمدن ، وذنب عظيم إلى المجتمع فلا مناصَ أيضاً من التسليم بأنه يلزم لمنعها من الانتشار أن تُستخدم جميع التدابير الاصلاحية المانعة التي قد ذكرت آنفاً ، علاوةً على تنفيذ العقوبات . فيجب العمل على تربية الافراد ، ويجب حمل الرأي العام على عداء تلك الفوضى ومكافحتها ، ويجب تطهير التمدّن من كل مايُلهب نارَ الشهوة في الافراد ، ويجب أخيراً أن تُزاح عن النظام الاجتماعي تلك الموانع والعقبات التي تجعل النكاح من أصعب الامور ، وأن تـُقيّد العلاقات الجنسية بين الصنفين بقيود تقوم في وجهها كالسدّ الحاجز ، إن هما مالا إلى التعلق الجنسي المطلق . ومايكون لعاقل ، يعترف بكون الزنى إثماً وجريمة ، أن يُنكر ضرورة هذه التدابير ويعترض على استخدامها .

ومن الناس من يسلّمون بكل تلك المبادىء الخلقية والاجتماعية التي قد قرّر الزنى إثماً بموجبها . ولكنهم يُصرون على أنه بدل أن يُستخدم لقمعه قانون العقوبات والتدابير الوقائية يجب ان يكتفى باتخاذ التدابير الاصلاحية فحسبُ . فيقولون : إنه يجب أن يوقظ في الناس من الشعور الباطن ، ويبعث فيهم من قوة الضمير المحتسب والوجدان الخلقي ما يمتنعون به عن ارتكاب هذه الجريمة بأنفسهم . وأما اللجوء الى قانون العقوبات والتدابير الوقائية لأجل ذلك، بدل اصلاح النفوس ، فمعناه معاملة الناس كمعاملة الصغار الاغرار ، بل هو حطّ من مكانة الانسانية واستخفاف بأمرها . وإنّا أيضاً نسلم بقولهم إلى حد أن الطريقة المثلى لإصلاح الانسانية هي هي التي يقترحونها، وان الغاية الحقيقية من التهذيب والتثقيف، أن تنبعث في ضمائر الافراد، قوة تجعلهم يحترمون قوانين المجتمع بأنفسهم، فيزعهم ضميرهم انفسهم ، عن الخروج على قواعد الاخلاق . وهذا هو الغرض من وراء كل تلك العناية البالغة التي تُعنى بها الامم لتعليم افرادها وتربيتهم . ولكنا نسألهم : هل التهذيب والتربية غايتها تلك ؟ وهل هذبت الافراد الانسانية تهذيباً يمكن معه الآن ان يعتمد على ضمائرهم كل الاعتماد ، ولم يعد من حاجة إلى استخدام العقوبات أو التدابير الوقائية لحفظ النظام الجماعي؟ دعوا عن أنفسكم ذكر القرون الخوالي، فانها كانت في رأيكم ـ أنتم المتجددين ـ عصوراً مظلمة. بل انظروا في هذا العصر المتنور من القرن العشرين ؛ وتأملوا فيه حالة أرقى الدول الاوروبية والاميركية

واعلاها ثقافة وتهذيباً ، التي كل فرد من أفرادها متعلم ، وهي تتباهى بما يتحلى به أبناؤها من التربية السامية ، هل منع التعليمُ وإصلاح النفوس فيها ارتكاب الجرائم ونقض القانون ؟ ألا تحدث في تلك البلاد حوادث السرقة ، أو اللصوصية ؟ أولا تقتل هناك النفس الانسانية بغير حق ؟ أو لا يرتكب الناسُ الغش والخديعة والظلم والافساد ؟ وهل استغنت تلك الدول عن استخدام الشرطة والمحاكم والسجون ونظام المحاسبة الاجتماعية ؟ أو بلغ في أفرادهم الشعورُ بالقيمة الخلقية أنهم لا يعاملون « معاملة الصغار الاغرار » ؟ فلماذا لم يكن كل هذا من الواقع . ولم يكن أهل الغرب قد تمكنوا ، حتى في هذا العصر (المتنور) ، أن يتركوا أمر نظم المجتمع وقانونه إلى الشعور الخلقي في الافراد ، ولما كانت الانسانية في هذا الزمان أيضاً لا تزال تهان وتعامل «معاملة الصغار» باستخدام العقوبات والتدابير الوقائية لردعها من الجرائم ، فما بالكم تعترضون على إهانتها في أمر العلاقات الجنسية فحسبُ ؟ ولماذا هذا اللجوج وهذا الالحاح الشديد على أن يعامل هؤلاء (الصغار) معاملة (الكبار) في هذه المسألة وحدها ؟ ألا ارجعوا إلى ضمائركم وتجسسوها ، لعلّ فيها دخلة سوءٍ .

ثم يقول هؤلاء : إن الاشياء التي تعدونها محركات شهوانية وتريدون أن تقصوها عن دائرة التمدن ، كلها قوام الفن وروح التذوق للجمال . فالصد عنها صدٌّ عن معين اللطافة والبهجة في الحياة الانسانية . لذلك مهما شئتم أن تفعلوه لحفظ التمدن وإصلاح الاجتماع ، فافعلوه على نحو لا يمس الفنون اللطيفة والذوق الجمالي . ونحن أيضاً نوافقهم على ان الفن والتذوق

الاجمال شيئان غاليان ، يجب ان يُحافظ عليها ، بل يتقدم ويرتقى بهما ، ولكن حياة المجتمع والفلاح الاجتماعي أغلى منها وأنفس ولايجوز أن يضحى بهذين في سبيل فنٍ من الفنون أو ذوقٍ للجمال . فإن كان يراد بالفن والشعور الجمالي أن يتقدما ويرتقيا فليتخذ لارتقائهما طريق يطابق بينها وبين الحياة والفلاح الاجتماعي؛لانالفن أو الذوقالجمالي الذي يفضي إلى الهلكة بدل الحياة ، وإلى الفساد بدل الفلاح ، لايمكن أن يترك ينمو وينتشر في محيط الجماعة . وإن قولنا هـذا ليس برأي فردي أو نظريةٍ مختلقة ، بل هو عين مايقتضيه العقل والفطرة ، وتعترف به الدنيا من حيث المبدأ ، ولا يزال يجري عليه العمل في جميعالعالم فكل مايعد فيهذه الدنيا مهلكة للحياة الجماعية ومجلبة" للفساد ، لايحتمل أبداً لاجل الفن أو الذوق الجمالي . خذ مثلا لذلك أن الآداب التي تحض الناس على الفتنة والفساد وتحفزهم على القتل والسلب ، لا تجوزها دولة من دول الارض ، لمحاسنهاالادبية والفنية.وانالادب الذي يرغب فينشر الاوبئة والامراض لاتغضي عنه أية سلطةفي هذه الدنيا .وان السينما أو المسرحية التي تحض الناس على البغي ونقض الامن ، لا تأذن بعرضها حكومة من حكومات العالم . وأن الصور التي تعبر عن نزعات الظلم والقساوة والخبث أو تنقض المبادىء الخلقية المسلم بها ، مهما بلغت من كمال الفن، لا ينظر اليها أيقانون واي ضمير اجتماعي بعين التقدير والاعجاب.وكذلك فن النشال وإن كان من ألطف الفنون وأرقاهافي خفة اليد وبراعتها ، لايرضى له أحد أنينمو وينتشر . ومثله صناعة تزوير الصكوك والشيكات والاوراق المالية ،فإنها

أيضاً تتطلب فطنة نادرة وبراعة عجيبة؛ ولكن لايستجيز أحد ترقية هذا الفن . ثم هناك الغش والدجل الذي قد أتى فيه الذهن الانساني بالعجب المعجز من قوة اختراعه ، ولكنه ليس من مجتمع مهذب ينظر الى تلك المعجبات بعين الرضا والتقدير وإذاً من المسلم المعترف به أن حياة الجماعة وأمنها وفلاحها ومصلحتها أغلى ، وأثمن من كل فن لطيف وكل ذوق للجمال أو الكمال ، ولايجوز ان يضحى بكل ذلك لأجل فن من الفنون وأما الامر الذي فيه الاختلاف فهو اننا نعد شيئاً من الاشياء مضراً بحياة الجماعة وفلاحها ، ولا يعده كذلك غيرنا . ولو ان وجهة نظرهم توافق وجهتنا في هذا الامر ، فلا جرم أن يشعروا بضرورة تقييد الفن وذوق الجمال بتلك القيود التي نستلزمها نحن .

ومن قولهم ايضاً : إن ضرب الحجب والحواجز بين افراد الجنسين، لمنع العلاقات الجنسية المطلقة بينهم ووضع السدود دون اختلاطها الحر في الاجتماع ، هو في الحقيقة تحامُلٌ على سيرتهم وأخلاقهم ، إذ يُؤخذ من ذلك أنه قد فُرض كل واحدٍ من آحادهم فاجراً أو داعراً ، وأن واضعي هذه القيود لا يَثِقون بنسائهم ولا برجالهم . اعتراض قويٌ ولا شك ! ولكن ما بالك تقف بهذا الاعتراض عند هذا الحد ، ولا تتوسّع به إلى ماسواه من شؤون الحياة ، حتى يُقال : وكل قُفلٍ يُوضع على بابٍ كأنه إعلان لكون مالكه قد فَرَض كل أهل هذه الدنيا لصوصاً . وأن وجود كل شُرطي في البلاد دليل على أن الحكومة تعتبر جميع رعاياها أشراراً

خُبْثاً . وكل مايُستكب من صك عند المعاملة فهو حجّة على كون أحد الفريقين قد عدّ الآخر خائناً ، وأن كل ما يُتّخذ من التدابير الوقائية لسدّ الجرائم ، فان وجوده في نفسه برهان على أن كل من يشملهم نطاق هذا التدبير قد فُرضوا مجرمين على الاحتمال . إن هذا النحو من الاستدلال يجعلك في كل آن سارقاً أو خائناً أو فاجراً متّهماً ، ولكنه لا يغضّ شيئاً من كرامتك وعزّة نفسك . فياليت شعري لماذا يرقّ شعورك للعزّ والكرامة كل هذه الرقة في أمر العلاقات الجنسية وحدها؟!

إنما الحقيقة الواقعة التي قد أشرنا إليها آنفاً ، هي أن الذين لا تزال في أذهانهم آثارة من التصوّرات الخلقية العتيقة ، لا ريب يُنكرون الزنى والفوضى الجنسيّة ، ولكنه لا يبلغ فيهم ذلك الإنكار مبلغاً يُشعرهم بضرورة منعها وسدّ بابها بالمرّة . ولذلك تختلف وجهة نظرهم عن وجهة نظرنا في باب التدابير التي يجب أن تُتّخذ للاصلاح لحسم أسباب تلك السيئة . ولو أنهم تتكشّف عليهم حقائق الفطرة ، فيتفطّنوا لوضع هذا الامر ووجهه الصحيح ، لاتّفقوا معنا على أن الانسان مادام إنساناً ومابقي فيه عُنصر الحيوانية ، فلا يمكن لأي تمدن يؤثر فلاح الحياة الجماعية على أهواء الافراد وشهواتهم ، أن يغفل عن تلك التدابير ويقصّر في أمرها .

٥

الوجه الصحيح للعلاقة بين الزوجين

إن من لوازم التمدن الصالح ، بعد تشكيل الأسرة وسدّ باب الفوضى

الجنسيّة أن يقرّر الوضع الصحيح لعلاقة ما بين الرجل والمرأة ،وتمكّن حقوقهما بالعدل والنصفة، وتُقسم بينهما التبعات والواجبات بالقسط ،وتُحدّد لهما المراتب والوظائف في نظـام الاسرة على نحوٍ لا يُخلّ بالتوازن والاعتدال . هذه المسألة أصعب مسائل التمدن وأكثرها إعضالاً ،ولكن الانسان قد أخفق في حلّ عقدتها غالباً .

فهناك أمم قد جعلت المرأة قوّامة على الرجل . ولكنا لا نعلم أمة من تلك الأمم ، بلغت درجة عالية في التمدن والحضارة ، ولا نُرى في سجلّ التاريخ على الأقل أمة وكلت أمرها إلى المرأة ، ثم نالت القوة والعزّة بين أمم العالم ، أو جاءت بمأثرة تُذكر في التاريخ .

أما معظم أمم الارض فقـد جعلت الرجل هو القوّام على المرأة . ولكن هذا التفضيل للرجل رُبّما تحوّل إلى الظلم ، بحيث اتخذت المرأة أمة ، وسيمت الاهانة والخسف ، وحُرمت كل أنواع الحقوق الاقتصادية والتمدّنية ، ووُضعت في الأسرة مقام الخادم ، وأداة قضـاء الشهوة للرجل . ولئن عَطَفوا على طبقة من النساء خارج الاسرة والبيت، وحلّوهن بحلي العلم والثقافة ، فلكي يَفين بمطالب الرجال الجنسيّة بطُرُق أشهى وألذّ ، ويكنّ لهم لذّة المسامع بموسيقاهن ، وبهجة النواظر برقصهن ودلالهن ، ومتعة الأجساد ببراعتهن الجنسيّة ومفاتنهن . وكان ذلك من أوقح ما ابتدعَتْه أهواءُ الرجال من أساليب إهانة المرأة وتحقيرها ، وإن الامم التي جَرت على هذه الطريقة ، لم تسلم بنفسهـا من مضارّها .

على أن التمدن الغربي الحديث قد اختار لنفسه طريقاً ثالثاً ، هو طريق المساواة بين المرأة والرجل . وذلك أن تُقسم الواجبات بين الجنسين على السواء ، وتكون من نوع واحد تقريباً . فيتسابقا في دائرة عمل واحدة ويكسب كل منهما عيشه بيده ويكفل حاجاته بنفسه. ولكن هذه الصيغة من تنظيم الاجتماع لم تتكمّل بعدُ . لأن أفضلية الرجل وتفوقه على الصنف المقابل لا تزال جلياً بارزاً حتى الآن . ولم تبلغ المرأة مبلغ الرجل في أي شعبة من شعب الحياة ، ولم يحصل لها بعد جميع الحقوق التي يجب أن تكون لها بحسب قاعدة المساواة الكاملة . على أن الجانب الذي قـــد تمّ وكمل من هذه المساواة ، فقد أخذ يُدخل الفساد على التمدن ، منذ الآن. وقد سبق أن ذكرنا نتائجه في الابواب الماضية ، فلا نحتاج إلى مزيد من التعقيب عليه في هذا المقام .

كل هذه الانواع الثلاثة للتمدن، يخلو من العدل والتناسب والاتزان، لأنـّه قد قصر في فهم هداية الفطرة ، وفي اختيار السلوك العملي وفقاً لها وبموجبها . وإنك إن تأملت الأمر بالفكر السليم ، تبيّنتَ أن الفطرة نفسها قد دلت على الحل الصحيح لتلك المسائل ، بل هي الفطرة التي قد صانَت المرأةَ بقوتها القاهرة عن أن تسقط في منزلتها إلى الدرك الاسفل الذي أراده الرجال لهـا ، أو تسمو فيها إلى العلياء التي أرادتها لنفسها أو حاول الرجال أن يرفعوها اليها . وقـــد اختار الانسان جانبي الافراط والتفريط بتأثير عقله المخطىء وتصوراته الزائفة الضالة . ولكن الفطرة

لاتريد إلا العدل والتناسب ، وهي تهدي الانسان بنفسها إلى ذاك السبيل.

مما لاينكره أحد أن الرجل والمرأة من حيث انسانيتها على حد سواء . فهما شطران متساويان للنوع الانساني، مشتركان بالسوية في تعمير التمدن وتأسيس الحضارة وخدمة الانسانية . وكلا الصنفين قد أوتي القلب والذهن والعقل والعواطف والرغبات والحوائج البشرية . وكل منهما يحتاج إلى تهذيب النفس وتثقيف العقل وتربية الذهن وتنشئة الفكر، لصلاح التمدن وفلاحه ، حتى يقوم كل منهما بنصيبه من خدمة التمدن. فالقول بالمساواة بين الصنفين من هذه الجهة صواب لاغبار عليه . ومن واجب كل تمدن صالح ان يعنى بالنساء عنايته بالرجال في إيتائهن فرص الترقي والتقدم وفقاً لمواهبهن وكفاءاتهن الفطرية . فيحليهن بالعلم والتربية العالية ، ويمنحهن من الحقوق التمدنية والاقتصادية مثل مايمنحه الرجال ، وينزلهن في الهيئة الاجتماعية منزلة العز والكرامة ، حتى ينشأ فيهن الشعور بعزة النفس . فيتحلين بتلك الصفات الانسانية الفاضلة التي لايبعثها في الانسان إلا هذا الشعور. فالامم التي أبت مثل هذه المساواة بين الصنفين وتركت نساءها جاهلات مهينات غير مثقفات بالتربية ومحرومات من جميع حقوق المدنية ، فقد انحطت بنفسها في حضيض الذلة والهوان ، وذلك لان إسقاط شطر كامل من شطري الانسانية معناه إسقاط الانسانية نفسها. ولا يمكن أبداً أن ينشأ من أحضان الامهات المهينات أبناء شرف

وكرامة ، ومن أعطاف الجاهلات غير المثقفات أصحاب تربية وثقافة ومن مهود البليدات العاميات الفكر رجال تفكير وشعور عال.

على أن الجانب الآخر من هذه المساواة هو أن تكون دائرة عمل الرجل والمرأة واحدة ، فيقوم الجنسان بأعمال من النوع الواحد ، وتقسم بينهما واجبات جميع شعب الحياة بسوية وتكون منازلهما في نظام التمدن متماثلة ، والذين يقولون بهذه المساواة ويدعون اليها يحتجون لهذه النظرية بشواهد العلوم التجريبية وتجاربها، فيثبتون بها أن الرجل والمرأة متساويان (Equipotential) في قوتها ومقـــدرتها الجسدية . ولكن كونهما متساويين في ذلك لا يكفي في الحكم بان مقصود الفطرة أيضاً هو استخدامهما لاعمال من النوع الواحد . ولا يصح أن يرى هذا الرأي ، مالم يثبت أنهما متماثلان أيضاً في نظامهما الجسدي وقد كلفتهما الفطرة نوعاً واحداً من الخدمات ، وأنهما متشابهان كذلك في خصائصهما النفسية . أما التحقيق العلمي الذي قد قام به الانسان إلى هـذا اليوم فينفي ويبطل كل هذه الامور الثلاثة .

شهادة علم الأحياء

فهذا علم الاحياء (Biology) قد أثبتت بحوثه وتحقيقاته أن المراة تختلف عن الرجل في كل شيء من الصورة والسمت والاعضاء الخارجية إلى ذرات الجسم والجواهر الهيولينية (البروتينية) لخلاياه النسيجية (Protein Molecules - of Tissue Cells) فمن لدن حصول التكوين الجنسي (Sex Formation) في الجنين ، يرتقي التركيب الجسدي في الصنفين في صورة مختلفة . فهيكل المرأة ونظام جسمها يركب كله تركيباً تستعد به لولادة الولد وتربيته . ومن التكوين البدائي في الرحم إلى سن البلوغ ، ينمو جسم المرأة وينشأ لتكميل ذلك الاستعداد فيها . وهذا هو الذي يحدد لها طريقها في أيامها المستقبلة .

ومع بلوغها سنّ الشباب يعروها الحيضُ ، الذي تتأثر به أفعال كل أعضائها وجوارحها . وتدل مشاهدات أساطين علمي الأحياء والتشريح على أن المرأة تطرأ عليها في مدّة حيضها التغيرات الآتية :

١ – تقلّ في جسمها قوة إمساك الحرارة ، فيزداد خروج الحرارة منه ، وتنخفض درجتها فيه .

٢ ـ ويبطؤ النبض وينقص ضغط الدم ويقل عدد خلاياه .

٣ ـ وتُصاب الغدد الصمّاء (Endocrines) واللوزتان (Tonsils) والغدد المفاوية (Lymphatic glands) أيضاً بالتغيُّر .

٤ ـ وينقص الاستقلاب الهيوليني (Protein Metabolism)

٥ ـ ويقلّ إخراج أملاح الفسفات والكلوريد من الجسم وينحط الاستقلاب الغازي (Caseous Metabolism)

٦ ـ ويختل الهضم ، ويقل التحام الشحم والاجزاء الهيولينية في المأكولات مع أجزاء الجسم .

٧ ـ وتضعف قوة التنفس وتصاب آلات النطق بتغيرات خاصة .

٨ ـ ويبلد الحس وتتكاسل الاعضاء .

٩ ـ وتتخلف الفطنة والذكاء وقوة تركيز الافكار .

وكل هذه التغيرات تُدني المرأة الصحيحة إلى حالة المرض إدناءً يستحيل معه التمييز بين صحتها ومرضها . ففي مائة من النساء الحوائض لاتحيض إلا ثلاث وعشرون بلاوجع أو ألم . وبحث الباحثون ذات مرة في أحوال ١٠٣٠ امرأة عفوَ الانتخاب ، فوجدوا أن ٧٤ في المائة منهن كن يقاسين الوجع وغيره من صنوف الأذى أيام حيضهن . ويكتب الطبيب أميل نووك الذي هو محقق كبير في هذا الفرع من العلم :

« إن مايُعهد في الحوائض عامةً من الأعراض هي: الصداع والنّصَب والخلَج (١) وضعف الأعصاب وتخلّف المزاج واضطراب المثانة وسوء الهضم ، والإمساك أحياناً ، والغَثَيان والتهوّع في بعض الحالات. وهناك نساء لا يُستهان بعددهن يُحسن في صدورهن وجعاً خفيفاً ، يشتدّ أحياناً فيشعرن له بضربات عنيفة. وفي بعضهن تتورّم الغدّة الدرقية في هذه الايام ، مما يُسبّب فيهن البُحّة (٢). وكثيراً ما يُصَبن بفتور الهضم وجهد التنفس. ودلّ الفحص الطبي الذي قام به الطبيب كريجو في عدد من النساء ، أن كان نصفهنّ يتململن بسوء الهضم في أيام الحيض ، وبالإمساك في أواخرها. ويقول الطبيب جب هارد: قلّ من النساء من لا تعتلّ بعلة في المحاض ، ووجدنا أكثرهن يشتكين الصداع والنّصَب والوجع تحت السُرّة وقلة الشهوة للطعام ، ويُصبحن شرسات الطباع مائلات إلى البكاء. فنظراً لهذه العوارض كلها يصحّ القول: إن المرأة في محاضها تكون في الحق مريضةً. وينتابها هذا المرض مرّةً في كل شهر وهذه التغيّرات في جسم المرأة تؤثّر لا محالة في قواها الذهنية وفي أفعال أعضائها. ففي سنة ١٩٠٩ م استنتج الطبيب فواستشفسكي (Voicechevsky) من مشاهداته الدقيقة أن المرأة تضمحل فيها قوة الجهد العقلي والتركيز الفكري أيام الحيض. واستخرج كذلك الاستاذ

(١) الخلج : أن يشتكي المرء عظامه من طول تعب أو مشي .
(٢) البحة : خشونة وغلظ في الصوت .

كرشي سكفسكي (Krschiskevsky) من اختباراته النفسية أن المرأة يلتهب فيها المجموع العصبي في هذه الايام، ويبلد الحس ويختل ، ويضعف الاستعداد - وربما تمطل بالمرة - لقبول الانطباعات المرتبة ، حتى يضطرب في شعورها ما قد قرّ فيه قبلاً من تلك الانطباعات المرتبة ، مما يجعلها تتخلج حتى في أعمالها التي قد اعتادتها في حياتها اليومية. فمثل هذهالمرأة إن كانت جابية في الترام ، أخطأت في قطع التذاكر وارتبكت في عد الكسور. وإن كانتسائقة ساقت سيارتها بحذر بالغوتمهل، وحارت عند كل منعطف . وإن كانت سيدة كاتبة (Lady Typist) أخطأت في كتابتها الآلية وتوانت فيها . وفاتتها الاحرف على الرغم منها ، ولم توفق في تركيب الجمل ، ولم تصب الحرف المقصود بضربة اصبعها . وإن كانت محامية خانتها قوة حجاجها وأخطأ فكرها وبيانها في عرض قضيتها. وإن كانت قاضية ، تأثرت ملكة فهمها وقوة حكمها بهذه الحالة المرضية التي هي فيها . كذلك إن كانت الحائضة طبيبة أسنان ، لم تنشط في عملها ولم تجد آلاتها عند الطلب إلا بجهد منها . وإن كانت مغنية ، فقدت محاسن لحنها ومفاتن صوتها في أيامها تلك ، حتى إن الماهر في التلحين ليعرف حالتها تلك بمجرد سمعه لغنائها . محصّل القول أن الجهاز العصبي والذهني في المرأة يسود في غالبه متراخياً غير منظم في هذه الايام ، فلا تكون أعضاؤها تابعة لإرادتها تماماً،بل تنبعث من داخلها حركة اضطرارية تملك عليها إرادتها وتعطل قوة حكمها واختيارها ، فتصدر منها الافعال بغير

إرادةٍ ، ولا يعود لهـا في أعمالها وتصرفاتها من حرية ، ولا هي تكون أهلاً للقيام بتبعة أو مهمة !

ويكتب الاستاذ لابنسكي (Lapinsky)في كتابه : نشأة الشخصية في المرأة (The Development - of Personality in Woman) أن مدة الحيض تحرم المرأة حريتها العملية ، فهي تكون في أثنائها تابعـة لحركاتها الاضطرارية ، وتنقصها جـداً قوة استعمال ارادتها للاقـدام على عمل أو تركه .

كل هذه التغيرات تحصل في امرأة سالمة ؟ وتتدرج فيها بسهولة إلى أن تكون مرضاً . وقد دون كثير من الحوادث التي تدل على أن المرأة في حالتها هذه تـكاد تكون مجنونة ، تثور ثائرتها لأدنى بادرة ، فترتكب الحماقات ووحشي الحركات. وليس من الغريب الشاذ أن يفضي بها جنون الغضب حتى إلى الانتحار . فيكتب الطبيب كرافت ايبنج (Krafft Ebiug): إنّا نجد في حياتنا اليومية أن النساء اللاتي يكن لينات العريكة دمثات الأخلاق صُنُعَ الأيدي ، تتغير طباعهن بغتةً من فور دخولهنّ في أيام الحيض ، وكأن هذه الأيام تمر بهنَّ كمرّ العاصف الزعزع يُصبحن فيها متفجرات سليطات اللسان شديدات الخصام ، يشكو سوءَ خُلقهن كلٌّ من الخدم والأولاد والأزواج ، حتى الأجانب أيضاً لا يسلمون من سوء معاملتهنّ . وقد انتهى البحث والتدقيق بآخرين من ذوي هذا الفن ،إلى ان معظم الجرائم التي ترتكبها النساء يرتكبنها في حالة الحيض ، لأنهن لا يكن فيها تابعاتٍ لارادتهن . ولا يستبعد من امرأة معروفة بالصلاح

أن ترتكب السرقة — مثلاً — في هذه الأيام ، ثم تندم على فعلتها فيما بعد ويكتب الطبيب وينبرج (Weinberg) مستنداً إلى مشاهداته ، إن الخمسين في المائة من المنتحرات اللاتي بحثت أحوالهن ، كن قد ارتكبن الجريمة في أيام المحيض . فيرى هذا الطبيب لذلك أن من الواجب على الحاكم حين ترفع اليها قضايا النسوة المراهقات أن ترى وتتثبت فيها ، لعل إحداهن قد اقترفت الجريمة وهي حائض !

وأشدّ على المرأة من مدة الحيض ، زمانُ الحمل . فيكتب الطبيب ريبريف (Reprev) : ربما كان خروج الفُضالات من جسم المرأة في زمان حملها أقلّ مما يكون في حالة الفاقة والمسغبة فلا تستطيع قواها في هذا الزمان أن تتحمل من مشقة الجهد البدني والعقلي ، ما تتحمله في عامة الاحوال . وإن عوارض الحامل إن عرضت لرجلٍ أو امرأة غير حامل ، لحكم عليه أو عليها بالمرض بدون شك . ففي هذه المدة يبقى مجموعها العصبي مختلاً على أشهر متعددة ، ويضطرب فيها الاتزان الذهني وتسود جميع عناصرها الروحية في حالة فوضى دائمة . وهي في أثناء ذلك بين الصحة والمرض . ويكفي أدنى الاسباب في دفعها إلى المرض . ويقول الطبيب فشر : إنه لا تسلم حتى المرأة الصحيحة من الاضطراب الشديد في زمان الحمل ، فتصاب في مزاجها بالتلون وفي أفكارها بالتشوش وفي عقلها بالشرود . وتتخلف فيها ملكات الشعور والتفكير والتأمل والفهم والتعقل . ومما اتفق عليه هيولاك أيلس وألبرت مول وسواهما من الاخصائيين : أن الشهر الاخير من أشهر الحمل لا يصح فيها البتة أن تُكلف المرأة جهداً بدنياً أو عقلياً .

أما عقب وضع الحمل فتكون المرأة عرضةً لأمراض متعددة تمروها وتنمو فيها . إذ تكون جروح نفاسها مستعدة أبداً للتسمم . وتصبح أعضاؤها الجنسية في حركة لتقلصها إلى حالتها الاصلية قبل الحمل ، مما يختل به نظام جسمها كله ، ويستغرق بضعة أسابيع في عودته إلى نصابه، حتى وإن لم يعرض له في أثناء ذلك خطر . وبذلك تبقى المرأة مريضةً أو شبه مريضة مدة سنة كاملة بعد قرار الحمل ، وتعود قوة عملها نصفَ ما تكون في عامة الأحوال أو أقل منه .

ثم هناك مدة الرضاع التي لاتحيا المرأة فيها لنفسها . بل للوديعة التي تستودعها الفطرة إياها . فتتحول خلاصة جسمها إلى لبنٍ سائغٍ للولد . ومن الغذاء الذي تأكله ، لا ينال جسمها إلا البلغة وأما سائره فيصرف في إنزال اللبن في صدرها . وتعد الرضاع أيضاً يكون على المرأة أن تصرف عنايتها كلها إلى احتضان الولد وتعهده وتربيته حقبة طويلة من الزمن . وقد حلوا مسألة الرضاع أخيراً باستبدال الأغذية الخارجية للطفل بابن أمه ولكنه ليس بحلٍّ مصيب . إذ أنه لا عوض في هــــذه الدنيا للغذاء الذي قد وضعته الفطرة للطفل في ثدي أمه ، وقد اتفق الاخصائيون على أنه ليس كلبن الأم غذاء للطفل لنشأته الصحيحة فحرمانه منه لا شك ظلم وأثرة ممقوتة . ثم إنهم قد اقترحوا لتربية الأولاد أيضاً دوراً للحضانة والتربية ، لكي تكفي الأمهات مؤنتهـا ، فيفرغن لمشاغل خارج البيت . ولكن من غير الممكن أبداً أن يهيأ للطفل الحنان الأموي في دار حضانـــة أو تربية للأطفال . وما كان لينشأ في قلوب المربيات المأجورات ذلك الحب والحنان ورقة العاطفة ، التي تتطلبها الطفولة وتفتقر

اليها في أوائل عهدها . وهذه الطرق المبتدعة لتربية الأولاد لم تُجرب بعد تجربةً كاملة ، إذ لم تتخرج بعد الاجيال الناشئة من تلك المعامل الجديدة للتربية ، ولم تظهر الدنيا على طباعهم وأخلاقهم وسلوكهم العملي، حتى يُحكم على هذه التجربة الجديدة بالنجاح أو الفشل . ومن ثم لم يئن بعد لأصحابها أن يدّعوا كونهم قد وجدوا في هذه الطرق الجديدة بدلاً صحيحاً لعاطفة الأمومة ولا يزال من الحقيقة القائمة أن مثوى التربية الفطرية للولد هو حضنُ أمه ليس غيرُ .

ومن هذا البيان يستطيع أن يفهم كل ذي عقل سليم ، أن الرجل والمرأة ، وإن فرض أنهما متكافئتان في القوة الجسدية والاستعداد الذهني، فلم تحمل الفطرة عليهما مع ذلك ، واجباتٍ متساوية . وذلك أن الرجل لم يُحمل عليه من خدمة بقاء النوع غير أن يلقي بذره في الحرث، ثم يروح لسبيله حتى يعمل فيما يشاء من شعب الحياة . والمرأة ـ بخلاف ذلك ـ قد حُملت معظم أعباء تلك الخدمة. وللنهوض بهذه الأعباء هي تعد مذ تكون مضغةَ لحم في بطن أمها ، ولهذا الغرض يقوّم هيكلها الجسدي ، ولهذا ـ لا غير ـ تنتابها مدة شبابها وكهولتها نوبات الحيض ، التي لا تدعها أهلا للقيام بتبعة جسيمة أو بجهد عقلي أو بدني لثلاثة أيام أو سبعة عشر من كل شهر . ولهذا الغرض نفسه تعاني المسكينة متاعب الحمل وما بعد الحمل طول سنة كاملة تظلُّ خلالها معلقة بين الصحة والمرض ، ثم لهذا كله تمرّ عليها سنتان من الرضاعة ، تسقي فيها الزرع الانساني بدمها وترويه من ينابيع ثدييها . وتقضي بعد ذلك أعواماً ذوات عدد ، في التربية الابتدائية لولدها ، تحرم نفسها في أثنائها نومةَ الليل وراحة النهار ، وتؤثر الجيلَ

الآتي على راحتها ومتعتها وبهجتها ورغباتها وعلى كل مايعز عليها . فإذا كان الواقع على ماوصفنا ، فانظر ماذا يقتضيه الإنصاف في أمر المرأة ؟ هل من الانصاف اليها أن تُطالب بالقيام بتلك الواجبات الفطرية التي لايشاركها فيها الرجل بطبعه ، ثم يُحمل عليها فوق ذلك مثل مايحمل على الرجل من واجبات التمدن ، التي قد أعفي هذا لاجل القيام بها عن جميع واجبات الفطرة ؟ فيُفرض عليها أن تتحمل كل تلك المصائب التي تتجشّمها الفطرة ، ثم تخرج من البيت كالرجال لتعاني مشقّة الكسب ، وتكون معهم على قدم المساواة في القيام بأعمال السياسة والقضاء والصناعات والمهن والتجارة والزراعة وإقامة الأمن والدفاع عن حوزة الوطن . وليس هذا فحسب ، بل يكون عليها بعد ذلك أن تغشى المحافل والنوادي ، فتُمتّع الرجال ببراعة جمالها وأنوثتها وتهيىء لهم أسباب الخلاعة والمجون واللذة والمتعة ! أما والله إنه ليس من الانصاف ، بل هو عين الظلم والعدوان وليس بمساواة بين الصنفين ، بل هو عبث صريح بالمساواة . وإنما الذي يقتضيه الانصاف ، هو أن الصنف الذي قد كلفته الفطرة أعباء جساماً ، لايكلف من أعمال التمدن إلا ماهو خفيف المحمل ، وأن الذي لم تكلفه الفطرة بشيء عظيم ، يحمل عليه من واجبات التمدن ماهو أهم وأثقل وأدعى للجهد والتعب ، ويكون أيضاً قوّاماً على الاسرة يرعاها ويربيها .

وليس تكليف المرأة بالواجبات الخارجية ظلماً لها فحسبُ ، بل الحقيقة أنها ليست أهلا كل الأهلية للقيام بواجبات الرجال . وإنما ينهض بها من العاملين من كانت قوة عملهم ثابتةً لاتفتر ، وكانوا يستطيعون أن يؤدوا

واجباتهم بقدرةٍ سواء على الدوام ، وكانت قواهم العقلية والجسدية مما يوثق به ويُعتمد عليه . وأما من كن عرضةً في كل شهر لنوبات الاذى الذي يُذهب كل قدرتهن وكفاءتهن ، أو يقلّل منها جداً ، وكانت قوة عملهن في هبوط دون المستوى المطلوب مرة بعد أخرى ، فهيهات أن يستطعن النهوض بتلك الواجبات . ولفهم ذلك تمثل في خيالك جنداً أو أسطولاً بحرياً من النساء ، ينزل معركة ، وإذا رُبع الجنود كاد يتعطل عن العمل لاذى المحاض ،وسدسها لايستطيع الجهد والعمل الشاق بسبب الحمل ، وجانب غير قليل منه قد لزم الفراش لآلام النفاس . فماذا ترى هذا الجند يفعل في ميدان القتال ؟ ولعلك تفند هذا المثال بقولك : إن خدمة الدفاع والقتال لاريب أشق الخدمات ، ولا نقول إن المرأة لها بكفء.ولكن قُل لي بربك أي الأعمال من الشرطة والقضاء والإدارة والسفارة والصناعة والمهنة والتجارة وأعمال سكك الحديد هيّن سهل لايستلزم تبعاته قوةَ عمل ثابتة موثوقاً بها ؟! لذلك إن الذين يريدون أن يقلدوا المرأة أعمال الرجال ، فكأني بهم لايريدون إلا إحدى ثلاث : إما أن يبدّلوا جميع النساء غيرَ النساء فيقضوا على النوع قضاء ، أو يلتقطوا جزءاً من طبقة الإناث في كل جيل ، فيجردوهن من طبيعة الأنوثة ، أو يحطوا من مستوى الجدارة والاهلية لجميع شؤون التمدن عامة !

ومهما اخترتَ من هذه الصور فلا شك في أن إعداد المرأة لوظائف الرجال مما يناقض وضْع الفطرة ومقتضاها ، ولا نفع فيه للانسانية أو

المرأة نفسها . ولأن المرأة قد خُلقت لأجل الولادة والتربية بدلالة علم الحياة ، فقد حبتها الفطرةُ في الناحية النفسية أيضاً تلك الملكات التي هي ملائمة لوظيفتها تلك ، كالحب والحنان والرحمة والشفقة ورقة القلب وذكاء الحس ولطف العواطف . ثم لانه قد وضع الرجل في الحياة الجنسية موضع (الفعل) ووضعت المرأة موضع (الانفعال) فقد رُكّبت فيها — غالباً — تلك الصفات التي تُعدها للعمل في جوانب الحياة الانفعالية . ففيها اللين والمرونة بدلَ الشدة والصلابة ، وفيها التأثر بدل التأثير ، والانفعال بدل الفعل ، وفيها الخضوع والمسايرة بدل الثبات والمقاومة . وفيها الفرار والامتناع والإحجام بدل الجراءة والجسارة والإقدام . وهل يكون للمخلوق المتصف بهذه الصفات أن يصلح للاعمال وينجح في دوائر الحياة التي تقتضي الشدة والتحكم وقوة المعارضة وهدوء الاعصاب ، وتحتاج إلى قوة حكم عادلة رزينة ، بدلَ رقةِ قلب وسماحةِ عاطفة ، وإلى عَزْم متصلب ورأي غير مجامل ، بدل قلب متعطف وصدر حان . . ؟ ! الحق أن إقحام المرأة في مثل هذه الشعب للتمدن تضييع لها وتعريض لتلك الشعب نفسها للضياع .

ثم إن قيام المرأة بتلك الاعمال ليس لها فيه ارتقاء ، بل هو مَظنة هبوطها وسقوطها . إذ أن ارتقاء طبقة من الناس لا يكون بأن تُمحق فيها المؤهّلات الطبيعية ، وتُستعاض منها على وجه التصنُّع ، مؤهّلات أخرى لم تؤتها من قِبَل الفطرة ، بل ارتقاؤها في أن تُنمى فيها المؤهلات الطبيعية وتهذب وتصقل ، وتتاح لها الفرص للعمل ، على أحسن وجه ممكن .

وليس المرأة في ذلك التصنع والتكلف نجاح أو فلاح ، بل هي أجدر فيه بالخيبة والفشل . لأن جانباً من جانبي الحياة الانسانية يقوى فيه الرجال ويضعف النساء ، والجانب الآخر تقوى فيه النساء ويضعف الرجال فإذا أريدبالنساء،أن يسابرن الرجال في مضمار هُن فيه أضعف منهم وأعجز ،فلابد أن يؤدي ذلك إلى تأخر النساء عن الرجال وتخلفهن وراءهم لأبد الآباد . وإنك مهما حاولت واجتهدت ، فلن تجد من صنف الاناث نابغة واحـــدة من أمثال أرسطو وابن سينا وكانت وهيجل وشيكسبير والخيام والإسكندرونابليون وبسمارك وصلاح الدين الايوبي ونظام الملك الطوسي ، كما أنـه لايمكن لرجال هذه الدنيا أجمعين - مهما احتالوا واجتهدوا - أن يخرجوا من صنفهم أماً واحدة من النمط البسيط.

وليس فيه منفعة للتمدن نفسه ، بل فيه له كل المضرة . لأن الحياة والحضارة الإنسانيـــة حاجتها إلى الفلظة والشدة والصلابة كمثل حاجتها الى الرقة واللين والمرونة،وافتقارها إلى القوّاد البارعين والساسة والاداريين الحازمين كافتقارها إلى الامهات المربيات والزوجات الوفيات والنساء الصُنّع المدبرات.فأيّما واحدة من هاتين الطبقتين أسقطتها وأهملتها، جررت على التمدن في كل حال بالغ الضرر والخسارة .

فهذه قسمة عادلة قد شاءتها الفطرة بين صنفي الانسان . ويدل على هذه القسمة ويؤيدها كلٌ من علوم الاحياء والتشريح والنفس والعمران . وإن كون الولادة والتربية مقصورة على المرأة وحدها هو الحقيقـة

الفيصل التي تخصُّ لها دائرةً للعمل في التمدن ، وما كان لتدبير مصطنع أن يبدل قضاء الفطرة هذا وليس التمدن الصالح الا الذي يقبل ـ أولا ـ حكم الفطرة كما هو ، ثم يضع المرأة موضعها الصحيح ، وينزلها منزلة العزّ والكرامة في الاجتماع ، ويقر لها حقوقها التمدنية والاقتصادية الشرعية ، ويجعل لها البيت وللرجل ماوراءه ، وإياه يجعل قوّاماً على الاسرة . فكل تمدنٍ يخل بهذه القسمة الطبيعية بين الصنفين أو يمحوها محواً ، قد يظهر ببعض المظاهر الخلابة من المجد والرقي المادي حيناً من الزمان ، ولكنه إلى البوار والدمار لامحالة لأن المرأة إذا كلفت القيام بالتبعات الاقتصادية والتمدنية مثل الرجل فلا بد أن تضع عن نفسها واجبات الفطرة . ومآل ذلك خراب التمدن ، بل خراب الانسانية نفسها . ثم إن المرأة إن خرجت على طبعها وفطرتها واجتهدت لأن تقوم بأعمال الرجال كلها ، فإنها قد توفق فيه بعضَ التوفيق ولكن الرجل لا يمكنه بحال من الأحوال أن يستأهل لولادة الاولاد وحضانتهم وتربيتهم .

وإذا روعيت هذه القسمة الطبيعية بين الصنفين ، كان تنظيم الاسرة وتعيين وظائف الرجل والمرأة في الحياة على ما يأتي من الاصول لامحالة :

١ — إلى الرجل تكون عيالةُ الاسرة ورعايتها وحمايتها ، والقيام بما هو عسير شاقٌ من خدمات التمدن فيكون تعليمه وتربيته على النحو الذي يجعله أنفع ما يكون لهذه المقاصد .

٢ — وإلى المرأة تكون تربية الاولاد وواجبات البيت ، والعمل على جعل الحياة المنزلية بحبوحة أمن ودعة وراحة . فتُحلى بأحسن ما يكون من التربية والتعليم لاجل قيامها بهذه الخدمات .

٣ - ولاستبقاء نظام الاسرة ووقايته الفوضى والشتات ، لا بد أن يُجعل لأحد من افراد الاسرة الحكم والأمرُ على سائرهم ، في ضمن حدود القانون ؛ حتى لا تظل الاسرة كقطيع من الغنم بلا راعٍ . وذلك الفرد الآمر لا يمكن أن يكون من غير صنف الرجال . لان عضو الاسرة الذي تكون حالته العقلية والنفسيّة عرضةً للتغيّر ، مرةً بعد أخرى ، في أيام الحيض وفي زمان الحمل ، لا يصلح أبداً لاستعمال سلطة الحكم والامر .

٤ — يجب أن نقرّر في نظام التمدن التحفظات اللازمة لإدامة هذه القسمة والتنظيم في وظائف أفراد الاسرة ، حتى لا يستطيع السفهاء أن يخلطوا بحماقتهم بين دوائر أعمال الرجل والمرأة ، فيُدخلوا الفوضى على هذا النظام التمدّني الصالح .

مَظاهِرُ التّقصيرِ الإنساني

قد اجتهدنا في الفصل السابق أن نبيّن بالتحقيق العلمي الخالص والمشاهدات والتجارب العلمية ماذا ينبغي أن تكون الاركان الرئيسية في حدود الشؤون الجنسية في نظام معتدل للتمدن قائم على مراعاة مقتضيات فطرة الانسان ودلالات وضعه الذهني وتكوينه الخَلقي . ولم يُذكر في هذا البحث شيء من قبيل المتشابهات أو مما يكون لقائلٍ فيه مقال ؛ بل كل ما قيل فيه هو من مُحكَمات العلم والحكمة ، ومما يعرفه أولوا العلم والالباب . ولكن من عجائب العجز الانساني أن كل ما وضعه الانسان نفسه من نُظُمٍ للتمدن ، لم يُراعَ فيه دلالات الفطرة المعلومة المعروفة هذه ، على وجه الاستقصاء والتناسُب المرضيّ . وظاهرٌ أن الانسان لا يجهل مقتضيات فطرته نفسه ، ولا تعمى عليه أوضاعه الذهنية وخصائصه الجسدية . إلا أنّه من الواضح البيّن مع ذلك ، أنه لم يُوفّق إلى الآن لوضع نظام معتدل للتمدن ، مُراعىً في مبادئه ومناهجه كل تلك المقتضيات والخصائص ، وكل المصالح والمقاصد باتّزان كامل .

السبب الحقيقي لهذا التقصير

والسبب في هذا التقصير هو الذي قد أشرنا إليه في أول الكتاب . وذلك أن من الضعف الطبيعي في الانسان أنه إذا نظر في مسألة من المسائل ، فلا يستطيع أن يشمل بنظره جميع نواحيها جملةً واحدةً . بل تستهويه أبداً ناحيةٌ منها أكثرَ من غيرها ، وتجذبه إلى نفسها دون سواها . فإذا هو مال إلى جانبٍ ، عَميَ عليه ما عداه من الجوانب ، أو أغفلها عن عمدٍ . وهذا الضعف الانساني بادٍ حتى في شؤون حياته الجزئية والفردية ، فكيف يمكن أن تنجو من أثره مسائل التمدن والحضارة الواسعة العميقة ، التي كل واحدة منها ذات نواحٍ متعدّدة ، ظاهرة وخفيّة . ولا ريب أن الانسان قد شُرّف بمواهب العقل والعلم ، ولكن الحق أنه لا يهديه مجرّد التعقّل ، في عامّة شؤون حياته ، بل تميل به عواطفه ونزعاته إلى جانب بعينه . فإذا مال إليه وآثره على غيره يمد إلى العقل يستدلّ به ، وإلى العلم يستعينه . وهنالك إن أراه علمُه هو جوانبَ المسألة الاخرى ، ونبّهه عقلُه هو على ميلانه إلى شقٍّ دون آخر ، لم يُذعن بخطئه ولم يُعنَ بتصحيحه . بل عاد يكره العلم والعقل على أن يزوّداه بالحجج والتأويلات لتبرير نزعته تلك .

بضعة امثلة بارزة

وهذا الضعف الانساني - في ميله إلى الشقّ الواحد - يظهر على

أتمّ إفراطه وتفريطه في المسألة الاجتماعية التي نحن بصدد البحث فيها الآن :

ففريق مال إلى جانب الاخلاق والروحانية، وغلا فيه إلى أن جعل العلاقة الجنسيّة بين الصنفين في ذاتها شيئاً يُعاب ويُزدرى . وهذا الانحراف عن القصد تجده في ديانة (بوذا) والنصرانية وفي بعض الديانات الهندكية . ومن تأثيره ما يُوجد في جزء كبير من هذا العالم من اعتقاد أن العلاقة الجنسية بذاتها إثم ، سواء كانت في دائرة الزواج أو خارجها فماذا كانت نتيجته ؟ كانت النتيجة أن جعلت حياة الرهبنة ، المنعزلة غير المتمدنة ، غايةَ الاخلاق ومقصودَ التزكية النفسية ! وأضاع كثير من أفراد النوع الانساني - رجالاً ونساءً - مواهبهم العقلية وقواهم الجسدية في مجانبة الفطرة ، بل في محاربتها ونضالها . والذين استجابوا منهم لدواعي الفطرة ، ومارسوا العلاقة الجنسية فيما بينهم ، لم يفعلوها إلاّ متحرّجين، كمن يقضي لنفسه حاجةً مستقذرةً على كُرهٍ منه . ومن البديهي أن مثل هذه العلاقة لا يمكن أن تكون بين الصنفين رابطة المودّة والتعاون، ولا هي جديرة بإنشاء تمدن صالح ماض إلى الرقيّ. وليس هذا فقط، بل هذا التصور الخلقي هو الذي أدّى إلى حطّ منزلة المرأة في نظام الاجتماع، إذ جاء عشّاق الرهبانية يحكمون على النزعة الجنسية بأنها وسوسة الشيطان، وعلى محرّك هذه النزعة - وهي المرأة - بأنّها حبالةُ إبليس. وجعلوها مخلوقاً نجساً يجب أن يحتقره كل من يحبّ لنفسه التزكي والطهارةَ . وهذا التصوّر

لمنزلة المرأة هو الغالب ، في الآداب النصرانية والبوذية والهندكية . وتستطيع أن تقدّر ما عسى أن يكون من مكانة المرأة في النظام الاجتماعي الذي يُشاد على هذا التصوّر .

وفريق ، على عكس ذلك ؛ راعى للانسان دواعيه الجسدية ، وغلا فيه غلواً جعله يتعدى مقتضيات الطبع الحيواني فضلاً عن الطبع الانساني . وقد اتضح هذا الافراط في التمدن الغربي وضوحاً لا يمكن معه ستره ، مها حاول المحاولون . فالزنى ليس بجريمة في قانونه ، وإنما الجريمة هي ما كان معه إكراه أو تدخلٌ في حق شرعي لشخص آخر . وأما إذا كان الزنى لا يقترن بأحدى هاتين الجريمتين ، فإنه ليس في ذاته جريمة تستوجب العقاب ، وليس حتى بعار خلقي يستحيا منه . ولو وقف التمدن الغربي عند هذا الحد ، لكان ذلك منه وقوفاً عند حدود الفطرة الحيوانية ، ولكنه تجاوزه إلى أن أبطل القصد الحيواني أيضاً من العلاقة الجنسية ، وهو التناسل وبقاء النوع ، بما اتخذ هذه العلاقة أداة المتعة واللذّة الجسدية . ولما بلغ الافراط بالانسان إلى هذا الحد ، عاد هذا المخلوق الذي خلق في أحسن تقويم مردوداً أسفل سافلين . فانحرف أولاً عن فطرته الانسانية ، فاسترسل في العلاقة الجنسية المطلقة كالتي تكون في الحيوانات ، ولا يمكن أن تكون أساساً لتمدن . ثم انحرف عن فطرته الحيوانية أيضاً فحال بين العلاقة ونتيجتها الطبيعية ـ وهي التوليد ـ حتى لا ينشأ في العالم أجيال تخلفه وتبقي من بعده نوعه .

وقوم ثالث استشعروا بخطورة الاسرة ، فنظموها بقيود وحدود ،

جعلت كل فرد من أفرادها كالاسير المغلول، ولم يرعوا الموازنة بين الحقوق والواجبات . ومن أمثلة ذلك البارزة ، نظام الاسرة الهندكي ، الذي لا حرية فيه للمرأة في إرادتها أو عملها ولا حق لها في التمدن والمعاش ، وهي خادم في كل حال ، بنتاً أو زوجة أو أما ، وإذا كانت أيماً فهي أحط شأناً وأسوأ حظاً من الخادم ، وكأنها حي ميت ، عليها كل واجب وليس لها أي حق . فحاول القوم في هذا النظام الاجتماعي أن يجعلوا المرأة من بدء نشأتها نوعاً من بهيمة الانعام ، حتى لا ينشأ في نفسها الشعور بذاتها أصلا ولا ريب أنهم أحكموا بذلك أركان الاسرة ، وأصبح نشوز المرأة معه من المستحيل ، ولكن هذا النظام بما حط وصغّر من شأن النصف الكامل من جماعة الانسان ، قد أقام في سبيل نهوضه وارتقائه عقبة جسيمة ومفسدة هائلة ، عاد أهنادك بأنفسهم يحسون بسوء عواقبها ومضارها.

وجماعة أخرى ، قاموا لرفع مكانة المرأة ، ومنحها الحرية في الارادة والعمل ، فتغالوا في ذلك إلى أن أفسدوا نظام الاسرة . فعادت الزوجة حرة مختارة ، والبنت مطلقة العنان والابن مخلى له في الرهان ، والعائلة كالقطيع الشارد ، « لا راع يذود ولا حظيرة تؤوي » ، ولا سبيل لاحد أفرادها على الآخر . فليس للزوج أن يسأل زوجته أين باتت البارحة ؟ ولا للاب أن يحاسب ابنته على القرناء الذين تخالطهم أو الامكنة التي تختلف إليها . والزوجان في حقيقة الامر شريكان سويان يؤلفان الاسرة على شروط متساوية بينهما ، ومنزلة الاولاد في هذه (الشركة) كمنزلة

الاعضاء الصغار . وقد يهدد نظام هذه الاسرة المتآلفة أدنى خلاف في الطبائع والامزجة ، لخلو هذه الجماعة من عنصر الاطاعة الذي هو لازم لصون كل نظام من التشتت . وهذا هو مثل الاجتماع الغربي الحديث ، ذلك الاجتماع الذي يدعي حاملو لوائه أنهم رسل الهدى في شؤون التمدن والعمران . ولكنك إن شئت أن تكشف عما وراء (رسالتهم) هذه . فانظر في تقرير من تقارير إحدى محاكم الزواج والطلاق أو إحدى محاكم جنايات الاطفال(Juvenile Courts) في أوربة وأميركا، تتضح لك جلية أمرهم . فهذه الارقام التي قد نشرها أخيرا مكتب الوزارة الداخلية بانكلترا تفيد أن الجرائم إلى الزيادة كل يوم في صغار الابناء والبنات . ومن أسبابها الخاصة ارتخاء النظام التأديبي في الاسرة .(١)

إن غريزة الحشمة والحياء التي ركبت في الانسان ولا سيما في فطرة المرأة ، ولم يصب في فهمها أي تمدن إنساني في القديم أو الحديث ، ولا وفق لرعاية مقتضياتها في اللباس وفي اساليب الحياة الاجتماعية . ومع أن هذا الحياء قد عد من أحسن فضائل الانسان ولا سيما المرأة ، لم يظهر قط في لباس الانسان ومظاهر اجتماعه بصورة قاعدة مطردة أو طريق عقلي . ولم يمن أحد بتعيين الحدود الصحيحة لستر العورات ولا بمراعاتها بسوية .. ولا قد حددت صور مراعاة الحياء في أزياء الذكور والاناث وفي آدابهم وعاداتهم بحسب مبدأ أو ضابطة . ولم تضبط حدود الكشف

(١) انظر : Blue Rook of Crime Statistics for 1934

والستر بين رجل ورجل . وبين امرأة وأخرى ، وبين رجل وامرأة، على وجه معقول متناسب . وعلى قدر ما كان هذا الامر خطيراً من جهة التهذب والثقافة والاخلاق العامة، كانوا في غفلة عنه وإهمال له فأحالوا جانباً منه على العرف والتقاليد، والحال أن التقاليد تتبدل بتبدل الاوضاع الاجتماعية ووقفوا الجانب الآخر على نزعات الافراد الشخصية واختيارهم. والواقع أن الاشخاص والافراد لا يتساوون في غريزة الحياء والأدب، ولا أوتي كل منهم من سلامة الذوق وإصابة الاختيار ما يؤهله لان يختار بنفسه طريقاً يلائم غريزته تلك . وكان من جريرة ذلك أن أصبح يوجد في لباس الجماعات المختلفة وطرق اجتماعهم خلط عجيب من الوقاحة والحياء ، يخلو من كل مناسبة عقلية ومن كل نسق واطراد ، كما يخلو من التزام أي مبدأ من مبادىء الاخلاق . أما الشرق فبقي الامر فيه مقصوراً على تنافر الازياء وعدم تناسبها ، ولكنه لما طغى هذا العنصر من الوقاحة والابتذال في أهل الغرب . نسخوا آية الحياء من أخلاقهم نسخاً وجعلوه اسماً بلا معنى . وأصبح من نظريتهم الحديثة المبتكرة ان الحياء ليس بغريزة طبيعية في الانسان ، بل هو شيء ناتج عن اعتياده التستر باللباس . وليس لستر العورات ومراعاة الحياء من صلة بالتهذب والاخلاق أصلا . « بل هو في الحقيقة عامل من العوامل المحركة لغريزة الشهوة في الانسان[١] » . ومن

---

(١) هذه بالحرف هي الفكرة التي عبر عنها الاستاذ ويستر مارك (Wester marck) في كتابه : « الزواج الانساني » «The History of Human Marriage»

فالمعاني العملية لهذه الفلسفة الماجنة ما يرى عندهم اليوم من الازياء الفاضحة ومباريات الجمال والرقص العريان، والصور المكشوفة والعرض المسرحي الفاحش . والدعوة النامية إلى التجرد : (Nudism) ورجعة الانسان إلى البهيمية الخالصة .

ومثل هذا الانحراف عن نقطـة الاعتدال تجده أيضاً في الجوانب الاخرى لهذه المسألة :

فالذين عظموا شأن العفة والاخلاق ، ما حفظوا المرأة باعتبارها وجوداً حيوانياً ذا عقل وشعور ، بل حفظوها كحفظ الجماد من النفائس والاعلاق . فجعلوا أمر تعليمها وتربيتها وراء ظهورانهم ، مع أن أهميتـــه للمرأة لا تقل عن أهميته للرجل ، لمصلحة الحضارة والتمدن. والذين اهتموا ـ بخلاف ذلك ـ بتربيتها ، أهملوا العفة والاخلاق كل الاهمال ، ومهدوا أسباب التمدن والحضارة من جهة أخرى .

وأما الذين راعوا القسمـة الطبيعية في وظائف الجنسين ، فما كلفوا المرأة من واجبات التمدن والاجتماع إلا تربية الاولاد وتـدبير المنزل ، وحملوا على الرجل أعباء الكسب والعمل ولكنهم ما استطاعوا التزام التوازن في هـذه القسمة العادلة . فسلبوا المرأة جميع حقوقها الاقتصادية ، ولم يجعلوا لها حقاً في الميراث ، وإنما حصروا كل حقوق الملك في الرجل وحده . وبـذلك جعلوا المرأة عاجزة قعيدة من الجهة

الاقتصادية، وأنزلوها من الرجل منزلة الخادم من سيدها . وقام بإزاء هذه الطائفة طائفة أخرى أرادت أن تتدارك هذا الحيف والظلم، وترد إلى المرأة حقوقها التمدنية والاقتصادية ، ولكن هؤلاء وقعوا في خطأ آخر ، وهو أنهم، لغلبة المادية على أذهانهم، زعموا أن إنقاذ المرأة من الاستعباد التمدني والاقتصادي، معناه أن تجعل هي ايضاً - كالرجل - عضواً كاسبا في الاسرة، وتشرك به في القيام بجميع واجبات التمدن. وكانت هذه الطريقة رائقة جذابة من الوجهة المادية، لانها لم تخفف من اعباء الرجل وكفى بل ضاعفت أسباب المعيشة واكتساب الثروة ، لاشتراك المرأة مع الرجل في الكسب ، وفوق ذلك هيأت لتسيير دفة المعيشة والعمران القومي ضعفي الايدي والاذهان العاملة ، مما زاد في سير ارتقاء التمدن بغتة ، وبدل مشيه خبباً. ولكن كان من العاقبة المحتومة لهذا الرجحان المفرط إلى الجانب المادي والاقتصادي أن عميت عليهم الجوانب الاخرى التي لم تكن اقل خطورة من هذا . فطووا الكشح عن كثير من النواحي عن عمد . وخالفوا قانون الفطرة عن بينة وعلم ، وهو ما يشهد به تحقيقهم هم ، ثم ادعوا إنصاف المرأة ومنحها حقوقها الواجبة ولكنهم في الحقيقة ظلموها وجاروا عليها وهذا ما تدل عليه تجاربهم ومشاهداتهم . وأرادوا أن يساووا بينها وبين الرجل ولكنهم في الواقع أخطؤوا المساواة وافسدوا بينها الميزان، ومصداق ذلك علومهم وفنونهم أنفسهم . ونشدوا ، بعد ذلك إصلاح التمدن والعمران ، بيد أنهم هيؤوا في نفس الامر اسبابا حائلة لخرابه مما تعلم تفاصيله من الاحداث والارقام التي قد سجلوها

بأنفسهم . ومن البديهي أنهم ما كانوا وليسوا يجهلون هذه الحقائق كلها .
بل الامر، كما ذكرنا آنفاً ، أن من الضعف الانساني أنه إن تصدى لوضع قانون لحياته ، لا يستطيع أن يراعي جميع المصالح مراعاة معتدلة متزنة، لانه يجرفه تيار أهوائه ورغباته إلى جانب من جوانب الافراط . وإذا هو مال إلى جانب واحد ، فكثير من الجوانب تعمى عليه ، وكثير من المصالح والحقائق يغمض هو نفسه عنها عينيه! وليس أدل على هذا التعامي والاغفال المتعمد من شهادة أعمى من انفسهم . فهذا العالم الطبيعي الروسي المتاز انطون نيميلاف Anton Nemilov الذي هو شيوعي خالص العقيدة، يسوّد مئتي صفحة من كتابه (The Biological Tragedy of Woman)[1] لاثبات عدم المساواة الفطرية بين الرجل والمرأة بتجارب العلوم الطبيعية ومشاهداتها، ثم يعقّب بنفسه على كل هذا التحقيق العلمي بقوله : « إذا قيل في هذه الايام: إن المرأة يجب أن تمنح في دائرة التمدن حقوقاً محدودة لم يؤيده من الرجال إلا الأقل . ونحن بأنفسنا من يخالفون هذا الرأي . ولكن ينبغي ألا نخدع أنفسنا بزعم أن إقامة الرجل والمرأة في الحياة العملية أمرٌ هين ميسور . الحق أنه لم يجتهد أحد في الدنيا لتحقيق هذه المساواة بين الصنفين ، مثل ما اجتهدنا في روسيا السوفيتية ولم يوضع في العالم من القوانين السمحة البريئة من التعصب ، في هذا الباب مثل ماوضع عندنا . ولكن الحق ، مع ذلك كله ، أن منزلة المرأة

(١) نشرت ترجمة هذا الكتاب باللغة الانكليزية في لندن سنة ١٩٣٣ م

قلما تبدلت في الاسرة ... (الصفحة : ٧٦) ولا في الاسرة فحسب ، بل انما تبدلت في المجتمع أيضاً . فيقول في مكان آخر :

« لا يزال تصور عدم مساواة الرجل والمرأة ـ ذلك التصور العميق ـ راسخاً ، لا في قلوب الطبقــات ذات المستوى الذهني البسيط ، بل في قلوب الطبقات السوفيتية العليا أيضاً . بل النساء أنفسهن قد بلغ من تأثير هذا التصور في نفوسهن ، أنهن إذا عوملن معاملة المساواة الكاملة مــع الرجال ، يعــددن ذلك حطاً من مكانة أولئك ، ويجدن لهم فيه معــاني التخنث . ولو أننا تتبع في هذا الامر أفــكار عالم طبيعي أو مصنف أو طالب أو تاجر أو شيوعي خالص العقيدة ، لانكشف لنا عن غير بعد ، أنه لا يرى المرأة كفئاً له أو نداً عائله ، وكذلك إن نظرنا في رواية من الروايات العصرية ، مهما كان مبلغ كاتبها من حرية الفكر ، فلا بد أن نقع فيها على عبارات تنم على هذا التصور بشأن المرأة . (الصفحة ١٩٤ـ ١٩٥) . وما السبب في ذلك ؟

«السبب في ذلك أن المبادىء الانقلابية تصطدم في هذا المقام بأمر واقع هام ، هو أنه لامساواة بين الجنسين باعتبار علم الاحياء (Biology) ولم تكلفها الفطرة بأعباء سواء » (الصفحة ٧٧) .

ودونك عبارة أخرى تساعدك على استنباط الحقيقة :

« الحق أن جميع العمال (Workers) قد بدت فيهم أعراض الفوضى الجنسية (Sexual Anarchy) . وهــذه حالة جد خطرة تهدد النظام

الاشتراكي بالدمار ، فيجب أن تحارب بكل ما أمكن من الطرق ، لأن المحاربة في هذه الجبهة ذات مشاكل وصعوبات . ولي أن أدلكم على آلاف من الأحداث، يعلم منها أن الاباحية الجنسية (Sexual Licentiousness) قد سرت عدواها، لا في الجهال الاغرار فحسب ، بل في الافراد المثقفين من طبقة العمال أيضاً » (الصفحة ٢٠٢ - ٢٠٣) .

فانظر ما أبين شهادة هذه العبارات وما أوضحها . فهم بجانب يعترفون بأن الرجـل والمرأة لم تجعلهما الفطرة نفسها متساويين ولم تنجح المساعي المبذولة لتحقيق تلك المساواة بينهما في الحياة العملية ؛ وأيما قدر أقيم بينهما من هذه المساواة على الرغم من مقتضيات الفطرة، كان من عواقبه أن اندفع تيار الفواحش ، وأمسى نظام المجتمع بأسره في خطر منه مهيب . وبجانب آخر يدّعون ألا تحدد حقوق المرأة في النظام الاجتماعي بحدود، وأنـه إن فعل ذلك ليخالفنّه . فأي دليل أقوى من ذلك على كون الانسان العارف البصير ، لا الجاهل الغبي قد بلغ من اتباعه لهواه ونزعاته أن يكذب تحقيقه هو ، ويجحد مشاهداته نفسه . فيغمض عينيه عن كل الحقائق ويميل بهواه إلى جانب بعينه فيوغل فيه إلى نهايته ، مهما كان من قوة الحجج التي تقدمها علومـه ، ومن عظـة الاحداث التي تسمعها أذناه وعبر النتائج التي تشهدها عيناه . في التنديد بافراطه ذلك . « أفَرَأيتَ مَنِ اتَّخَـذَ إلَـٰهَهُ هَوَاهُ وأضَلَّهُ اللهُ عَلى عِلمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمعِه

وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ، فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ ؟ أَفَلا تَذَكَّرُونَ » ! (الجاثية : ٢٣) .

ميزة الاعتدال في قانون الاسلام

وهناك في هذا العالم التائه بين الافراط والتفريط ، نظام تمدني وحيد ، يمتاز بغاية التوازن والاعتدال ، ويراعي كل ناحية ـ مهما دقت وصغرت ـ من نواحي الفطرة الانسانية ، ويستند إلى المعرفة التفصيلية الكاملة بتكوين الانسان وجبلته الحيوانية وطبعه الانساني وخصائصه النفسية ودواعيه الفطرية ، ويحقق مقصود الفطرة من خلق كل شيء من ذلك تحقيقاً تاماً لا يفوت حتى أهون المقاصد وأبسطها . ثم تتحد فيه هذه المقاصد جميعاً وتتعاون على تحقيق ذلك المقصد الرئيسي الأعلى الذي هو غاية حياة الانسان نفسه . ويبلغ هذا الاعتدال والاتزان والتناسب مبلغاً من الكمال ، ليس في وسع الانسان أن يخترعه بعقله أو جهده . أما أن يكون القانون من وضع الانسان ثم لا يوجد في ناحية من نواحيه ميلان أو رجحان ، فما لم يمكن قط ولن يمكن أبداً . وذلك أن **الانسان العامي لا يستطيع حتى أن يفهم كل الفهم مصالح هذا القانون المعتدل المتزن الحكيم ، فضلاً عن أن يقدر على وضعه ، مالم يكن أوتي طبعاً سليماً** وما لم يكتسب العلوم ، ويمارس التجارب في ذلك القانون مدة من السنين ، ثم يظل أعواماً متوالية يفكر فيه ويتأمل . وإني لا أمدح هذا القانون

لكوني قد آمنت بالإسلام . بل الامر أني ما آمنت بهذا الدين إلا لأني وجدت فيه كمال التوازن والتناسب وحسن الملاءمة لقوانين الفطرة ، مما قد جعل قلبي يشهد بأن واضع هذا القانون هو الذي قد فطر السموات والارض ، وهو عالم الغيب والشهادة . ومن الحق أن لا يهدي الانسانَ التائه في مجاهل الضلال ، إلى طريق القصد والاعتدال ، إلا هو سبحانه . « قُل اللّهُمَّ فاطِرَ السَّماوَاتِ والأرْضِ عالِمَ الغيبِ والشهادةِ أنتَ تحكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِيما كانوا فيه يَخْتَلِفون » (الزمر : ٤٦) ،

★ ★ ★

نظام الاجتماع الإسلامي

النظريات الأساسية

من مزايا الاسلام أنه لا يأتي بقانون إلا ويشير بنفسه إلى حكمته أيضاً . فالقانون الذي قد جاء به لضبط العلائق بين الرجل والمرأة في الاجتماع ، قد بيّن بنفسه ما وراءه من حقائق الفطرة وأصول الحكمة ..

المفهوم الاساسي للزوجية :

وأولى الحقائق التي يكشف عن وجهها الستر في هذا الصدد هي : « وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ » . (الذاريات : ٤٩) فتشير الآية إلى عموم القانون الزوجي (Law of Sex) وشموله ، ويُعلن صانعُ هذا الكون فيها سرَّ صناعته ، فيقول إنه خَلَقَ هذا المَعْمَلَ الكوني على قاعدة الزوجية ، أي أن جميع آلاته وماكيناته قد خُلقت أزواجاً ، وكل ما يُرى من بدائع الصنع في هذه الخليقة ، هو راجع إلى تلك المزاوجة بين الأشياء .

ولنتدبَّر ما هي الزوجية : إن الزوجية في الحقيقة عبارة عن أنه

يكون شيء متّصفاً بالفعل وآخر متّصفاً بالقبول والانفعـــال، ويكون في أحدهما التأثير وفي الآخر التأثر ، وفي هذا العقد وفي ذاك الانعقاد . وهذا الفعل والانفعال والتأثير والتأثّر والعقد والانعقاد بين الشيئين هو علاقة الزوجية بينها . **وهذه العلاقة هي أساس تركيب الأشياء في هذا العالم** ؛ وعلى هذا التركيب يجري نظام هذا الكون . فكل شيء في هذا الكون قد خُلق زوجَين وصنفَين في طبقته . وكل زوجين من الأزواج يرتبطان ـ من حيثُ المبدأ والأصل ـ بهذه العلاقة الزوجية التي يكون أحدهما فيه فاعلاً والآخر قابلاً ومنفعلاً . ولاريب أنه تختلف كيفية هذه العلاقـة باختلاف طبقات المخلوقات ، فمن أنواع المزاوَجة ما يوجد بين العناصر والجواهر ، ومنها ما يكون بين المركّبات غير النامية ، وآخَرُ تراه بين الاجسام النامية ، ونوعٌ تعهده في أنواع الحيوان ، وكل هذه الأنواع من المزاوجة تختلف في نوعيّتها وكيفيّتها ومقاصدها الفطرية ، ولكنها تتّفق في أصـــل الزوجية وجوهرها . ولتحقيق مقصود الفطرة الرئيسي ـ وهو حصول التركيب وحـدوث الهيئة المركّبة ـ في كل نوع من أنواع هذا الوجود ، مهما كانت طبقته ، لا بدّ أن يكون أحـــد زوجيه متّصفاً بقوّة الفعل والآخر بقوة الانفعال .

وإذ تقرّر هذا المفهوم للآية المذكورة آنفاً ، فيستنبط منه الباحث ثلاثة مبادىء أولية للقانون الزوجي :

أولها أن الدستور الذي قد خلق الله تعالى عليه الكون ، والطريق الذي جعله سبباً لسير نظامه هذا ، **لا يمكن أن يكون نجساً مكروهاً ، بل هو - من حيث أصله وجوهره - نظيف محترم . وهكذا ينبغي أن يكون** . وقد يخالفه أعداء هذا النظام ويجتنبونه زاعمين إياه شيئاً بشعاً ممقوتاً ، ولكنّ باريءَ هذا النظام ومالكه لم يكن ليريد أن يقف دولابه وتتعطّل حركته . وإنما مشيئته أن يبقى معمله هذا جارياً في عمله وتبقى آلاته كلها تأتي بوظائفها فيه ؛

والثاني أن صفتي الفعل والانفعال كلتيهما لازم لتسيير هذا النظـام . ولوجود الفاعل والمنفعل أهمية سواء في هذا الكون . **ولا فضيلة للفاعل من حيث هو فاعل ، ولا نقيصة للمنفعل في انفعاله . وكمال الفاعل أن تكون فيه قوة الفعل** والصفات الفاعلية على أتمها حتى يستطيع القيام بواجب الخدمة الفعلية من الزوجية . **وكمال المنفعل أن تكون فيه قوة الانفعال** وكيفيته على أكملها لكي يحسن القيام بالجانب القبولي والانفعالي للزوجية . وكما أنك إن أزلت جزءاً من أجزاء ماكنة صغيرة عن موضعه ، وأردت أن تستخدمه لأمرٍ آخر لم يصنع له ، ما كنت في رأي الناس إلا سفيهاً أخرق ، وكنت حرياً - **أولاً** - بأن لا تنجح في محاولتك هذه ، وإن أبيتَ وجهدتَ في الأمر جهدك ، مازدت على أن تكسر الماكنة كسراً ، كذلك حال ماكنة هذا الوجود الضخمة . فإن أهل السفاهة والخرق قد حدثتهم أنفسهم بأن يضعوا الجزء الفاعل منها مكانَ

الجزء المنفعل ، أو يضعوا الجزء المنفعل مكان الفاعل ، ثم قد يمعنون في حماقتهم إلى أن يقوموا يسعون لتحقيق ذلك ويؤملوا النجاح في سعيهم هذا . ولكن صانع هذه الماكنة ما كان ليفعل مثل فعلهم . وإنما شأنه أن يضع الجزء الفاعل موضع الفعل أبداً ويربّيه حسب ذلك ويضع الجزء المنفعل موضع الانفعال أبداً ويُربّى فيه الملكة الانفعالية ليس غيرُ .

والثالث أنه مما لا شك فيه ان للفعل نوعاً من الفضيلة على القبول والانفعال . ولكن ليس من معاني هذه الفضيلة ان يكون مع الفعل العزّ ومع الانفعال الذُلّ .وإنما هذه الفضيلة من حيث القوة والغلبة والتأثير. فأيّما شيء يفعل فعلاً في شيء آخر ، فانما يفعله لكونه غالباً عليه واقوى منه ولأنّ له قوةً على التأثير فيه . والشيء الذي يقبل فعله وينفعل به ، فما علّة قبوله وانفعاله إلا كونه مغلوباً وضعيفاً ومستعداً للتأثر به .وكما ان حصول الفعل يستلزم وجود الفاعل والمنفعل على السواء كذلك من اللازم ان يكون الفاعل متّصفاً بالغلبة وقوة التأثير والمنفعل بالمغلوبية والقابليّة للتأثر . ذلك انه إن كان كلاهما يساوي الآخر قوةً ، ولم تكن لاحدهما على الآخر غلبة ، لم يتأثر أحدهما بالآخر وانتفى حصول الفعل . فالثوب ، ان كان فيه من الصلابة والقوة مافي الابرة ، لم يكن فعلُ الخياطة ؛ والأرض ، إن لم يكن فيها من اللين والدماثة ماتقبل به فعلَ الرّفش والمحراث فيها ،لمتمكن الزراعة والبناء . ومحصّل القول أن كل ما يقع في هذه الدنيا من الأفعال ، لايمكن أن يتمّ أحد منها

لو لم يكن إزاء كل فاعل منفعل ، ولو لم تكن في المنفعل قابلية للتأثر بفعل الفاعل. لذلك من مقتضى الطبيعة في الزوج الفاعل – من الزوجين – أن تكون فيه الغلبة والشدّة والتحكم ، مما يعبر عنه بالذكورة والرجولية ، لانه لابد له منه لأجل القيام بوظيفته من حيث هو أداة فاعلة . وعلى العكس من ذلك ، من مقتضى الطبع الانفعالي في الزوج المنفعل ان يكون فيه اللين والرّقة والنعومة والتأثر ، مما يقال له الأنوثة والطبع النسوي ، وذلك لأن هذه الصفات هي التي تمكّنه من النجاح في الجانب الانفعالي من الزوجية . فالذين لايعرفون هذا السّر هم فريقان اثنان ، فريق يحسب فضيلة الفاعل الذاتية بمثابة العز والكرامة ، فيعدّ المنفعل في ذاته ذليلاً ممتهناً ، وآخر يُنكر بالمرة تلك الفضيلة المخصوصة بالفاعل ، فيريد أن يُحدث في المنفعل أيضاً تلك الصفات التي يجب ان تكون في الفاعل ولكن الصانع الحكيم الذي قد صنع الجزأين ، ينصبها في ما كنته على نحو يضمن لهما المساواة في الكرامة والعزّ وفي العناية والتربية ، ويضمن لهما مع ذلك ان تنشأ فيهما صفتا الغالبيّة والمغلوبية اللتان يقتضيها الطبع الفاعل والمنفعل في الزوجين ، لتتحقّق غاية المزاوجة بينهما ، لا أن يكونا كحجرين متساويين في الشدة والصلابة ، قد يحتك أحدهما بالآخر ، ولكن لايمكن ان يحصل بينهما امتزاج ، ويحدث بامتزاجها تركيب .

هذه هي المبادىء التي تستخرج من مفهوم الزوجية الابتدائي وإن مجرّد كون الرجل والمرأة زوجين باعتبارهما وجوداً ماديّاً ، يقتضي ان تُراعى

هذه المبادىء فيما بينها من الصلات . وستعلم فيما يأتي ان القانون الاجتماعي الذي قد وضعه فاطر السماوات والارض،قد رُوعيَتْ فيه هذه المبادىء الثلاثة مراعاةً كاملةً .

الفطرة الحيوانية في الانسان ومقتضياتها

وتعال الآن نتقدّم خطوةً في البحث . إن وجود المرأة والرجل ليس وجوداً مادّياً فحسبُ ، بل هو أيضاً وجود حيواني ، ولننظرْ ماهو مقتضى كونهما زوجين بهذا الاعتبار .فيقول الخالق عز وجل : «جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ » (الشورى : ١١) ويقول : « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » (البقرة ٢٢٣).

في الآية الاولى قد ذكر الله تعالى خلق الانسان والحيوان كليهما أزواجاً . وبيَّن الغاية المشتركة بينهما من ذلك بقوله « يذرؤكم فيه » أي أن تجري بعلاقتها الزوجية سلسلةُ التناسُل. ثم أَفرَدَ النوع الإنساني عن سائر الانواع في الآية الثانية وبيَّن ان علاقة ما بين الزوجين من هذا النوع دون سائر الانواع الحيوانية ، كالعلاقة بين الحرث والحارث. وهذه حقيقة أحيائية (Biological Fact) وأحسَنَ تشبيه لصلة المرأة والرجل من وجهة نظر علم الاحياء . ويستنبط الباحث من هاتين الآيتين مبادىء ثلاثة أخرى هي :

١ - أن الله قد خلق الازواج الانسانية كالأزواج الحيوانية ، لكي يجري بعلاقتهم الجنسيّة النسل الانساني ويبقى النوعُ . وهذا من مقتضيات الطبع الحيواني في الإنسان ، مما تجب مراعاته . فالله تعالى لم يخلق النوع الانساني لأجل ان يتمتّع بعض أفراده أنفسهم بمتاع هذه الحياة ثم يموتوا وينقرضوا ، بل هو سبحانه يريد أن يبقى هذا النوع في الارض إلى أجل مسمىً وما ركّب الميلان الجنسي في فطرته الحيوانية إلا حَفْزاً لأزواجه على التواصل والتناسُل ليعمروا بذلك أرضَ الله . فكل قانون ينزل من عند الله ليس من شأنه ان يكبت هذا الميلان الجنسي او يقضي عليه ، ولا أن يدعو إلى احتقاره واجتنابه ، بل لا بد أن يكون فيه مجال لتمكين المرء من الاستجابة لحاجته الفطرية هذه .

٢ - وقد بين الله تعالى بتشبيهه للمرأة والرجل بالحرث والحارث ان العلاقة بين الزوجين الإنسانيّين تختلف عن التي تكون بين الزوجين الحيوانيين . وقد ركبت أجسامها من الوجهة الحيوانية أيضاً - دع عنك الوجهة الإنسانية - تركيباً يستلزم لعلاقتها ذلك الثبات والدوام الذي يكون لعلاقة الحارث بحرثه . فكما ان الحارث لا ينتهي عمله في الحرث بمجرد إلقاء البذر فيه ، بل يكون من واجبه بعد ذلك ان يسمّده ويسقيه ويرعاه ويسهر عليه، كذلك ليست المرأة بمزرعة يلقي فيها من يمر بها بَذْرَه كيفما اتّفق، فتنبت شجرة بريةً . بل هي إذا حملت، تحتاج إلى حارثها برعايتها وكفالتها .

٣ ـ إن ما بين الزوجين الانسانيين من الجاذبة الجنسية ، هو باعتبار علم الأحياء (Biologically) من نفس النوع الذي يوجد في سائر أنواع الحيوان . فكل فرد من جنس واحد يميل ميلاناً حيوانياً إلى كل فرد من الجنس الآخر. وما رُكّب في طباعهم من النزعة القوية إلى التناسل، يجذب جميع أفراد الصنفين ، الذين يَصْلُحون له فعلاً، بعضهم إلى بعض . فالقانون الذي وضعه فاطر هذا الكون ما كان ليغفل عن هذا الجانب الضعيف من فطرة الانسان الحيوانية ، لأنه يكمن فيه ميلان شديد إلى الفوضى الجنسية (Sexual Anarchy) لا يمكن ضبطه وتحديده إلا بالتدابير الخاصة من التحفظ والاحتياط . وإن انفلت هـذا الميلان من القيد مرة ، فـلا يمنع الانسان شيء عن تحوّله إلى الحيوان بل إلى أسفل أنواعه . « لَقَدْ خَلَقْنَا الانْسَانَ في أحْسَنِ تَقْوِيم ثُمَّ رَدَدْنَاه أسْفَلَ سَافِلِين إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات » . (التين : ٤ ـ ٦) .

الفطرة الانسانية ومقتضياتها

إن الطبع الحيواني ـ كما أسلفنا ـ كالفرش والاساس في خلقـة الانسان ، وعليها رُفعت قواعد إنسانيّته . لذلك كان كل ما يحتاج إليه الانسان لبقـاء وجوده الفردي ووجوده النوعي ، قد ركّـب الله في طبيعته الحيوانية النزوعَ اليه والرغبةَ فيه والاستعدادَ لتحصيله . وليس

من مشيئة الفطرة ألا نقضي أية رغبة من تلك الرغبات،أو يُبطل جانب من جوانب ذلك الاستعداد، لأن هذه كلها أيضاًلازمة للانسان،وبدونها لا يمكن أن يعيش ويبقى نوعه. وإنما تريد الفطرة ألا ينحو الانسان في قضاء تلك الرغبات واستخدام ذلك الاستعداد نحواً حيوانياً محضاً ، بل يجب أن يكون طريقه في ذلك إنسانياً بحسب ما يقتضيه طبعُه الانساني من الامور ، وبرعاية ما جُعل في نفسه طلبه من المقاصد فوق الحيوانية . ولهذا الغرض قد وضع الله تعالى حدوداً شرعية ، كي تضبط أعمال الانسان بضابطة . ثم حذره بأنه إن تعدّى تلك الحدود ، مائلاً إلى الإفراط أو التفريط ، ألقى بيده إلى التهلكة . « وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ » (الطلاق : ١).

ولننظر الآن أيّ خصائص الفطرة الإنسانية وأي مقتضياتها في الشؤون الجنسية هي التي يُشير إليها القرآن الكريم :

١ — الذي أودَعتْه الفطرة الانسانية من نوع العلاقة بين الجنسين، يفصّله القرآن بما يأتي : « خَلَقَ لَكُم مِن أَنفُسِكُم أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَينَكُم مَودَّةً ورَحمَةً » (الروم: ٢١) وبآية : « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنتُم لِبَاسٌ لَهُنَّ » (البقرة : ١٨٧) .

فالآية السابقة في الصفحات الماضية ، التي ذكرَتْ كون الانسان والحيوان معاً خُلقا أزواجاً ، جعلت المقصودَ بخلق الزوجين بقاءَ النسل

وحده . فالآن قد أفرد الانسان عن الحيوان وذكر من خاصته أنه له من وراء الزوجية مقصداً أسمى وأجلّ؛ وهو انه يجب الا تكون بين زوجيه علاقة شهوة فحسب، بل تكون بينهما علاقة حُبٍّ ومودّة وأنس، وعلاقة تأتلف بها القلوب وتتّصل الارواح، ويكون أحدهما موضع سرٍّ للآخر وشريكه في البؤس والرخاء، ويكون بينهما من الملازمة والاتصال الابدي ما يكون بين الجسد والثوب . فهذه العلاقة بين الصنفين ــ كما سبق أن فصّلنا فيــه القول ــ هي الصخرة الأساسية لبناء التمدن الانساني. ثم أشير بقوله(لتسكنوا اليها) في الآية الى أن المرأة موضع الراحة والسكينة للرجل . وليست وظيفتها الفطرية إلا أن تهيء للرجل زاوية امن وسكون وراحة في هذه الدنيــا المملوءة بالمتاعب والمشاق . وهذه الزاوية هي حياة المرء العائلية التي قد تهاون بأمرها أهل الغرب لأجل المنافع الماديــة . والحال أن لهذه الشعبة من حياة المرء من الخطورة والأهمية ما لسائر شعب التمدن والعمران . وهذه أيضاً لازمة للحياة التمدنية كلزوم سائر الشعب لها .

٢ ــ وهذه العلاقة الجنسية لا تقتضي المودة فيما بين الزوجين فحسب، بل تقتضي مع ذلك أن تكون لكليهما صلة روحية عميقة بالولد الذي ينتج عن تلك العلاقة الودية بينهما . لذلك قد جعلت الفطرة في تكوين الانسان وفي تكوين المرأة وطريقة حملها ورضاعتها على الاخص، ما هو كفيل بأن يملأ شغاف قلبها بحب الأولاد. فيقول عزّ من قائل «حَمَلَته أمّه وَهْناً على وهْنٍ وفِصاله في عامَين» (لقمان : ١٤). ويقول في موضع آخر:

« حَمَلَتْه أمُّه كُرْهاً وَوَضَعَتْه كُرْهاً وَحَمْلُه وَفِصَالُه ثلاثُونَ شهْراً » (الاحقاف : ١٥) وكذلك حال الرجل ، وإن كان دون المرأة في حب الاولاد . « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالبَنِين » (آل عمران : ١٤) . وهذه المحبة والحنان الفطري تقيم أواصر الصهر والنسب بين أفراد الانسان ، ومن تلك الاواصر تنشأ الاسر والعائلات . ومن هذه تتألف القبائل والشعوب ومن روابط هذه الشعوب والقبائل ينتج التمدن « وَهُوَ الَّذي خَلَقَ مِنَ الماءِ بَشَراً فَجَعَلَه نَسَباً وصِهْراً » (الفرقان : ٥٤) « يأيها النَّاس إنَّا خَلَقْنَاكُمْ من ذَكَرٍ وأنثى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعارَفُوا » .(الحجرات : ١٣) .

فقرابات الرحم وأواصر الصهر والانساب هي في الحقيقة مؤسسات بدائية طبيعية للتمدن الانساني ، ويتوقف قيامها على أن يكون الاولاد من الآباء المعروفين المعلومين، وتُحفظ الانساب من الخلط والزيف .

٣- ومن مقتضى الفطرة الانسانية أيضاً أنه إن تَرَكَ الإنسانُ من ورائه شيئاً كسبه بكدّ يمينه وعرق جبينه ، يتركه لأولاده وأقاربه الذين بقي طول حياته مرتبطاً بهم بقرابات الرحم والدم . « وَأولُو الأرْحَامِ بَعْضُهُم أوْلَى بِبَعْضٍ في كِتَابِ الله».(الأنفال:٧٥). «وَمَا جَعَلَ أدْعِيَاءَكُمْ أبْنَاءَكُمْ» . (الاحزاب : ٤) . ويؤخذ من ذلك أن حفظ الانساب مما تستلزمه قسمة الميراث أيضاً .

٤ _ إن غريزة الحياء في الانسان غريزة طبيعية . ففي جسده أعضاء وأجزاء قد جبله الله على الرغبة في سترها وإخفائها ، وهذه الرغبة هي التي ما زالت تحض الانسان منذ الأزل على أن يتخذ لجسده نوعاً من انواع اللباس . وفي هذا الباب يرد القرآن النظرية الجديدة رداً باتاً ، فيقول : **إن أجزاء الجسد الانساني التي قد وضعت فيها الجاذبية الجنسية للرجل والمرأة ، تقتضي الفطرة الانسانية أن يُعنى المرء بسترها ويستحيي من كشفها ، ولكن الشيطان لا ريب يريده على أن يُبرزها .** « فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا ... فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ . بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ » . (الاعراف ٢٠ _ ٢٢) . ثم يقول القرآن إن الله قد أنزل عليكم اللباس لتتخذوه ساتراً لعوراتكم وزينة لأجسامكم . ولكن هذا الستر للعورات ليس كل شيء ، بل يجب مع ذلك أن يَعْمُر تقوى الله قلوبكم . « قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً . وَلِبَاسُ التَّقْوَى ، ذَلِكَ خَيْر » . (الاعراف : ٢٦) .

هذه هي التصورات الاساسية لنظام الاجتماع الاسلامي . فاجعلها على ذُكر منك ، ثم ادرس الصورةَ التفصيلية للنظام الاجتماعي الذي قد أسس على هذه التصورات . وعليك في أثناء دراستك هذه ، أن تتحرى بالنظر العميق مبلغ الوحدة والتساوق والمطابقة والارتباط المنطقي الذي يراعيه الاسلام في تطبيق النظريات التي يعدها أساساً لقانونه

على تفاصيل الحياة وجزئياتها العملية . الحق أن كل ما عهدناه من القوانين التي وضعها الانسان ، من نقصها البارز المشترك أنها إذا طبقت في الحياة ، لا يبقى بين نظريتها الاساسية وتفاصيلها العملية ارتباط منطقي كامل . فتتعارض الاصول والفروع . وتأتي الكليات المعروضة في الكتب ، مختلفاً مزاجها عن المزاج الذي يتكون للجزئيات المقررة للعمل والتنفيذ . وربما حلقت العقول في سماء الخيال ، فجاءت بنظرية رائعة أخاذة ، ولكنها إذا هبطت من عالم التصور والخيال إلى دنيا الحقيقة والعمل ، وأرادت أن تنفذ نظريتها في الحياة ، فإنها تحار في مسائل هذه الدنيا العملية حيرة تذهلها هي نفسها عن نظريتها تلك . وهذا الضعف والخلل لا يخلو منه أي قانون من القوانين الوضعية . فهلم الآن ، وانظر بكل ما شاءت لك نفسك من الدقة والتفحص في هذا القانون الذي عرضه على العالم راع أمي نشأ في قفار العرب ، وما استشار في وضعه مجلساً تشريعياً أو لجنة مختارة ، هل ترى فيه أثراً للتناقض ، أو عليه مسحة من عدم الارتباط المنطقي ؟ !



الأصول والأركان

إن أهم ما يواجه من المسائل في تنظيم الاجتماع ، هو ـ كما أسلفنا ذكره في موضع آخر ـ منع الميلان الجنسي عن الفوضى والطغيان ، وضبطه بضابطة . لأنه لا يمكن بدونه تأليف نظام للتمدن . وإن هو ألتف بدونه على فرض المحال ، فما هناك من سبيل إلى صون هذا النظام من التبعثر وصون الانسان من الانحطاط الخلقي والفكري الشديد .من أجل ذلك قد قيّد الاسلام علائق الرجل والمرأة بقيود شتى ، وضمها بهذا التدبير إلى مركز واحد .

المحرّمات :

فالقانون الاسلامي يبدأ ـ من صنفي الذكور والاناث ـ بالافراد الذين هم مضطرون بطبيعة الحال إلى أن يتعاشروا في مكان واحد ، أو يرتبطوا بعلاقات قريبة ، فيحرّم بعضهم على بعض جميعاً ، كالأم والولد، والاب والابنة، والاخ والاخت، والعمة وابن الأخ،والعم وابنة الأخ ، والخالة وابن الأخت ، والخال وبنت الأخت ، وزوج الأم وبنت الزوجة،

وزوجة الأب وابن الزوج ، والحماة والصهر ، والحمو والكنة ، وأخت الزوجة وزوج الاخت (في حياة الاخت) والأقارب الرضاعيين(سورة النساء : ٢٢ - ٢٣). فهؤلاء جميعاًقد حُرِّم أحدهم على الآخر ونُزِّهت علائقهم عن النزعة الجنسية تنزيهاً لا يكاد أي فرد منهم يتصور معه أن يميل إلى الآخر ميلاً جنسياً ، اللّهم إلا الانذال البهائم الذين لا تخضع بهيميتهم لأي ضابط خلقي .

تحريم الزنا

وقد حُرِّم على الرجل ، بعد هذا التحديد ، جميع النساء اللاتي هُنَّ في عقد غيره من الرجال « والمُحْصَنَاتُ من النِّساءِ . . . » (النساء : ٢٤) .

وأما مَنْ عدا هؤلاء من النساء ، فقد حُرِّم عليه أن يتعلّق بهن بعلاقة جنسية مطلقة من كل قيد . « وَلا تَقرَبوا الزِّنا إنَّه كانَ فاحِشَةً وسَاءَ سَبِيلاً . (الإسراء : ٣٢) !

النكاح

فبهذه الحدود والقيود سدّتْ على المرء جميع أبواب الفوضى الجنسية، ولكنه كان من اللازم لتحقيق مطالب طبعه الحيواني ، ولإبقاء الطريق الفطري المقرّر لهذا الكون ، أن يُفتح له بابٌ يَقْضي منه حاجته الفطرية.

ففتح له ذلك الباب بصورة النكاح . وأُبيح له أن يقضي حاجته تلك ، ولكن من غير طريق الفوضى والإباحيّة ،وفي غير حال التستر والخفاء، بل يفعل ذلك بإعلان منه وتصريح ، حتى يكون من المعلوم المعترف به في المجتمع أن فلاناً وفلانة قد دخلا في عقد المعاشرة واقترنا . «وأُحِلَّ لَكُمْ ما وَرَاءَ ذَلِكُمْ أنْ تَبْتَغُوا بِأمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِين ... فانْكِحوهُنّ بإذْنِ أهْلِهِنّ ... مُحْصَنَاتٍ غيرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أخْدَانٍ» (النساء : ٢٤ - ٢٥) .

فانظرْ ميزة الاسلام في تحرّي الاعتدال ، إن العلاقة الجنسيّة التي كانت محرّمةً ومُسْتَشنَعةً خارج دائرة النكاح عادت في دائرة الزواج مباحةً ومستحسنةً ، بل عملاً صالحاً يُؤمر به ويُنكر اجتنابه . وليس هذا فحسبُ ، بل يصبح مثل هذه العلاقة بين الزوجين عبادةً . حتى إن المرأة إن صامت النافلةَ أو دخلت في الصلاة أو التلاوة فراراً من قضاء حاجة بعلها الشرعية ، كانت آثمةً ولم تُقبل منها تلك العبادة . ودونك بعض ما رُوي عن النبي ﷺ في هذا الباب : « عليكم بالباءة فإنّه أغضّ للبصر وأحصن للفرج ، فمن لم يستطع منكم الباءَة فعليه بالصوم ، فإن الصوم له وجاء[1] » ، « والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له . لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوّج النساء . فمن رغب عن

(١) الترمذي في كتاب النكاح . وفي هذا المعنى حديث في كتاب النكاح للبخاري .

سنّتي فليس مني [1] » . « لا تصوم المرأة وبعلها شاهد ، إلا بإذنه [2] »
« إذا باتت المرأة مهاجرةً فراش زوجها ، لعنتها الملائكة حتى ترجع [3] » .
« إذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأتِ أهله ، فإن معها مثل الذي معها [4] » .

وغاية الشرع من كل هذه الوصايا والاحكام أن نسد أبواب الفوضى الجنسية كلها ، ونحصر العلاقات الزوجية في دائرة الزواج وألا تكون خارجَ هذه الدائرة ـ ما أمكن ـ محرّكات جنسية من أي نوع . وأما الهيجان الذي ينشأ عن مقتضى الفطرة أو عن الاحداث المصادفة، فيكون لتهدئته وتسكينه ملجأ يُلجأ اليه وهو الزوج للزوج حتى يتمكن الانسان من خدمة النظام الاجتماعي بقوة مدّخرة مجتمعة (Conservated Energy) ونفس هادئة سليمة من كل الحركات المتّضعة غير الطبيعية ، ويستخدم عنصر الحب والنزعة الجنسية ـ الذي قد ركّبه الله في كل رجل وامرأة لتسيير هذا النظام الكوني ـ لتشكيل الاسرة وإحكام أركانها. فالزواج في الاسلام هو مرضيّ من جميع الوجوه لانه يفي بمطالب الفطرة الانسانية والحيوانية كلها ويحقق مقصود القانون الإلهي. واجتناب الزواج ممقوت من جميع الاعتبارات لأنه لا بدّ أن يضمن إحدى السيئتين : إما أن يجتنب الانسان به تحقيق غاية القانون الطبيعي ، فيضيّع قواه في

(١) البخاري : كتاب النكاح
(٢) البخاري : باب صوم المرأة باذن زوجها
(٣) البخاري : كتاب النكاح
(٤) الترمذي : باب ماجاء في الرجل يرى المرأة فتعجبه .

محاربة الفطرة أو تتغلب عليه مطالب طبعه الحيواني فتكرهه على أن يقضي شهواته بالطرق المحرمة الخاطئة .

تنظيم الاسرة

وبعد أن يقرر الاسلام الميلان الجنسي في الانسان وسيلة لتشكيل الاسرة وإحكامها ، يقبل على تنظيم الاسرة . ويراعي في هذا التنظيم أيضاً كل ناحية من نواحي قانون الفطرة ، التي قد مرّ ذكرها ، باتزان كامل. وإن الدرجة السامية من العدل والانصاف ، التي يلاحظها الاسلام في تعيين حقوق الرجل والمرأة قد سردت تفاصيلها في كتاب لي آخر بعنوان (حقوق الزوجين) وبها تعلم أن الاسلام قد أقام بين الصنفين من المساواة ما كان يمكن أن يكون . ولكنه لا يرضى من مساواتها ما يخالف قانون الفطرة . فللمرأة من الحقوق مثل ما للرجل ، من حيث هي إنسان . «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذي عَلَيْهِنَّ» (البقرة: ٢٢٨) . ولكن الفضيلة النوعية - بمعنى القوة والتقدّم ، لا بمعنى الكرامة والعزّ - التي هي الرجل من حيث هو زوج فاعل ، قد اعترف به الإسلام له بمقتضى الانصاف . «وللرِّجالِ عَلَيهِنَّ دَرَجةٌ» (البقرة : ٢٢٨) وكذلك بعد أن قرّر الاسلام بين الرجل والمرأة علاقة الفاضل والمفضول بحسب ناموس الفطرة ، قد نظم الاسرة على ما يأتي من القواعد :

قوّامية الرجل

إن الرجل قوّام على الأسرة . أي هو حاكم الاسرة وراعيها

ومراقب أخلاقها وشؤونها ، وواجب الاطاعة لجميع أفرادها إلا أن يأمر بمعصية الله ورسوله . ثم هو مكلف بعيالة الاسرة وتزويدها بحاجات حياتها. «الرِّجالُ قوّامُونَ على النِّساءِ بِما فضّلَ اللهُ بَعْضَهُم على بَعض وبِما أنفقُوا من أمْوالِهِمْ . » (النساء : ٣٤) .

« الرجل راع على أهله وهو مسئول » (١) . « فالصالحاتُ قانتاتٌ حافظاتٌ للغَيْبِ بما حَفِظَ اللهُ » (النساء : ٣٤) .

قال النبي ﷺ : « إذا خرجت المرأة من بيتها وزوجها كاره لعنها كل ملك في السماء وكل شيء مرّت عليه غير الجنّ والإنس حتى ترجع»(٢) «واللاّتي تخافُونَ نُشوزَهُنَّ فَعِظُوهنَّ واهجُروهنَّ في المَضاجِعِ واضرِبوهُنَّ. فإنْ أطَعْنَكُمْ فلاتبغُوا عليهِنَّ سَبِيْلاً» (النساء: ٣٤) وقال النبي ﷺ : « لا طاعة لمن لم يُطع الله » . (٣) « ولا طاعة في معصية الله » (٤) « انما الطاعة بالمعروف » (٥) « ووَصَّيْنا الانسانَ بِوالدَيه حُسْناً . وإنْ جاهَداكَ لِتُشرِكَ بي ماليسَ لكَ بِهِ علمٌ فلا تُطِعْهُما » . (العنكبوت : ٨)

وهكذا نُظِّمت الأسرة على أن يكون لها راعٍ وصاحب أمر مطاع.

---

(١) البخاري : (باب قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) من (كتاب النكاح)

(٢) كشف الغمة

(٣) رواه أحمد من حديث معاذ .

(٤) رواه أحمد من حديث عمران بن حصين .

(٥) البخاري : كتاب الاحكام .

ومن حاول أن يُخلّ بتنظيم الأسرة هذا فيتوعّده النبي ﷺ بقوله : « من أفسد امرأة على زوجها فليس منّا »[1] .

دائرة عمل المرأة

وقد جُعلت المرأة في هذا التنظيم ربّةَ البيت. وإذا كان على زوجها كسب الاموال فعليها إنفاق تلك الاموال لتدبير شؤون المنزل « المرأة راعية على بيت زوجها وهي مسئولة »[2] . وقد وُضع عنها جميع الواجبات التي تتعلّق بخارج البيت . فلا تجب عليها ـ مثلاً ـ صلاة الجمعة[3] . ولا يجب عليها الجهاد ، وإن كان يجوز لها أن تخرج لخدمة المجاهدين في ميدان الحرب ، إذا اقتضت الضرورة ، كما سنذكره فيما يأتي بشيء من التحقيق . وأيضاً لا يجب عليها تشييع الجنائز ، بل هي قد نهيت عنه[4] ولم تفرض عليها صلاة الجماعة ولا حضور المساجد . ولئن كان قد رُخّص لها في حضور المساجد ببعض القيود ، فانه لم يُستحسن منها قط .[5] ثم لم يؤذن لها بالسفر إلا مع أحد محارمها .[6]

---

(١) كشف الغمة للشعراني .
(٢) البخاري : باب قوا أنفسكم وأهليكم ناراً .
(٣) انظر سنن أبي داود باب الجمعة للمملوك والمرأة .
(٤) البخاري : باب اتباع النساء للجنائز
(٥) أبو داود : باب ماجاء في خروج النساء إلى المساجد
(٦) الترمذي : باب ماجاء في كراهية أن تسافر المرأة وحدها . وأبو داود : باب في المرأة تحج بغير محرم .

صفْوة القول أن خروج المرأة من البيت لم يُحمد في حال من الاحوال . وخير الهَدْي لها في الاسلام أن تُلازم بيتها، كما تدلّ عليه آية : « وَقَرْنَ في بُيوتكنّ » ، دلالةً واضحةً (١) . ولكنه لم يشدّد الاسلام في هذا الباب تشديداً لكون خروج المرأة من بيتها

(١) قد ذهب بعض الناس الى ان هذا الامر خاص لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، لابتداء الآية بخطاب : يانساء النبي ! ولكنا نسأل : أي وصية من الوصايا الوارة في هذه الآيـة مخصوصة بأمهات المؤمنين دون سائر النساء؟ فقد قيل فيها : « إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض. وقلن قولا معروفاً. وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى . وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله . إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » (الاحزاب ٣٢ ـ ٣٣) فتأمل كل هـذه الوصايا والأوامر ، وقل لي : أي أمر منها لايتصل بعامة النساء المسلمات ؟ وهل النساء المسلمات لايجب عليهن أن يتقين ؟ أو قد أبيح لهن أن يخضعن بالقول ويكلمن الرجال كلاما يغريهم ويشوقهم ؟ أو يجوز لهن أن يتبرجن تبرج الجاهلية ؟ ثم هل ينبغي لهن أن يتركن الصلاة والزكاة ويعرضن عن طاعة الله ورسوله؟ وهل يريد الله أن يتركهن في الرجس وإذا كانت كل هذه الاوامر والارشادات عامة لجميع المسلمات، فما المبرر لتخصيص كلمة « وقرن في بيوتكن » وحدها بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم .

إن مصدر الفهم الخاطىء في الحقيقة هو مبتدأ الاية : « يانساء النبي لستن كأحد من النساء » . ولكن هذا الاسلوب لايختلف ـ مثلاً ـ عن قولك لولد نجيب : يابني لست كأحد من عامة الاولاد حتى تطوف في الشوارع وتأتي بما لايليق من الحركات فعليك بالادب واللياقة . فقولك هذا لايعني أن سائر الاولاد يحمد فيهم طواف الشوارع وإتيان الحركات السيئة ، ولا يطلب منهم الادب واللياقة . بل المراد بمثل قولك هذا تحديد معيار لمحاسن الاخلاق وفضائلها ، لكي يصبو اليها كل ولد يريد أن يعيش =

قد يكون من اللازم في بعض الاحوال، كأن لا يكون لها قيمٌ من الرجال أو تضطرٌ إلى العمل خارجَ البيت لخصاصة قيم الاسرة أو ضآلة معاشه أو مرضه أو عجزه أو سبب آخر من هذا القبيل . فكل هذه الاوضاع والاحوال قد جُعل لها في القانون مندوحة ومُتَّسع. وجاء في الحديث : «قد أذن الله لكن أن تخرجن لحوائجكن»[1] ولكن مثل هذا الاذن قد مُنحتْه المرأة مراعاةً للاحوال والضرورات فحسبُ ، لا يغيِّر شيئاً من القاعدة الرئيسية في نظام الاجتماع الاسلامي ، وهي أن دائرة عمل المرأة هي البيت. وليس الاذن بخروجهن منه إلا رخصةً وتيسيراً ، فيجب ألاّ يُحمل على غير معانيه ومقاصده .

= كنجباء الاولاد، فيسعى في بلوغه. وقد اختار القرآن هذه الطريقة لتوجيه النساء لأن نساء العرب في الجاهلية كن على مثل الحرية التي توجد في نساء الغرب في هذا الزمان وكان العمل جارياً على تعويدهن الحضارة الاسلامية بشيء من التدريج ، وتعليمهن حدود الاخلاق وقيود الضابط الاجتماعي على يد النبي صلى الله عليه وسلم . ففي تلك الاحوال عني الاسلام بضبط حياة أمهات المؤمنين بضابطة على وجه خاص ، حتى يكن تأسوة لسائر النساء وتتبع طريقتهن وعاداتهن في بيوت عامة المسلمين .

هذا الرأي نفسه قد أبداه العلامة أبو بكر الجصاص في كتابه « أحكام القرآن» فيكتب : « وهذا الحكم وإن نزل خاصاً في النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه ، فالمعنى عام فيه وفي غيره . إذ كنا مأمورين باتباعه والاقتداء به ، إلا ما خصه الله به دون أمته » (الجزء الثالث : الصفحة ٤٥٥).

(١) البخاري : باب خروج النساء لحوائجهن . وفي هذا المعنى حديث في المسلم باب إباحة الخروج النساء لقضاء حاجة الانسان .

وقد مُنحت المرأة البالغة كثيراً من الحرية في شؤونها الشخصية . ولكنها لم تُمنح حرّية الارادة والاختيار مثل ماأعطيه الرجل البالغ . فللرجل - مثلاً - أن يخرج في السفر إلى حيث يشاء وأنّى يشاء . ولكن المرأة - بكراً كانت أم متزوجة أم أرملة - يجب أن يصاحبها في السفر محرم . «لايحلّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفراً يكون ثلاثة أيام فصاعداً إلاّ ومعها أبوها أو أخوها أو زوجها أو ابنها أو ذو حرمة منها» . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «لاتسافر المرأة مسيرة يوم وليلة إلاّ ومعها محرم» (١) . وعن أبي هريرة أيضاً أنه ﷺ قال : «لايحلّ لامرأة مسلمة تسافر مسيرة ليلة إلا ومعها رجل ذو حرمة منها» (٢)

أما الاختلاف في تعيين مقدار السفر في هذه الروايات ، فيدلّ على أن الاهمية ليست لمدّة اليوم أو اليومين ، بل الاهمية كلها لئلا يُباح للمرأة من حرية التنقّل والسفار مايؤدّي إلى الفتنة . لذلك ما اهتمّ النبي ﷺ بتعيين مقدار لهذا السفر بل قال فيه أقوالاً مختلفة مراعاة الوقت والمناسبة في مختلف أحوال السائلين .

والمرء له كل الحرية في أمر نكاحه . فله أن ينكح ماطاب له من

(١) الترمذي : باب ماجاء في كراهية أن تسافر المرأة وحدها .
(٢) أبو داوود : باب في المرأة تحج بغير محرم .

المسلمات أو من نساء أهل الكتاب . وله أيضاً أن يتمتع بأمته . ولكن المرأة لم يجعل لها كل هذه الحرية والاختيار. فلا يجوز لها أن تنكح رجلا من غير المسلمين « لاهُنَّ حِلٌّ لَهُم ولاهُم يَحِلُّون لَهُنَّ » . (الممتحنة: ١٠) وكذلك لا يجوز لها التمتع بعبدها. ولم يرخص لها القرآن من التمتع بملك اليمين مثل ما رخصه الرجل . وحدث في زمان عمر رضي الله عنه أن امرأة أخطأت تأويل الآية « ماملكت أيمانكم » ، فتمتعت بعبدها . فلما بلغ ذلك عمر ، عرض الأمر على مجلس شوراه من الصحابة ، فأجمعوا على الإفتاء عليها بقولهم : « قبحها الله تأولت كتاب الله غير تأويله » وامرأة أخرى استأذنت عمر في مثل ذلك ، فشدد عقوبتها وقال : « لن تزال العرب بخير ما منعت نساؤها [1] » .

وأما إذا استثني الكافر والعبد ، فالمرأة لها الحرية في انتخاب زوجها من أحرار المسلمين . ولكنه يجب عليها في هذا الأمر أيضاً أن تراعي رأي أبيها وجدها وأخيها وسائر أوليائها . ولا ريب أنه ليس للأولياء أن يُنكحوها أحداً بغير رضاها لقول النبي ﷺ: « الأيم أحق بنفسها من وليها » . ولا تُنكح البكر حتى تستأذن . ولكنه لا يليق بالمرأة كذلك أن تنكح من تشاء من الرجال بغير رضا الرجال المسؤولين من أسرتها. لأجل هذا قد استعمل القرآن الباب الثلاثي من فعل نَكَحَ ينكح كلما تكلم عن الرجال فقال : «ولا تَنكِحوا المُشركاتِ » (البقرة: ٢٢١)

(١) كشف الغمة للشعراني

« فانكِحوهُنَّ بإذنِ أهلِهِنَّ » (النساء: ٢٥) ولكنه استعمل باب الإفعال من هذا الفعل متى كان الكلام في النساء فقال : « وأنكِحوا الأيَامَى مِنكُم » (النور : ٣٣) «ولا تُنكِحوا المُشرِكينَ حتى يُؤمِنوا » (البقرة : ٢٢١).

ومعنى ذلك أنَّه كما أن المرأة المتزوّجة تابعة لبعلها ، كذلك البِكر تابعة للرجال المسؤولين من أسرتها. وليست هذه التبعية معناها عدم الخيرَة لها في شأنها . بل المراد بها أنه لما كان الرجـل هو المسؤول عن حفظ النظام الاجتماعي من الفوضى والاختلال وصيانة أخلاق الأسرة وشؤونها عن الفِتَن الداخلية والخارجية ، فقد فُرض على المرأة ـ حفظاً لهذا النظام ـ أن تطيع الرجل الذي هو مسؤول عنها، سواء كان ذلك الرجل بعلها أو أباها أو أخاها .

حقوق المرأة

وكذلك حينما سلَّم الاسلام بقول : « بما فَضَّل اللهُ بَعضَهم على بَعضٍ) حقيقةً طبيعيَّةً ، فقد قرَّر معه على وجه الصحة واليقين أن للرّجال علَيهن درجة. فهو يعترف بالفرق الذي يوجد بين المرأة والرجل بدلالة علم الاحياء وعلم النفس ، ويراعيه ويبقي عليه بمقداره الصحيح ، ثم يحدد وظائف الصنفين ودرجاتها بحسب نوعية ذلك الفرق وكيفيته.

وتأتي بعد ذلك مسألة هامة هي تقرير حقوق المرأة . والاسلام قد لاحظ في تقرير هذه الحقوق أموراً ثلاثة :

أولها منع الرجل أن يُسيء استعمال ماخُوّل من صلاحيات الحكم والامر على الاسرة لاجل حفظ نظامها فحسب فيتخذها أداة لظلم المرأة ، حتى تعود علاقة التابع والمتبوع بين المرأة والرجل كعلاقة الخادم والمالك فعلاً .

والثاني أنه يجب أن يتاح للمرأة كل الفرص التي تستطيع بها أن تنمي كفاءاتها ومواهبها الفطرية ، في حدود النظام الاجتماعي ، بأكثر ماأمكنها ، وتقوم بنصيبها من العمل لتعمير التمدن على أحسن وجه ممكن .

والثالث أنه يجب أن يكون من الممكن الميسور لها أن تبلغ أعلى مدارج النجاح والرقي ، ويجب مع ذلك أن يكون كل رقيها ونجاحها من حيث هي امرأة ،إذ ليست مما كانها للرجال من حقوقها الواجبة .وليس مما ينفع التمدن أو المرأة نفسها أن تهيأ وتعد لتحيا حياة الرجال ، ولاهي تستطيع أن تنتج في ذلك النمط من الحياة .

فالذي قد منح الاسلام المرأة من الحقوق التمدنية والاقتصادية الواسعة مراعياً هذه الامور الثلاثة مراعاةً تامة وما خولها من درجات العز والكرامة العالية ، ثم ماهيأ لها في أحكامه الخلقية والقانونية من الضمانات

الثابتة الدائمة لحفظ هذه الحقوق والدرجات ، لاشك انه لايوجد لكل ذلك نظير في أي نظام اجتماعي قديم أو جديد في العالم .

الحقوق الاقتصادية

إن أهم وألزم ماتتحقق به منزلة الانسان في التمدن ، وما يحفظ به الانسان منزلته تلك ، هو استحكام حالته الاقتصادية والحق أن جميع القوانين في هذا العالم ـ ماخلا الإسلام ـ قد اضعفت المرأة من الجهة الاقتصادية . وقد كان هذا العجز الاقتصادي في المرأة أكبر أسباب عبوديتها . **وأرادت أوربة في العهد القريب أن تبدل هذه الحالة ، ولكن بأن تجعل المرأة عضواً كاسباً في المجتمع.** فأدى الامر إلى مفسدة أخرى أكبر من الاولى،أما الاسلام فقد اتخذ بينها طريقاً وسطاً.وذلك أنه خول المرأة حقوقاً واسعة في الميراث.فهي ترث أباها وزوجها وأولادها وغيرهم من أقاربها [1] ثم جعل لها أن تأخذ من زوجها المهر . وكل مايجتمع لديها من هذه الوسائل من الاموال ، قد منحها فيها كل حقوق الملكية والقبض والصرف . ولم يجز لأبيها أو زوجها أو أحد آخر أن

(١) قد جعل للمرأة في الميراث نصف حظ الرجل. والسبب فيه أن للمرأة حقوق النفقة والمهر التي ليست للرجل . ولا تجب نفقتها على زوجها فحسب ، بل تجب كفالتها على أبيها أو أخيها أو ابنها أو ولي لها آخر إذا كانت بكراً او أيماً فلما كانت المرأة براء من تلك التبعات التي قد كلف بها الرجل ، فمن الانصاف أن لايكون لها في الميراث مثل نصيب الرجل .

يتدخل في شيء منها . وفوق ذلك أنها إن كسبت ثروة بتثمير أموالها بالتجارة أو بجهدها وعملها الشخصي ، فهي مالكة لها أيضاً من كل الوجوه ومع هذا كله يجب على زوجها أن يؤدي اليها نفقتها في كل حال . . ومهما كانت الزوجة عليه من الغنى والثروة ، فإن ذلك لا يبرّىء زوجها من أداء نفقتها . وهكذا قد أحكمت في الاسلام حالة المرأة الاقتصادية إحكاماً ربما تكون به أصلح حالا من الرجل .

الحقوق التمدنية

١ ـ قد جُعل للمرأة كل الحق لانتخاب زوجها ، ولا يجوز لأحد أن يُنكحها بغير رضاها أو بدون إذنها . وإن هي نكحت مسلماً حراً بطيب خاطرها . فليس لأحد أن يمنعها من ذلك اللهم إلا ان تختار لنفسها رجلا من طبقة لا تُكافيء اسرتها في المكانة الاجتماعية ، فيحق لاوليائها عندئذ أن يعترضوا على اختيارها .

٢ ـ وقد خوّلت المرأة حقوقاً واسعة في طلب الخلع والفسخ والتفريق بإزاء زوجها إن كان بغيضاً او ظالماً او عنيناً .

٣ـ وقد أوصي الرجلُ بالتزام السماحة والمعاملة الحسنة ، في استعماله السلطة التي قد جعلها الاسلام له على المرأة . فيقول الله تعالى : «وَعَاشِرُوهُنَّ بالمعروف » (النساء : ١٩) « وَلا تَنْسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُم » (البقرة : ٢٣٧) . ومن أقوال النبي ﷺ : « خيركم خيركم لنسائه وألطفكم بأهله » وليس ماقيل في هذا الصدد هو من باب الوصايا

الاخلاقية فحسب بل الأمر أن الرجل إن ظلم وجار في استعمال تلك السلطة ، كان للمرأة أن تستعين عليه بالقانون .

٤ ـ قد جعل للأرملة والمطلقة والتي فُسخ نكاحها بالقانون او فرّق بينها وبين زوجها ، حق النكاح الثاني بلا قيد أو شرط وقد صرح بانه لا يبقى عليها لزوجها السابق او لأحد من اقاربها من سبيل ، بعد ذلك . وهذا من الحقوق التي لم تعطها المرأة حتى في أكثر ممالك أوربة وأميركا الى يومنا هذا .

٥ ـ قد اقيمت المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة في القوانين المدنية والجنائية . ولا يفرق القانون الاسلامي بينها في حفظ الانفس والاموال والاعراض .

تعليم المرأة

إن الاسلام لم يكتف بان أجاز تعليم المرأة العلوم الدينية والمدنية ، بل هو قد حث عليها وجعل تعليمها وتربيتها لازماً كلزومه للرجال. فكانت النساء على عهد النبي ﷺ يتعلمن منه الدين والاخلاق كالرجال وكان النبي قد جعل لهن موعداً كن يحضرنه فيه للتعلم . ثم كانت أزواجه المطهرات ولا سيما عائشة رضي الله عنها معلمات يأخذ عنهن الرجال كما تأخذ عنهن النساء . وكان كبار الصحابة والتابعين يتلقون عنهن الحديث والتفسير والفقه ولم يقف هذا الامر على الاحرار والاشراف وحدهم ، بل كان

النبي ﷺ أمر حتى بالإماء أن يُعلَّمن . فمن حديثه : أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » (١)

ويتضح من ذلك أن التعليم والتربية في ذاته لم يميّز فيه الاسلام بين الرجل والمرأة ، ولكنه لاريب يفرق بينها من حيث نوعيته . **فأصبح التعليم والتربية للمرأة من وجهة نظر الاسلام هو الذي يجعلها زوجة مثالية وأماً رؤوماً وربة بيت مدبرة** وإذا كان مجال نشاط المرأة هو البيت ، فيجب أن تُعلم المرأة على وجه خاص ، تلك العلوم التي تجعلها نافعة إلى أبعد حد ممكن في هذا المجال . وتلزم لها ، بعد ذلك ، تلك العلوم التي تعلم المرءَ الانسانية وتهذب من اخلاقه وتوسع من أفق نظره . فمن الواجب على كل مسلمة أن تتحلى بهذه العلوم وهذه التربية . ثم إذا كانت امرأة قد آتاها الله ـ بعد ذلك ـ عقلاً خصباً وفكراً غير عاديّ ، فصبت بنفسها إلى أن تتعلم ماعدا ذلك من العلوم والفنون ، فالاسلام لا يعترض سبيلها دونه مادامت لاتتعدى الحدود التي وضعها الشرعُ لبنات جنسها .

تحرير المرأة بالمعنى الصحيح (Emancipation)

هذا مايتعلق بحقوق المرأة فحسب . ولكنه لايقدر منه ذلك الاحسان العظيم الذي قد أولاه الاسلام المرأة . فهذا تاريخ الاجتماع الانساني شاهد كله بأن وجود المرأة في هذه الدنيا كان عنوان الذلة والخزي والإثم . فكان من العار والهجنة للأب أن تولد له بنت . وكانت قرابات الختن تُعد

(١) البخاري : كتاب النكاح

من القرابات الساقطة الرذلة. وفي لغتنا الاردية لاتزال كلتا (الحمو) و(الختن) تستعملان إلى هذا اليوم بمعاني الشتم والسب، تبعاً لذلك التصور الجاهلي. وكثير من الامم راج فيها وأد البنات تفادياً من هذا العار[1]. وقد ظل العلماء وزعماء الديانات - دع الجهلاء - يبحثون ويتناقشون، على طول القرون، في أن المرأة هل هي إنسان أو غير انسان؟ وهل قد حباها الله روحاً أم لا؟ وكانت الديانة الهندكية قد سدت أبواب تعليم (الويد) على المرأة. والديانة البوذية لم يكن فيها سبيل للنجاة لمن اتصل بامرأة. وأما النصرانية واليهودية، فكانت المرأة هي مصدر الاثم ومرجعه فيهما. وكذلك اليونان لم يكن لذات الخدر عندهم علم ولا حضارة ولا ثقافة ولا حقوق مدنية. وكانت المرأة التي تتمتع بكل ذلك في المجتمع هي المومسة ليس غير. وعلى مثله كانت الحال في الروم وفارس والصين ومصر وما عداها من مراكز الحضارة الانسانية. فكانت العبودية والمحكومية والمقت العام الذي كان قد لازم المرأة على طول القرون، قد محا من نفسها الشعور بالكرامة وعز النفس. فكانت هي بنفسها قد نسيت ان لها في الدنيا حقاً تستحقه أو مكانة اجتماعية لها أن تتمتع بها. بل كان الرجل يعد من حقه أن يظلم المرأة وهي تعد من واجبها أن تصبر على ظلمه. وكان قد ركز في نفسها من شعور العبودية ما يجعلها تفتخر بأن تدعو نفسها (داسي)

---

(١) يذكر القرآن هذه العقلية الجاهلية بأسلوبه البليغ: «وإذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء مابشر به. أيمسكه على هون أم يدسه في التراب» (النحل: ٥٨ - ٥٩)

أي أمة لزوجها ، وتؤمن :(بتي ورتا) أي اتخاذ المرأة زوجها ، معبوداً لها وإلها (١) .

فالذي جاء وأحدث في هذه الاوضاع انقلاباً عظيماً ، لا من الجهة القانونية والعملية فحسب ، بل من الجهـــة الفكرية أيضاً ، هو الدين الاسلامي الحنيف . فهو الذي أصلح من عقلية الصنفين ـ الرجل والمرأة ـ كليهما . ثم هو الذي بعث في الذهن الانساني تصور عز المرأة وكرامتها وحقوقها . فكل ما تسمع به اليوم من كلـــمات : حقوق المرأة وتعليم الاناث ونهضة النساء ، هو دوي لصدى الاسلام الانقلابي الذي صدع بـه النبي محمد ﷺ ، والذي بدل من مجرى الفكر الانساني للأبـد . فهذا النبي هو الذي علم الدنيا أن المرأة انسان كالرجل . « خَلَقَكُم مِنْ نَفسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنها زَوْجَهَا » (النساء : ١) وأنه لا فرق بين المرأة والرجل عند الله تعالى « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبوا وَلِلنِّساء نَصيبٌ مِمّا اكْتَسَبن » (النساء : ٣٢) وأن درجات الارتقاء الروحي التي يستطيع أن ينالها الرجل بالايمان والعمل الصالح ، هي ميسورة للمرأة أيضاً . وإذا كان الرجل يستطيع أن يرتقي إلى مقام (ابراهيم بن أدهم) ، فلا شيء يمنع المرأة أيضاً من أن تبلغ في الكمال الروحي مبلغ (الرابعة البصرية) « فَاسْتَجَابَ لَهُم رَبُّهُمْ أني لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُم مِن ذَكَرٍ أو أنثى . بَعضُكُم مِن بَعْضٍ » .

(١) تصوران من تصورات المجتمع الهندكي . والمصطلحان معروفـــان فيه الى اليوم .

(آل عمران : ١٩٥) . « وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أو أنثى وَهُوَ مُؤمِنٌ ، فَأولئِكَ يَدخُلُونَ الجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً » (النساء : ١٢٤) .

ثم إن محمداً ﷺ هو الذي نبّه الرجل ، وفي الوقت نفسه أشعر المرأة بأن المرأة على الرجل مثلما للرجل على المرأة . « وَلَهُنَّ مِثلُ الَّذِي عَلَيهِنَّ » (البقرة : ٢٢٨)وهو الذي أنهض المرأة من قرار الذلة والعار ورفعها إلى مقام العزّ . وهو الذي آذن الوالد بأن وجود الابنة في بيتك ليس بعار أو مخزاة لك، بل أنت إذا ربيتها وعرفت لها حقها، استحققت الجنة . فقال ﷺ : « من عال جاريتين حتى تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو ،وضم أصابعه »[١] و «من ابتلي من البنات بشيء فأحسن اليهن ، كنّ له ستراً من النار »[٢] . وكذلك هو الذي علّم الزوج أن الزوجة الصالحة أكبر نعم الله عليك في هذه الدنيا . « خير متاع الدنيا المرأة الصالحة »[٣] « حبّب إليّ من الدنيا النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة »[٤] « ليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة »[٥] . ثم هو الذي وصّى الابن بأن أحق خلق الله بإكرامه

(١) مسلم : كتاب البر والصلة والادب

(٢) مسلم : كتاب البر ايضا

(٣) النسائي : كتاب النكاح

(٤) النسائي : كتاب عشرة النساء

(٥) ابن ماجه : كتاب النكاح

وتعظيمه وحسن معاملته بعد الله والرسول هو أمه . « سأل رجـــل : يا رسول الله من أحق بحسن صحابتي ؟ قال أمـك . قال ثم من ؟ قال : أمك . قال ثم من قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك »[1] « إن الله حرّم عليكم عقوق الامهات »[2] .

وأيضاً هذا النبي ﷺ هو الذي بين للانسان ان شدة العواطف ورقة الاحساس والنزوع إلى التطرف ، كل ذلك من فطرة المرأة التي قد فطرها الله عليها . وليس ذلك بعار للأنوثة بل هو ميزتها وجمالها . وكل ما يمكن أن تصيبه منها من نفع . فلست بمصيبه إلا بأن تدعها على فطرتها تلك . وإذا حاولت أن تجعلها صلبة مستقيمة كالرجل كسرتها . « المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها . وإن استمتعت بها ، استمتعت بها وفيها عوج »[3] .

وكذلك فان محمداً ﷺ هو المصلح الاول ـ وفي الحقيقة المصلح الآخر ـ الذي بدل من عقلية الرجل ، بل من عقلية المرأة نفسها ، بالنسبة للمرأة . وبعث فيهم مكان عقليتهم الجـــاهلية عقلية معتدلة صحيحة ، لا تصدر عن العواطف ، بل تقوم على العلم والعقل المحض . ثم إنه ﷺ لم يكتف بالاصلاح الداخلي بل مهد الاسباب للمحافظة على حقوق المرأة ، ومنع عدوان الرجال عليهن بقوة القانون . وأحـــدث فيهن من الوعي ما يعرفن به حقوقهن الشرعية ويستعن بالقانون على الحفاظ عليها .

---

(١) البخاري : كتاب الادب

(٢) البخاري : كتاب الادب

(٣) البخاري : باب مداراة النساء

وفي ذات النبي ﷺ كانت النساء قد وجدن لانفسهن نصيراً مشفقاً وملجأ كن يشكين اليه أدنى اعتداء الرجال عليهن بلا حرج . وكان أزواجهن يحذرون أن يبدر منهم اليهن ما يشكينه إلى النبي، وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنه قال : « كنا نتقي الكلام والانبساط إلى نسائنا على عهد النبي ﷺ هيبة أن ينزل فينا شيء . فلما توفي النبي ﷺ تكلمنا وانبسطنا »(١) .

وقد ورد في سنن ابن ماجة أن كان النبي ﷺ قد أمر أن لا تضربوا إماء الله . فجاء عمر إلى النبي ﷺ وقال : يارسول الله : قد ذئرت النساء على أزواجهن. فرخص النبي في ضربهن وكان الرجال طالما كظموا الغيظ في أنفسهم ، فضربت ذلك اليوم سبعون أمرأة في بيوتهن . فلما كان الغد ازدحمت النساء على باب النبي ﷺ ، فدعا الناس فخطب :« لقد طاف الليلة بآل محمد سبعون امرأة ، كل امرأة تشتكي زوجها ، فلا تجدون أولئك خياركم (٢) » .

هذا الاصلاح الخلقي والقانوني هو الذي نالت المرأة بفضله في المجتمع الاسلامي مكانة سامية يخلو من نظيرها كل مجتمع آخر في هذا العالم . فالمرأة المسلمة ميسور لها أن تسمو في النواحي المادية والعقلية والروحية إلى أعلى مدارج العز والرقي ، التي يستطيع أن يبلغها الرجل ، في الدين

(١) البخاري : باب الوصاة بالنساء

(٢) ابو داود وابن ماجه والدارمي

والدنيا . وليس كونها امرأة ليحول بينها و بين تبوئها أي مرتبة من مراتب الشرف . وإن الدنيا تتخلف وراء الاسلام في هذا الامر ، حتى في هذا القرن العشرين . ولم يرتق الفكر الانساني بعد إلى ما ارتقى اليه الاسلام، فكل ما قد أعطاه الغرب للمرأة لم يعطه إياه من حيث هي امرأة ، بل كل ذلك بعد أن جردها من الطبع الانثوي، وصيرها رجلاً أو شبه رجل . أما المرأة بذاتها ، فلا تزال في عينه خلقاً مهيناً في الحقيقة ،شأنها في عصور الجاهلية الاولى . فليس لربة البيت وزوجة الرجـــل وأم الاولاد وبكلمة أخرى ليس للمرأة الباقية على طبيعتها وحقيقتها من عز أو شرف عنده حتى في هذا الزمان . وإنما الشرف والكرامة كلها لذلك (الرجل) المؤنث الذي يكون في بنية جسده امرأة وفي وضمية عقـله وفكره رجلاً ، ويعمل للتمدن والاجتماع عمل الرجال . فبديهي أنـه ليس ذلك منهم تكريماً للأنوثة ، بل هو تكريم للرجولة . ومن البرهان الواضح على شعور المرأة النفسي في الغرب بنقصها وتخلفها (Inferiority Complex) أنها تلبس لباس الرجال بكل فخر على حين لا يخطر ببال أحد من الرجال أن يخرج من بيته في لبـــاس المرأة . ومن السبة والعار عند ملايين النساء أن تكون إحداهـن زوجة ، بينما لايخجل رجل من كونه زوجاً ، وأن النساء يعتزون بممارسة أعمال الرجال ، ولا يعتز أحد من الرجال باعمال نسوية خالصة كتدبير المنزل وتربية الاطفال. لذلك من الحق الذي لايمكن أن يرد أو يكابر فيـه أن الغرب لم يكرم المرأة من حيث هي امرأة .

وليس غير الاسلام هو الذي قد أكرمها وعظم شأنها واضعاً إياها موضعها الفطري ، ورفع بذلك مقام الأنوثة بالمعنى الصحيح . فالتمدن الاسلامي يضع كلا الصنفين موضعه الطبيعي – الرجل موضع الرجل والمرأة مكان المرأة – ويستخدمه للأعمال التي قد أعدته الفطرة لها . ثم يهيىء له فرص العز والرقي والنجاح على حد سواء واضعاً إياه في مكانه . وذلك أن الذكورة والانوثة عند الاسلام من الاجزاء اللازمة للانسانية ، وسواء أهميتها لتعمير التمدن . وكل ما يؤديان من الخدمات في دائرته ، هو مفيد للتمدن على السواء ، وجدير بالتقدير نفسه . ولا فضيلة للذكورة ، ولا ذل في الانوثة . وكما أن عز الرجل ورقيه ونجاحه ، هو في أن يبقى على رجوليته ويقوم بواجبات الرجال ، كذلك عز المرأة ورقيها ونجاحها في أن تظل امرأة وتؤدي واجبات النساء . ومن شأن التمدن الصالح أن يضع المرأة في دائرة عملها الطبيعية ثم يعطيها كل الحقوق ، ويكرمها ويعظم شأنها ويشحذ مواهبها الكامنة بالتربية والتعليم ويفتح أمامها سبل الرقي والنجاح في دائرة عملها تلك .

التحفظات

هذه صيغة كاملة لنظام الاجتماع الاسلامي ، قد عرضناها في الصفحات الماضية . وهُنا ، قبل أن يتقدّم القارىء في البحث يَحسُن به أن يعيد النظر في الخصائص البارزة لهذه الصيغة . فممّا يرومه هذا النظام الاجتماعي :

١ ـ أن يُطهّر الوَسَط الاجتماعي من كل محرّكات الشهوة وعوامل إغرائها وتهييجها بقدر الإمكان ، حتى يكون لقُوى الإنسان الفكرية والجسدية أن تنشأ وترتقي في جوّ هادىء مطهّر ، ويتمكّن الانسان من أن يقوم بنصيبه من العمل لتعمير التمدُّن بقوّة موفورة مدّخرة.

٢ ـ أن تكون العلاقات الجنسية محدودةً في دائرة الزواج أما خارج هذه الدائرة ، فلا يُسدّ فيه باب الفوضى العملية فحسبُ ، بل باب الشرود الفكري أيضاً ما أمكن .

٣ ـ أن تكون دائرة عمل الرجل منفصلةً عن دائرة عمل المرأة ويكلّف كل منها بخدمات تمدّنية مختلفة وفقاً لطبيعته ومقدرته الجسدية

والعقلية . ثم تُنظِّم علاقتهما تنظيماً يجعلهما متعاونين متعاضدَين في حدود الشرع . ولا يكون لأحد منهما أن يتجاوز تلك الحدود ، فيتدخَّل في شؤون الآخر .

٤ ـ أن تكون منزلة الرجل في الاسرة منزلة القوّام ، ويكون جميع أفراد الأسرة مطيعين لربّ البيت .

٥ ـ وأن يتمتّع كلٌّ من الرجل والمرأة بالحقوق الإنسانية الكاملة ، ويُتاح له أحسن الفُرَص للتقدُّم والرقيّ ، بدون أن يتجاوز الحدود المرسومة له في نظام الاجتماع .

وإن النظام الاجتماعي الذي قد شُيِّدت أركانه على هذه الصيغة ، يحتاج إلى تحفُّظاتٍ تَضمن لكيانه البقاءَ بخصائصه جملةً . والذي يتَّخذه الاسلام من هذه التحفُّظات ، هو من أنواع ثلاثة :

١ ـ إصلاح الباطن .

٢ ـ قوانين العقوبات .

٣ ـ التدابير الوقائية .

وهذه التحفُّظات الثلاثة قد اقتُرحت كلها مراعاةً لملاءمتها التامّة لمزاج النظام الاجتماعي ومقاصده . فهي تحفظه وتقوّي أمره بتفاعلها معاً.

فبإصلاح الباطن يُربَّى الإنسانُ تربيةً تحمله على إطاعة هذا النظام

الاجتماعي من تلقاء نفسه ، سواءً أكان هنالك في خارجه قوّة تُكرهه على الإطاعة ، أم لم تكن .

وبقانون العقوبات يوصّد باب الجرائم التي تقضّ هذا النظام وتهدم أركانه .

وبالتدابير الوقائية تروّج في الحياة الاجتماعية عادات وطُرُقٌ تطهّر بيئة المجتمع من المُغريات المتصنّعة والمحرّكات غير الطبيعية . وتقلّل من إمكان الفوضى الجنسية إلى أبعد مدى . فالذين لا يتمّ إصلاح باطنهم بالتعليم الخلقي ، ثم هم لا يخافون قانون العقوبات ، تُقيم هذه الطرق الاجتماعية في سبيلهم من العقبات ما يتصعّب عليهم الإقدام العملي على الفوضى الجنسية ، برغم كونهم مائلين اليها . ثم هذه الطرق هي التي تفرق بين دائرتي عمل المرأة والرجل بالفعل ، وتقيم نظام الأسرة على صورتها الاسلامية الصحيحة ، وتُحافظ على الحدود التي قد رسمها للتمييز بين حياة النساء وحياة الرجال .

إصلاح الباطن

إن الإطاعة في الاسلام قد بُنيت كلها على الايمان . فالذي يؤمن بالله وبكتبه ورُسله ، هو وحده المكلّف في الحقيقة بأوامر الشرع ونواهيه . ويكفيه لحمله على اتّباع أوامره واجتناب نواهيه ، علمُه بأن الله قد أمره بكذا ، ونهاه عن كذا . فالرجل المؤمن إذا علم من كتاب الله ، أن الله

سبحانه ينهى عن الفحشاء والمنكر ، يقتضيه إيمانه أن يتجنّبه ولا يميل اليه حتى في قلبه. وكذلك اذا علمتْ مؤمنةٌ ماقد قرّر لها الله ورسولُه من المنزلة في المجتمع ، فما يقتضيها إيمانُها أن تقبل تلك المنزلة طائعةً راضيةً ولا تتعدّى حدودَها ، وبذلك يتوقّف اتّباعُ المرء للاسلام اتّباعاً كاملا صحيحاً في دائرة الاخلاق والاجتماع أيضاً ، كسائر شُعَب الحياة ، على الايمان وحدَه . ومن هذا ترى الاسلامَ قبل أن يُوصي الناس في الأخلاق والاجتماع ، يدعوهم الى الايمان ويُعنى بتثبيته في قلوبهم .

وانما هذا هو التدبير الاساسي الذي يتّخذه الاسلام لإصلاح الباطن وهو لا يتعلّق بشؤون الاخلاق فحسب بل بالنظام الاسلامي بأجمعه . ثم إن الاسلام قد اتّخذ في دائرة الاخلاق على وجهٍ خاصٍ ، طريقة للتربية والتعليم جدّ حكيمة ورشيدة ، نذكرها فيما يلي بإيجاز :

الحياء

قد ألمعنا فيما سبق الى أن الزنى والسرقة والكذب وغيرهامن المعاصي التي يرتكبها الانسان بدافعٍ من الطبع الحيواني فيه ، كلها مخالفة للفطرة الانسانية، فيعبّر عنها القرآن بكلمة (المنكر) ومعناه : الشيء الذي يُجهل ولا يُعرف . فالمراد بتسمية تلك الافعال كلها بالمنكر ماتُنكره الفطرة الانسانية ولا تألفه. ومن الظاهر أنه إذا لم تكن تألفها فطرة المرء ، وكان المرء ، إنما يرتكبها باستيلاء الطبع الحيواني عليـــه ، وإكراهه

له على الامر ، فلا بدَّ أن يكون في فطرة الانسان نفسه شيء قد أومأ اليه الشارع الحكيم ، وسمّاه (الحياء) .

إن الحياء يُراد به في الاسلام ذلك الشعور من الخجل الذي يشعر به الانسان في نفسه أمامَ فطرته وأمامَ الله تعالى حينما يميل الى منكر وهذا الحياء هو القوة التي تكفّ الانسان عن الاقدام عن الفحشاء والمنكر . فهو إن ارتكب سيئة بدافع جبلته الحيوانية ،حز في نفسه هذا الحياء ونغّص عليه عيشه . وجماع التعليم والتربية الخلقية في الاسلام أنه ينعش هذه الغريزة المدفونة في الفطرة الإنسانية ، فيغذيها ويُنميها بغذاء العلم والفهم والشعور ، حتى يجعلها حاسة خلقية قوية ، يقيمها في نفس الانسان كالمأمور وهذا ما فسره النبي ﷺ بقوله «ولكل دين خلق وخُلق الإسلام الحياء» ، تفسيراً مطبقاً . وهو أيضاً مما يؤيده الحديث الذي قال فيه النبي ﷺ : «اذا لم تستحِ ، فاصنع ماشئت» ومعناه أنك إن فقدت الحياء ، غلبك الهوى الذي مصدره الجبلّة الحيوانية . ولم يعد المنكر في نظرك منكراً .

والحياء الفطري في الانسان كالمواد الخام لم تُفرغ في قالب . فهو ، وإن كان يتأنف من جميع المنكرات بالطبع ،إلا أنه لا فهم له ولا إدراك فهو لا يعلم السبب لكراهيته لفعل منكر بعينه . وهذا الجهل يضعف فيه شعور الكراهية رويداً رويداً حتى يأخذ المرء في ارتكاب المنكر بدافع الحيوانية وغلبتها عليه . وتكراره لارتكابه يبطل فيه حاسة الحياء آخر

الأمر . وغاية التعليم الخلقي في الاسلام رفعُ هذا الجهل والعمى منه غريزة الحياء . فهوَ لا يعرّفها بالمنكرات الظاهرة البارزة فحسبُ ، بل يوضح لها أيضاً سيئات النية والارادة والاماني المكنونة في تضاعيف النفس ، وينبّهها إلى مفاسد كلٍ منها ، لكي تكرهها كراهية بصيرة . وتأتي بعد ذلك التربية الخلقية ، فتبعث في هذا الحياء المعالج بالتعليم ، من قوة الحس وشدته أن لا يخفى عليه أدنى ميلان في نفس المرء إلى منكر ولا يُقصِّر في تنبيه النفس الانسانية عند أدنى زلة في نيتها أو إرادتها .

وقد بلغ من سعة نطاق الحياء في التعاليم الخلقية الاسلامية أن لا تخلو منه شعبة من شعب الحياة. وقد استخدمه الاسلام حتى لإصلاح الاخلاق في شعبة التمدن والاجتماع التي تتعلق بحياة الانسان الجنسية . فهو ينبهه على أخفى مداخل الريبة في النفس الانسانية ، ويجعله رقيباً عليها ، ولأن هذا المقام لا يتسع للبسط والتفصيل ، نكتفي لبيان الأمر بأمثلة معدودة.

خائنة القلوب

إن القانون إنما يُطلق حكم الزنى على الاتصال الجسدي فحسبُ ، ولكن نظام الاخلاق يعد كل ميلان إلى الجنس المخالف ، خارج دائرة الزواج ، في حكم الزنى من جهة النية والارادة. فتمتع العين بجمال الاجنبي وتلذذ المسامع بحسن صوته، وتلوي اللسان في محادثته، وتحرك الأقدام إلى لقائه كل أولئك من مقدمات الزنى بل هي زنى بعينه باعتبار معانيها وهذا الزنى المعنوي لا يمكن للقانون أن يؤاخذ عليه . وإنما هو خائنة القلوب، فلا يقع

عليها إلا رقيب الضمير . ويشير إلى هذا الحديث النبوي بالكلمات الآتية: « العينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان تزنيان وزناهما البطش والرجلان تزنيان وزناهما المشي، وزنا اللسان المنطق،والنفس تمنى وتشتهي،والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه » .

فتنة النظر

وأكبر خائنة نفسية هي النظر.ولذلك يؤاخذ عليها القرآن والحديث قبل كل شيء : « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ . ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ».(النور . ٣٠-٣١) وفي الحديث:« ابنَ آدم ! لك أول نظرة وإياك والثانية»[١]وقال النبي ﷺ لعلي كرم الله وجهه: «يا عليّ! لا تتبع النظرةَ النظرة. فان لك الاولى وليس لك الآخرة[٢]»وسأل جابر رضي الله عنه عن نظر الفجاءة ، فقال ﷺ:«اصرف بصرك» .[٣]

غريزة التبرج وإظهار الزينة

ومن لواحق فتنة النظر هذه ما يُحبب إلى المرأة أن يُرى حسنها وجمالها

(١) الجصاص
(٢) ابو داود - باب مايؤمر به من غض البصر
(٣) ابو داود

وهذه الرغبة لاتكون جلية بارزة أبداً . ولكن هذا النزوع إلى إظهار الزينة يكمن لا محالة في مطاوي النفس وهو الذي تظهر آثاره في زينة اللباس وتجميل الشعر وانتخاب الازياء الرقيقة الجذابة، وما إلى ذلك من الجزئيات الخفيفة التي لا يمكن حصرها وقد عبّر القرآن عن كل ذلك بمصطلح ٍ جامع هو (تبرج الجاهلية) . فكل زينة وكل تجمل تقصد به المرأة أن تحلو في عين الاجانب، يطلق عليه (تبرج الجاهلية)حتى القناع الذي تستتر به المرأة ، إن انتخب من الالوان البارقة والشكل الجذاب لكي تلذ به أعين الناظرين ، فهو أيضاً من مظاهر التبرج الجاهلي. وليس في الامكان أن تضبط هذه المظاهر كلها بقانون ، بل الامر موكول في ذلك إلى ضمير المرأة نفسها فعليها أن تحاسب نفسها وتتجسس فيها لعلها يكمن في مطاويها هذا النزوع إلى التبرج . فإن وجدته ، فهي لاريب مخاطبة في الامر الإلـهي: « وَلا تَبرَّجْنَ تَبَـرُّجَ الجَـاهِليَّةِ الأولى » (الاحزاب : ٣٣) . وإن الزينة التي تخلو من كل نية فاسدة هي الزينة المشروعة في الاسلام. وأما التي تشوبها شائبة من فساد النية فهي زينة الجاهلية.

فتنة اللسان :

وو كيل آخر لشيطان النفس هو اللسان . وما أكثر الفتن التي يبعثها اللسان وينشرها . رجلٌ وامرأة يتكلمان ، ولا يبدو في حديثهما ما يُشكك أو يريب . ولكن خائنة القلوب قد جعلت الصوت رخيماً ، واللهجة مشوقة والحديث عذباً . فيشير اليها القرآن بقوله : « إن

اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالقَوْلِ ، فَيَطْمَعَ الَّذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ . وَقُلْنَ قَولاً مَعْرُوفاً » (الاحزاب : ٣٢) . ثم هذه الخائنة القلبية هي التي تلتذ بحكاية أحوال الناس في علاقتهم الجنسية المشروعة أو غير المشروعة ، كما تلتذ باستماعها ولأجل هذه اللذة تختلق قصص الحب والغرام من كل صحيح الخبر وموضوعه وتسرد في النوادي والمحافل ، فتنتشر منها في المجتمع انتشار النار في الهشيم . فينبه القرآن على هذا أيضاً بقوله : « إنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ في الَّذِينَ آمَنُوا لَهُم عَذابٌ أليمٌ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ » (النور : ١٩) .

ولفتنة اللسان شعب أخرى متعددة ، وفي كل شعبة منها تعمل خائنة من خوائن القلوب عملها. وقد استقرأها الاسلام ونبه عليها. فليس للمرأة أن تصف أحوال غيرها من النساء لزوجها : «لاتباشر المرأةُ المرأةَ حتى تصفها لزوجها كأنه ينظر إليها » (١) . والمرأة والرجل كلاهما قد نهي عن أن ينشر سره للناس ، لأن ذلك يشيع الفاحشة ويغري بها القلوب . (٢)

وإن أدرك الامام سهوٌ في الصلاة ، أي وجب فيها تنبيه على شيء، فعلى الرجال أن يقولوا : (سبحان الله) ولكن النساء أمرن بأن يُصفقن وليس لهن أن يجهرن بقول . (٣)

(١) الترمذي : باب ماجاء في كراهية مباشرة المرأة بالمرأة .
(٢) أبو داود : باب مايكره من ذكر الرجل مايكون من إصابته أهله
(٣) ابو داود باب التصفيق في الصلاة . والبخاري : باب التصفيق للنساء .

فتنة الصوت

وربما سكت اللسان . وقامت حركات أخرى تؤثر في سمع السامع بصوتها . وهذا أيضاً من باب فساد النية ، فيمنعه الاسلام بقوله : « وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ » (النور : ٣١) .

فتنة الطيب

والطيب أيضاً رسول من نفس شريرة إلى نفس شريرة أخرى . وهو من ألطف وسائل المخابرة والمراسلة ، مما تتهاون به النظم الاخلاقية عامة ولكن الحياء الاسلامي يبلغ من رقة الاحساس أن لا يحتمل حتى هذا العامل اللطيف من عوامل الاغراء . فلا يسمح للمرأة المسلمة أن تمر بالطرق أو تغشى المجالس مستعطرة . لأنها وإن استتر جمالها وزينتها ، ينتشر عطرها في الجو ويحرك العواطف . قال النبي ﷺ : « المرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس ، فهي كذا يعني زانية »(١) . وقال عليه السلام : « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبا (٢) » طيبُ الرجال ماظهر ريحه وخفي لونه ، وطيبُ النساء ماظهر لونه وخفي ريحه » (٣) .

---

(١) الترمذي - باب ماجاء في كراهية خروج المتعطرة

(٢) الموطأ ومسلم .

(٣) الترمذي - باب ماجاء في طيب الرجال والنساء ، وأبو داود باب مايكره من ذكر الرجل مايكون من اصابته اهله .

إن التعبير النفسي الكامل الصحيح الذي قد عبر به الاسلام عن غريزة الحياء الانساني في باب ستر العورات ، لا مثيل له في حضارة من حضارات العالم . ومن حال أرقى أمم الارض وأعلاها ثقافة اليوم - دع عنك غيرها - أن رجالها ونساءها لا يتحرجون من كشف أي جزء من أجزاء جسدهم . واللباس عندهم لمجرد الزينة ، لا للستر . ولكن الاسلام أكثر ما يهمه من اللباس هو الستر دون الزينة . فهو يأمر الرجل والمرأة أن يسترا من جسمها كلّ الاجزاء التي فيها جاذبية للصنف الآخر . والعري عند الاسلام من الوقاحة وسوء الادب الذي لا يكاد حياؤه يصبر عليه بحال من الاحوال . وماذا يقال في الاجانب، إن الاسلام لا يحب حتى للزوجين أن يتجرد أحدهما أمام الآخر . « وإذا أتى أحدُكم أهله فليستتر . ولا يتجردان تجرد العيرين »(١) . وقالت عائشة رضي الله عنها : « ما نظرت إلى فرج رسول الله ﷺ »(٢) . وأفضل درجة من الحياء أن لا يرضى الاسلام للمرء أن يتجرّد حتى في خلوته ، لأن الله أحقّ أن يستحيا منه (٣) . وجاء في الحديث : « إيّاكم والتعرّي، فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط وحين يفضي الرجل الى أهله ، فاستحيوهم وأكرموهم»(٤).

(١) ابن ماجة : باب التستر عند الجماع.
(٢) شمائل الترمذي : باب ما جاء في حياء رسول الله صلى الله عليه وسلم.
(٣) الترمذي : باب حفظ العورة.
(٤) الترمذي : باب ما جاء في الاستتار عند الجماع

وما اللباس الذي يشف عن الجسم ويفضح العورات ، بلباس في نظر الاسلام . قال رسول الله ﷺ : « نساء كاسيات عاريات مُميلات مائلات ، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لايدخلن الجنّة ولايجدن ريحها »(١) .

ولا نقصد في هذا المقام استيعاب جميع الأحكام الواردة في هذا الباب. وإنما سُقنا منها أمثلة معدودة ، ليتأملها القارىء ويقدّر منها مقياس الاسلام العالي للأخلاق ، وروحه الخلقي السامي . فالاسلام يريد أن يطهّر جوّ المجتمع ويبقيه من كل مغريات الفحشاء والمنكر . وهذه المُغريات مصدرها جميعاً الباطن الانساني . فهناك تنشأ جراثيم كل منكر وفاحشة. ومن هناك تبتدىء الحركات الخفيفة التي ربما غفل عنها الانسان الجاهل زاعماً إيّاها هنَات لاضرّ ، ولكنّها ـ في رأي الحكيم العليم ـ علّة العلل وأصل الأمراض التي تدمّر التمدّن والأخلاق والاجتماع. ولذلك يُريد التعليم الخلقي الاسلامي أن يبعث في باطن الانسان شعوراً نفسياً من الحياء ، يكون من القوة والشدّة بحيث يدفعه على محاسبة نفسه بنفسه على الدوام، حتى إذا آنس في خفاياها أدنى ميل الى المنكر ، قهره بنفسه ، وقضى عليه بقوة إرادته .

قانون العقوبات

إن المبدأ الرئيسي لقانون العقوبات الاسلامي أن لايشد المرء

(١) مسلم : باب النساء الكاسيات العاريات.

بوثاق السياسة إلا اذا ارتكب بالفعل عملا مخرباً للتمدن . فإذا فعل، فلا ينبغي أن يُعوِّده ارتكاب المـآثم واحتمال العقوبات ، بمعاقبته على ذلك عقاباً هيّناً ، بل يجب أن تجعل الشروط اللازمة لاثبات الجرائم شديدة مستعصية (١) وأن يجنب الناسُ التعرض لمؤاخذة القانون ما أمكن (٢) . ولكنه إذا وقع أحدهم في بطشته ، وقامت البينة عليه ، فليعاقبن عقاباً لايعجزه وحده عن إعادة تلك الجريمة ، بل يكون نكالا لألوف من أمثاله الذين يميلون إلى ارتكابها ، حتى يرهبوها ويحجموا عنها . وذلك أن غاية القانون هي تطهير المجتمع من الجرائم ، لاتعويد الناس إياها ، ومعاقبتهم عليها مرة بعد أخرى .

والفعلتان اللتان قد قرّرهما الاسلام من الجرائم المستلزمة للعقوبة ، حفظاً لنظام الاجتماع هما اثنتان : الزنى والقذف .

حد الزنى

قد ذكرنا فيما سبق عن الزنى ، أن هذه الفعلة نتيجة لانحطاط الانسان

(١) إن الشروط اللازمة لاثبات الجرائم في قانون الشهادات الاسلامي ، شديدة جداً على العموم . ولكن الشرائط لاثبات جريمة الزنى قد جعلت أشد وأصعب من سائرها فالقانون الاسلامي يكتفي بشاهدين اثنين للقضاء في عامـة شؤون الحياة . ولكنه يستلزم لاثبات الزنى أربعة شهداء على الاقل .

(٢) من قول النبي صلى الله عليه وسلم: ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فان كان له مخرج ، فخلوا سبيله . فان الامام يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة . (الترمذي : أبواب الحدود) .

الى أسفل دركات الخلق . فالذي يرتكبها ، يبرهن أن نفسه قد غلبتها البهيمية كل الغلبة ، فهو لا يصلح لأن يعيش في المجتمع كعضو صالح من أعضائه . وهذه الفعلة من وجهة نظر الاجتماع من أكبر السيئات التي تأتي التمدن الانساني من القواعد . ولهذا قد قررها الاسلام في نفسها جريمة تستلزم العقوبة ، سواء أاقترنت بها جريمة أخرى كالقسر والاكراه ، والتحامل على حق الآخر ، أم لا . ولذا يأمر القرآن : « الزَّانيةُ والزَّاني ، فاجْلِدُوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جلْدةٍ ، ولا تأخذْكم بهما رأفةٌ في دين الله ، إنْ كنتم تؤمنُون بالله واليوم الآخر . وليشهدْ عذابهما طائفةٌ من المؤمنين » . (النور : ٢)

وقد كبُر مابين القانون الغربي والقانون الاسلامي من الاختلاف في هذا الباب . فالقانون الغربي لا يعتبر الزنى في نفسه من الجرائم . وإنما يصير جريمة في عينه إذا كان بإكراه ، أو إذا ارتكبه الفاعلُ بامرأة في عقد رجل آخر . وبعبارة أخرى ليست الجريمة في القانون الغربي هي الزنى نفسه ، بل الجريمة هي الإكراه والاعتداء على حق الآخر . بخلاف الاسلام ، فان الزنى في قانونه جريمة في ذاته ، وتُضاف اليه جريمة أخرى ، إذا كان معه قسر وإكراه ، أو اعتداء على حقوق الآخرين . ولهذا الاختلاف الجوهري في النظريات ، يختلف القانونان في أساليبهما في باب العقوبة. فالقانون الغربي يكتفي بالحبس عقوبة للزنى بامرأة ذات زوج ، فلا يعاقب عليها إلا بغرمٍ يؤدى إلى زوجها . وهذه العقوبة

ليس من شأنها أن تقمع الجريمة، بل هي حرية بأن تزيد الناس جراءة عليها لأجل ذلك تجد سيئة الزنى إلى الزيادة والانتشار في الأقطار العاملة بهذا القانون . والقانون الاسلامي ، على عكس ذلك ، يعاقب على الزنى عقاباً شديداً يُطهّر المجتمع من هذه الجريمة ومرتكبها مدة طويلة من الزمن، فالأقطار التي عملت بعقوبة الاسلام لجريمة الزنى ، لم يعم فيها ارتكابها قط . وذلك أن إقامة الحد على الجاني مرة واحدة ، تلقي في قلوب الأهلين من الهيبة والروعة مالا يعود معه أحدهم يجترىء على الجريمة إلى سنين . فكأنها عملية جراحية نفسية ، تجري على ذهن المائلين إلى الجرائم ، فتنصلح بها نفوسهم من تلقائها .

وإن الضمير الغربي يشمئز من عقوبة الجلدات المئة . والسبب في ذلك لايرجع إلى كونه لايحب إيذاء الانسان في جسده . بل السبب الحقيقي أنه لم تكتمل بعد نشأة شعوره الخلقي . فهو بينما كان يعد الزنى من قبل عيباً وهجنة ، إذا به الآن لايعتبره إلا لعباً وسلوة ، يملل به شخصان نفسيهما ساعة من الزمان . فهو يريد لذلك أن يسامح في هذا الفعل ولا يحاسب عليه ، إلا إذا أخل الزنى بحرية رجل آخر أو بحق من حقوقه القانونية . وحتى عند حصول هذا الاخلال لا يكون الزنى عنده إلا من صغار الجرائم التي لاتتأثر بها إلا حقوق شخص واحد ، فيكفي المعاقبة عليه بعقاب خفيف أو تغريم !.

وبديهي أنه من كان هذا تصوره للزنى، لابد أن يرى حد المئة جلدة

عقوبة ظالمة جداً لهذا الفعل. ولكنه إذا ارتقى شعوره الخلقي والاجتماعي وعلم أن الزنى سواء كان بالرضى أو بالاكراه، وكان بامرأة متزوجة أو باكرة ، جريمة اجتماعية في كل حال تعود مضارها على المجتمع بأسره، فانه لا بد أن تتبدل نظريته في باب العقوبة ، ويعترف بوجوب صون المجتمع من تلك المضار وبما أن العوامل المحركة للمرء على الزنى متأصلة جداً في جبلّته الحيوانية ، وليس من الممكن قلع شأفتها بمجرد عقوبات الحبس والغرم ، فلا مندوحة لقمعه من استخدام التدابير الشديدة . ومما لاشك فيه أن وقاية ملايين من الناس مما لا يحصى من المضار الخلقية والعمرانية بايذاء شخص أو شخصين إيذاء شديداً خير من رفع الاذى عن الجناة وتعريض الامة كلها لمضار لاتنحصر فيها ، بل تتوارثها أجيالها القادمة أيضاً بلا ذنب لها .

وهناك سبب آخر لاعتبارهم حد المئة جلدة من العقوبات الظالمة ، يفطن له المرء بسهولة إذا أنعم نظره في أسس الحضارة الغربية . وذلك **أن حضارة الغرب ـ كما أسلفنا ـ قد قامت على إعانة (الفرد) على (الجماعة). وتركبت عناصرها بتصور مغلو فيه للحقوق الفردية.** لذلك مهما كان من ظلم الفرد واعتدائه على المجموع ، فلا يتكره أهل الغرب ، بل يحتملونه غالباً بطيبة نفس . ولكنه كلما امتدت إلى الفرد يد القانون حفظاً لحقوق الجماعة، اقشعرت منه جلودهم خوفاً وفزعاً وأصبح كل نصحهم وتحمسهم بحق الفرد دون الجماعة. ثم إن ميزة أبناء الجاهلية

الغربية - كأهل الجاهلية في كل زمان - أنهم يهتمون بالمحسوسات أكثر من اهتمامهم بالمعقولات . ولهذا يستفظعون الضرر الذي ينال الفرد لكونه ماثلاً أمام أعينهم بصورة مرئية. ولكنهم لايدركون خطورة الضرر العظيم الذي يلحق المجتمع وأجياله القادمة جميعاً ، على نطاق واسع لأنهم يكادون لا يحسون به لسعته وعمق آثاره .

حد القذف

ومثل مضار الزنى مضار القذف. فإن قذف عفيفة من النساء لا يجر عليها وحدها سوء القالة والشهرة ، بل هو يشيع الفاحشة في المجتمع ، ويفسد العلائق الزوجية ، وينشر العداوة في الاسر ، ويدخل الريبة في الانساب . ويدفع به شخص واحد عشرات من النفوس إلى الشدائد والمحن عدداً من السنين، بمجرد ما يفوه به من كلمة بهتان. لذلك يؤاخذ عليه القرآن، ويقرر له عقوبة شديدة « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً . وأولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ » (النور : ٤)

التدابير الوقائية

وهكذا يأتي قانون العقوبات الاسلامي ، فيقمع - أولاً - الخلاعة والفجور بقوته السياسية ، ويصون - ثانياً - الصالحين من أفراد المجتمع

من سوء مقال أهل الخبث. وإذا كان تعليم الاسلام الخلقي يصلح المرء في باطنه، حتى لا ينشأ فيه ميل إلى الإثم والمعصية، وكان قانون العقوبات الاسلامي يصلحه من الخارج، يُكبت بالعنف ما ينشأ في نفسه من نزعات الفجور لنقص تربيته الخلقية، وتمنع من أن تنتقل من القوة إلى الفعل فان هناك بين هذين النوعين من التدابير، تدابير أخرى قد اتخذها الاسلام ردءاً للتعليم الخلقي لإصلاح الباطن،وأصلح نظام الاجتماع بهذه التدابير إصلاحاً لا يدَع مواطن الضعف الخلقي، التى تبقى فيأفراد الجماعة لنقص تربيتهم، تنمو وتتحول من القوة إلى الفعل. وذلك لكي تقوم في المجتمع بيئة تخلو من كل ما يثير في المرء نزعات السوء، وتتنزه عن جميع المغريات، وتقل فيها أسباب الفوضى الجنسية إلى أبعد حد ممكن، ويوصد باب جميع صور السلوك الانساني التي قد تخل بنظام التمدن. وها نحن نفصل القول في كل واحد من هذه التدابير :

أحكام اللباس وستر العورات

إن أول ما عني به الإسلام في سبيل إحكام الاجتماع هو إبطال العري، وتعيين العورات للرجال والنساء. وإن الحال التي كانت عليها الجاهلية العربية في التهاون بالعري، لا تختلف عنها حال الامم المهذبة الراقية اليوم اختلافاً يذكر فكان رجال من العرب يتعرى بعضهم أمام

بعض بدون حياء أو تردد (١) . وكانوا لا يرون لزوم الاستتار عند الغسل أو قضاء الحاجة . وكانوا يطوفون بالكعبة عراة ، ويعتقدونه من أفضل العبادات (٢) . حتى النساء كن يتعرين عند الطواف (٣) . وكن يلبسن في عامة الأحوال لباساً يكشف عن بعض الصدر وعن جانب من الذراعين والكشح والساقين(٤) ... وهي حالة توجد اليوم بعينها في أوربة وأميركا واليابان . وليس في أقطار الشرق أيضاً نظام اجتماعي - غير الاسلام - قررت فيه حدود الكشف والستر، على وجه العناية والاهتمام .

فلقّن الاسلامُ النوع الانساني أول درس في الحضارة في هذا الباب بقوله : « يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيْشاً » (الأعراف : ٢٦) . ففُرِض بهذه الآية سترُ

---

(١) قد أخرج مسلم في باب (الاعتناء بحفظ العورة) أنه أقبل مسور بن مخرمة بحجر يحمله ثقيل وعليه إزار خفيف فانحل ازاره، ومعه الحجر لا يستطيع أن يضعه، حتى بلغ به إلى موضعه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارجع إلى ثوبك فخذه ولا تمشوا عراة .

(٢) قد روي عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وابراهيم النخعي وسعيد بن جبير الزهري وغيرهم انهم قالوا: «كان رجال من العرب يطوفون بالبيت عراة» (ابن كثير: ج ٢ ص ٢١٠)

(٣) قد جاء في كتاب التفسير في صحيح مسلم أن كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، فتقول: من يعيرني تطوافاً، تجعله على فرجها وتقول:

(اليوم يبدو بعضه او كله فما بدا منه فلا أحله)

وكان اعطاء الكسوة لمثل هذه السائلة يعد من البر .

(٤) انظر التفسير الكبير للرازي الاية : « وليضربن بخمرهن على جيوبهن »

الجسم على كل رجل وامرأة . وشدد النبي ﷺ في النهي عن كشف العورة والنظر اليها . فقال : « ملعون من نظر إلى سوأة أخيه »(١) . « لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة »(٢) « لأن أخرّ من السماء فأنقطع نصفين أحبّ إليّ من أن أنظر إلى عورة أحد أو ينظر إلى عورتي »(٣) . « إيّاكم والتعري ، فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط وحين يفضي الرجل إلى أهله »(٤) . « إذا أتى أحدكم أهله فليستتر ، ولا يتجردا تجرد العيرين »(٥) وخرج رسول الله ﷺ ذات مرة إلى إبل الصدقة فرأى راعيها تجرد في الشمس . فعزله وقال : « لا يعمل لنا من لا حياء له »(٦) .

حدود العورة للرجال

وبجانب هذه الاحكام قرر الاسلام حدوداً متباينة لعورات النساء والرجال . والعورة في مصطلح الشرع هي مايجب ستره من أعضاء الجسم فقرّر ما بين السُرّة والركبتين عورة للرجال ، وأمروا ألا يكشفوه لأحد ، ولا أن ينظروا اليه في غيرهم . عن أبي أيوب الانصاري عن النبي

---

(١) أحكام القرآن للجصاص
(٢) أحمد ومسلم وابو داود والترمذي ـ باب تحريم النظر إلى العورات
(٣) المبسوط ـ كتاب الاستحسان
(٤) الترمذي ـ باب ما جاء في الاستتار
(٥) ابن ماجه ـ باب التستر عند الجماع .
(٦) المبسوط ـ كتاب الاستحسان الجزء ١٠ ـ الصفحة ١٥٥

ﷺ : «مافوق الركبتين من العورة وأسفل من السرة من العورة»[١]. «عورة الرجل مابين سرته إلى ركبته»[٢]. عن أبي طالب عن النبي ﷺ: «لا تبرز فخذك ولا تنظر إلى فخذ حي ولا ميت»[٣]. وهذا الحكم عام لم يستثن منه إلا زوجة الرجل. فقد جاء في الحديث: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ماملكت يمينك»[٤].

حدود العورة للنساء

أما حدود العورة للنساء فقد جعلت أوسع من عورة الرجال فامرن أن يخفين كل جسمهن، غير الوجه واليدين، عن كل الناس، وفيهم آباؤهن وإخوتهن وسائر أقاربهن من الذكور ولم يستثن من ذلك إلا أزواجهن: «لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تخرج يديها إلا إلى ههنا، وقبض نصف الذراع»[٥] «الجارية إذا حاضت، لم يصلح أن يرى منها إلا وجهها ويدها إلى المفصل»[٦]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: خرجت لابن أخي عبد الله بن الطفيل مزينة، فكرهه النبي

---

(١) الدارقطني
(٢) الدارقطني والبيهقي
(٣) ابو داود وابن ماجه
(٤) مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه
(٥) ابن جرير الطبري
(٦) ابو داود

ﷺ ، فقلت : إنه ابن أخي يارسول الله! فقال : « إذا عرقت المرأة ، لم يحل لها أن تظهر إلا وجهها وإلا مادون هذا وقبض على ذراع نفسه ، فترك بين قبضته وبين الكف مثل قبضة أخرى » . (١) وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أخت زوج النبي ﷺ . فدخلت عليه ذات مرة في لباس رقيق يشف عن جسمها . فأعرض النبي عنها وقال : « يا أسماء ! إن المرأة إذا بلغت الحيض ، لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفه » . (٢) ودخلت حفصة بنت عبد الرحمان على عائشة زوج النبي ﷺ ، وعلى حفصة خمار رقيق ، فشقته عائشة وكستها خماراً غليظاً. (٣) وقال النبي ﷺ «لعن الله الكاسيات العاريات». وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «لا تلبسوا نساءكم الكتان ولا القباطي. فإنها تصف ولا تشف » . (٤)

فيعلم من جميع هذه الروايات أن جسم المرأة كله ، إلا وجهها ويديها ، عورة يجب أن تسترها حتى عن أدنى أقاربها في البيت . ولا يجوز لها أن تكشف عورتها على أحد غير زوجها سواء كان أباها أو أخاها أو

---

(١) ابن جرير الطبري

(٢) ابوداود مرسلاً

(٣) الموطأ للامام مالك

(٤) المبسوط _ كتاب الاستحسان

ابن أخيها . حتى ولا يحل لها أن تلبس لباساً رقيقاً يشف عن عورتها أو يصفها .

على أن كل ماورد في هذا الباب من الاحكام ، هو للمرأة الشابة . فتنفذ هذه الاحكام ـ في ستر العورة ـ مذ تقارب المرأة البلوغ ، وتبقى نافذةً عليها مادامت فيها جاذبية جنسية فإذا جاوزت المرأة ذلك العمر وتقدمت في السن، فإنها لاريب يخفف منها.في القرآن : «وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً ،فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ . وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ » (النور : ٦٠) وفي الآية تصريح بعلة التخفيف والمراد بعدم الرجاء في النكاح هو أن تبلغَ المرأة عمراً تفنى فيه الشهوة الجنسية ولاتبقى في المرأة جاذبية . على أن الله تعالى قد ألزمهن لمزيد الحيطة أن لايقصدن بوضع الثياب إبداء زينتهن وأما إذا كان في نفس المرأة أثارة من الشهوة الجنسية ، فلايجوز لها أن تخلع الثوب عن رأسها ، وإنما التخفيف للعجائز اللاتي يجعلهن تقدّم السنّ في غنى عن العناية بلباسهن، واللاتي يكاد لاينظر إليهن أحد إلا بنظر الإجلال والاحترام وأمثال هؤلاء لاجناح عليهن أن يخلعن خمرهن في بيوتهن .

الاستئذان

والحد الآخر الذي قد وضعه الاسلام بهذا الصدد ، هو أنه قد

منع الذكور من أهل البيت أن يدخلوا البيوت بغير استئذان ، حتى لا يروا نساءهم في حال لا ينبغي لهم رؤيتهن فيها «وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» (النور : ٥٩) . وقد أشير في هذه الآية أيضاً إلى علة الأمر ، وهي بلوغ الاطفال الحلم ، أي نشأة الشعور الجنسي في نفوسهم . فإذا أدرك الأطفال هذه السن ، وقع عليهم تكليف هذا الحكم ، ولا لزوم لطلبهم الإذن قبل ذلك .

وبجانب هذا ، أمر الأجانب ألا يدخلوا بيتاً إلا بإذن أهله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا» . (النور : ٣٧) والقصد بذلك وضع الحد الفاصل بين داخل البيت وخارجه، حتى يكون النساء والرجال في حياتهم المنزلية في مأمن من نظر الأجانب. وهذه الأحكام ما كادت العرب تفهم علتها بادىء ذي بدء ، فربما كانوا يتطاولون إلى البيوت من الخارج . ووقع ذلك للنبي ﷺ نفسه ذات مرة ، إذ اطلع رجل من جحر في حجر النبي ﷺ ، ومع النبي مدرى يحك به رأسه . فقال « لو أعلم أنك تنظر لطعنت به في عينك . إنما جعل الاستئذان من أجل البصر »[1] وأعلن النبي بعد ذلك : « من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم ، فقد حل لهم أن يفقؤوا عينيه[2] » . ثم أمر الرجال الاجانب ألا يدخلوا البيوت

(١) البخاري - كتاب الاستئذان

(٢) مسلم-باب تحريم النظر في بيت غيره

إذا سألوا أهلها شيئاً ، بل يسألوهم من وراء حجاب : « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ . ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ » (الاحزاب : ٥٣) وفي هذا المقام أيضاً قد أشير إلى علة الحكم بكلمات: « ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ». فالمقصود الرئيسي هو صون النساء والرجال من النزعات والحركات الشهوانية ، وما وضعت هذه الحدود والقيود إلا منعاً لاختلاط الرجال والنساء وارتفاع الكلفة فيما بينهم .

وهذه الأحكام لاتقتصر على الأجانب وحدهم ، بل يُطالب بها أيضاً خدمة البيوت وخَوَلها . فقد جاء في الآثار أن فاطمة رضي الله عنها لما ناولت أحد ابنيها بلالاً أو أنساً قال رأيتُ كفَّا ـ أي لم ير وجها [1] . ومن المعلوم أن كلا منهما كان خادماً خاصّاً للنبي ﷺ ، وكان يعيش عنده كأحد أهله .

منع الخلوة واللمس

والحد الثالث الذي قد وضعه الاسلام هو أنه لا يجوز لرجل أن يخلو بامرأة إلا أن يكون زوجها ولا أن يمسّ جسمها ، وإن كان من أدنى أقاربها . عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « إيّاكم والدخول على النساء. فقال رجل من الانصار: يارسول الله! أفرأيت الحَمْو؟ قال: الحمو

(١) تكملة فتح القدير ج٨ ص٩٨ .

الموتُ »(١) . وقال ﷺ : «لا تلِجوا على المُغيبات . فإن الشيطان يجري من أحدكم مجرى الدم »(٢) . وعن عمرو بن العاص ، قال : نهانا رسول الله ﷺ أن ندخل على النساء بغير إذن أزواجهن(٣) وقال ﷺ «لا يدخلنّ رجل بعد يومي هذا على مُغيبة إلا ومعه رجل أو اثنان»(٤).

ومثل هذه الاحكام قد وردت في اللمس . فقال النبي ﷺ : « من مسّ كفّ امرأة ليس منها بسبيل،وضع على كفّه جمرة يوم القيامة»(٥).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا بايَع النساء ، يبايعهن كلاماً ، ولا يأخذ أيديهنّ في يده . فقالت : « لا والله ما مسّت يدُه يدَ امرأة قط في المبايعة.ما يبايعهن إلا بقوله: قدبايعتك على ذلك »(٦).

وعن أميمة بنت رقيقة قالت : أتيتُ رسول الله ﷺ في نسوة من الأنصار نبايعه ، فقلنا : يارسول الله : نبايعك على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيك في معروف . قال : فيم استطعتنّ وأطقتنّ . قالت : قلنا الله

(١) الترمذي: باب ماجاء في كراهية الدخول على المغيبات. البخاري: باب لايخلون رجل بامرأة الا ذو محرم . مسلم : باب تحريم الخلوة بالأجنبية .

(٢) الترمذي : باب كراهية الدخول على المغيبات .

(٣) الترمذي: باب في النهي عن الدخول على النساء الا باذن ازواجهن.

(٤) مسلم: باب تحريم الخلوة بالاجنبية.

(٥) تكملة فتح القدير ج٨ص٩٨.

(٦) البخاري : باب بيعة النساء. ومسلم : باب كيفية بيعة النساء .

ورسوله أرحم بنا . هلمّ نبايعك يارسول الله : فقال رسول الله ﷺ : «إني لاأصافح النساء . إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة»[1].

وهذه الاحكام أيضاً تخصّ الشواب من النساء. وأما العجائز اللاتي قد طعَنَّ في السنّ، فتجوز الخلوة بهنّ ولا يُمنع من لمسهنّ . فيروى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه كان يزور قبيلة كان قد ارتضع فيها ، فيصافح العجائز من تلك القبيلة . وقيل عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أنه استأجر عجوزاً لتمرضه وكانت تغمز رجليه وتفلي رأسه[2]. وهذا الفرق الذي جُعل بين العجائز والشواب يدلّ بنفسه على أن المراد بكل هذه الأحكام هو أن يمنع بين الصنفين من الاختلاط ما قد يكون سبباً للفتنة .

الفرق بين محارم المرأة وغيرهم

هذه من الأحكام التي تتناول كل الرجال إلا زوج المرأة ـ سواء كانوا ذوي محرمها أم لا . فالمرأة لايجوز لها أن تُظهر عورتها لأحد منهم أي تكشف لهم عما سوى وجهها ويديها من أجزاء كما أن المرء لايجوز له أن يُظهر عورته ـ أي يكشف مابين سرته وركبته ـ لأحد .وجميع

(١) النسائي : باب بيعة النساء وابن ماجة : باب بيعة النساء .

(٢) تكملة فتح القدير ج٨ ص٩٨

الرجال يجب عليهم الاستئذان قبل أن يدخلوا البيوت. ولا يجوز لأحدمنهم أن يخلو بامرأة أو يمس جسمها (١) .

ثم يميّز الاسلام بين محارم المرأة وغيرهم. فقد فُصّل القول في القرآن والحديث عن مدارج الحريّة والتبسّط التي يجوز للمرأة أن تتمتّع بها مع المحارم من رجال أسرتها، ولا يجوز لها ذلك مع غيرهم من الرجال. وهذا هو الذي يُعبَّر عنه بالحجاب في عُرف الناس .

(١) هناك فرق بين ذوي المحرم وغيرهم في لمس جسم المرأة . فيجوز للأخ أن يمسك بيد أخته ويركبها دابة . وبديهي انه لا يحل ذلك لأحد من الرجال الأجانب . وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انصرف عن سفر ، يعانق فاطمة رضي الله عنها ويقبل رأسها. وكذلك كان أبو بكر رضي الله عنه يقبل رأس عائشة رضي الله عنها

أحكام الحجاب

إن الآي القرآنية التي قد وردت فيها أحكام الحجاب مسرودة في مايلي :

« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ . ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ . إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا . وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ

مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ . وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ » . (النور : ٣٠ - ٣١)

« يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ ! لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ . إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ . وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى » . (الاحزاب : ٣٢ - ٣٣)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ، يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ . ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ » . (الأحزاب : ٥٩)

تأمّلْ هـذه الآيات . فإن الرجال إنما أمروا فيها بأن يغضّوا من أبصارهم ، ويحفظوا من الفواحش اخلاقهم . ولكن النساء قـد أمرن ـ كالرجال ـ بهذين الأمرين ، وأوصين بعد ذلك بأمور مزيدة في باب المعاشرة والسلوك العملي، مما يدلّ صريحاً على أنه لا يكفي لصيانة أخلاقهنّ العناية بغض البصر وحفظ الفروج، بل لا بد لذلك من ضوابط أخرى غير ذلك . وانرجع في هذا المقام إلى آثار النبي ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم، لننظرَ كيف نفّذوا هذه الاحكام المُجمَلة في المجتمع الاسلامي، وماذا يُستنبط من أقوالهم وأفعالهم من التفاصيل المنوية والعملية لهذه الاحكام .

غضّ البصر

إن أول ما أمر به الرجال والنساء في هذا الباب هو الغضّ من أبصارهم . وتترجم كلمة غضّ البصر إلى لغتنا الأردية عامة بمعاني خفض البصر وعدم رفعه من الارض . ولكن ليس هذا مقصود الامر الرباني بهذه الكلمة. بل المقصود اجتناب ما قد عُبّر عنه في الحديث بزنى النظر. فالتلذّذ برؤية جمال الاجنبيات وزينتهن هو مبعث الفتنة للرجال، كما أن الطموح بالبصر إلى الاجانب من الرجال هو مصدر الفتنة للنساء. من هُنا يصدر الفساد طبعاً وعادةً ، ولذلك قد سُدّ بابه أوّلَ ما سُدّ من الابواب ، وهذ هو المراد بغضّ النظر .

على أنه ظاهر أنه ما دام الانسان فاتحاً عينيه في هذه الدنيا ، فلا بد أن يقع بصره على كل ما حوله من الاشياء والاشخاص . وليس في الامكان أن لايرى الرجل امرأةً أبداً ، ولاترى المرأة رجلاً بحال . فقول الشارع عليه السلام في مثل هذا النظر : أنه إن وقع فجأةً ، فلا إثم فيه . وإنّما المحظور أن يعيد المرء نظره إلى حيث يستأنس الزينة والجمال ويجعله مرمى عينيه . عن جرير قال سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة، فقال : « اصرف بصرَك » . [1] وعن بريدة : قال رسول الله ﷺ لعليّ : « ياعليّ ! لاتُتبع النظرةَ النظرةَ . فإن لك الاولى وليس لك الآخرة . » [2] وعن النبي ﷺ قال: « من نظر إلى محاسن امرأة أجنبيّة عن شهوة صُبّ في عينيه الآنك [3] يوم القيامة » [4] .

على أنه قد يكون هناك من الاحايين ما يستدعي النظر إلى امرأة أجنبيّة . كأن ينظر الطبيب إلى مريضة ، أو ينظر القاضي إلى امرأة تحضر بين يديه شاهدةً أو فريقاً في قضيّة ، أوتحصر امرأةفي حريق أو تقع في لجّة فتشرف على الغرق ، أو يكون عرضها أونفسها عرضة للخطر.ففي كل هذه الحالات يجوز النظر إلى عورة المرأةفضلاً عنوجهها، ويجوز كذلك لمسها.بل إن احتضانها أيضاً.إذا كانت متعرّضةً للحرق أو

---

(١) أبو داود-مايؤمر به من غض البصر.

(٢) نفس المصدر .

(٣) الآنك: الرصاص المذاب .

(٤) تكملة فتح القدير ج٨ص٩٧ .

الفرق ـ ليس من الجائز فحسبُ ، بل هو واجب بالضرورة . ويأمر الشارع في هذه الاحوال أن يُخلصَ المرءُ نيّته من الفساد ما استطاع. ولكنه إن اختلجت في نفسه خالجة من الشهوة ، لمقتضى الطبع البشري فيه ، فلا جناح عليه فيه ، لأن مثل هذا النظر وهذا اللمس إنما دَعته الضرورةُ ، وليس في مُكنة الانسان منع مقتضيات الفطرة بتّةً (١) .

وكذلك النظر إلى الأجنبية ، بل إسفاف النظر اليها بقصد التزوج بها ، ليس بجائز فحسب ، بل هو مما ندب إليه في السنة ، وقد رأى النبي ﷺ نفسه امرأة بهذا القصد . وعن المغيرة بن شعبة أنه خطب امرأة فقال النبي ﷺ ، « انظر اليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » (٢) .وعن سهل بن سعد أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ : فقالت يارسول الله جئت لأهب لك نفسي . فنظر اليها رسول الله ﷺ ، فصعد النظر اليها (٣) وعن أبي هريرة ، قال : كنتُ عند النبي ﷺ فأتاه رجل فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار. فقال له رسول الله ﷺ أنظرت اليها ؟ قال : لا . قال : « فاذهب فانظر اليها ، فان في أعين الأنصار

---

(١) راجع لتفصيل هذا الموضوع تفسير الرازي لآية «قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم »،واحكام القرآن للجصاص في تفسير الآية المذكورة وتكملة فتح القدير ـ فصل في الوطء والنظر واللمس ، والمبسوط ـ كتاب الاستحسان .

(٢) الترمذي ـ ما جاء في النظر الى المخطوبة

(٣) البخاري ـ باب النظر الى المرأة قبل التزويج

شيئاً »(١) . وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : «إذا خطب أحدكم المرأة فان استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل »(٢)

فيعلم من التأمل في هذه الحالات الاستثنائية أنه ليس مقصود الشارع عليه السلام منع النظر مطلقاً ، بل المقصود سد ذريعة الفتنة ، ولذلك منع النظر الذي لا تدعو إليه حاجة ولا فيه للتمدن منفعة ، ثم فيه أسباب محركة لنزعات الشهوة في الانسان .

وهذا الحكم موجه إلى الرجال وإلى النساء على حد سواء فقد أخرج الترمذي في سننه عن أم سلمة رضي الله عنها أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة (٣) . قالت : فبينا نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم ، فدخل عليه، وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله ﷺ: احتجبا منه فقلت : يا رسول الله ! أليس هو أعمى ، لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : أفعمياوان أنتما ؟ ألستما تبصرانه ؟(٤)

على أن هناك فرقاً دقيقاً بين نظر المرأة إلى الرجل ونظر الرجل إلى النساء من حيث الخصائص النفسية للصنفين . وذلك أن في طبيعة

(١) مسلم ـ باب ندب من أراد نكاح امرأة الى أن ينظر الى وجهها
(٢) ابو داود ـ باب في الرجل ينظر الى المرأة وهو يريد تزويجها.
(٣) وفي رواية عائشة رضي الله عنها
(٤) الترمذي ـ باب ماجاء في احتجاب النساء من الرجال.

الرجل الاقدام ، فهو إذا أحبّ شيئاً ، يسعى في إحرازه والوصول اليه. ولكن في طبيعة المرأة التمنع والفرار، وهي مادامت على فطرتها لم تنسلخ منها ، لا يمكن أن يكون فيها من الجراءة والوقاحة والاقدام ماتتقدم به بنفسها إلى شيء تحبه وتعجب به . وقد راعى الشارع عليه السلام هذا الفرق بين طبعي الصنفين . فلم يشدد في النهي عن نظر المرأة إلى الاجنبي تشديده في النهي عن نظر الرجل إلى الاجنبية. وقد اشتهر حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أراها لعب الحبشة بحرابهم في المسجد[1] مما يفيد أنه ليس نظر النساء إلى الرجال بمحظور على الاطلاق . وإنما المكروه اجتماع النساء والرجال في مجلس وتحديق بعضهم إلى بعض. وأيضاً لا يجوز من النظر مايخاف منه الفتنة . فذلك الصحابي – ابن أم مكتوم – الذي كان أمر النبي ﷺ زوجه أم سلمة بالاحتجاب منه ، أمر فاطمة بنت قيس بقضاء عدتها في بيته. وذلك أنه لما طلقها زوجها أمرها رسول

(١) هذا الحديث قد أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد عن عائشة رضي الله عنها ، من طرق أربعة ، يزيد بعضهم على بعض. وقد ذهب بعضهم في تأويله إلى أنه وقع هذا في أيام كانت أم المؤمنين حديثة السن فيها ، وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب. إلا أنه صرح ابن حبان أنه وقع ذلك حينما قدم إلى المدينة وفد من الحبشة. وكان قدومه سنة سبع من الهجرة، حسبما يدل عليه التاريخ. وعلى هذا كانت عائشة رضي الله عنها حينذاك بنت خمسة عشر أو ستة عشر. ثم مما رواه البخاري أن كان النبي صلى الله عليه وسلم يسترها بردائه وهو يريها ذلك اللعب . فيضح منه أن أحكام الحجاب كانت قد نزلت حينذاك .

الله ﷺ أن تعتد في بيت أم شريك الانصارية . ثم قال : « ان تلك امرأة يغشاها أصحابي ،اعتدي في بيت ابن أم مكتوم ، فانه رجل أعمى تضعين ثيابك»[1] فالمقصود الحقيقي إذن من مثل هذه الاحكام هو التقليل من مظان الفتنة . ولذلك منع النبي فاطمة بنت قيس من أن تعيش في بيت كان إمكان الفتنة فيه أكثر وأذن لها أن تقيم حيث كان امكانها أقل، والمرأة لم يكن لها بد من بيت تقيم فيه . ولكنه نهى النساء أن يجتمعن برجل أجنبي ويرينه وجها لوجه حيث لا ضرورة تدعو إليه وتستلزمه .

كل هذه المدارج من الاحكام صادرة عن الحكمة . ومن أوتي من البصر النافذ ما يُدرك به مَغزَى الشرع ، يستطيع أن يفهم بكل سهولة أيّ المصالح بُنيت عليها أحكام غضّ البصر ، وعلى أيّ الامور يقف التشديد والتخفيف في هذه الاحكام اعتباراً لتلك المصالح . فالمقصود الحقيقي عند الشارع عليه السلام إنما هو منع الناس من النظرة الآثمة ، وليس له على أعينهم من ثأر . فان هذه الاعين ربّما نظَرتْ بادىء ذي بدء بنظرات بريئة .وجاء شيطان النفس بحُججٍ خادعة لتبريرها وناجى المرء أنه ليست نظراته تلك إلى الغيد الحسان إلا ذوقاً للجمال قد أودعَته الفطرةُ إيّاه . وإذا كان من المباح له أن يجتلي سائر مظاهر الجمال الطبيعي ويجد فيها لذةً ظاهرةً ، فأيّ جناح عليه أن يمتّع نظره برؤية

---

(١) مسلم وأبو داود

الجمال الانساني ويستمد منه لذة روحية. ولكن هذا الشيطان يغضي يريد في نفس الانسان هذا النزوع إلى التمتع والتلذذ ، حتى يعود التذوق للجمال شوقاً إلى الوصال. ومَن ذا الذي يكابر في أن كل ما قد حصل في الدنيا إلى هذا اليوم ، ولا يزال يحدث فيها من الفحشاء والفجور ، باعثه الاول الاعظم هو فتنة النظر هذه؟ ومَن ذا يدّعي بصدقٍ أنه يجد في نفسه رؤية الشباب والجمال في الصنف المخالف ما يجده برأى وردةٍ في الروض ؟ وإذا كان بين هذا وذاك فرق ، وكان النظر إلى الجمال الانساني بخلاف النظر إلى الجمال الطبيعي مَبعث الشهوة في النفوس، فأنّى يحق لأحدٍ القول بضرورة الحرية في هذا النوع من التذوق للجمال مثل الحرية الحاصلة في ذاك . إن الشارع لا يُريد أن يُذهب عن نفوسكم هذا الذوق الجمالي ، وإنما هو يقول لكم أن اختاروا لانفسكم زوجاً يُعجبكم ويروقكم ، ثم اجعلوه وحده مركزاً لكل ما أوتيتم من هذا الذوق ومتعوا به أنفسكم حسبما شئتم ، ولا تميلوا عنه إلى سواه تتبعونه النظر الرغيب فانكم إن فعلتم تلوثتم بالفواحش . وإن لم تتلوثوا بأدناس الفوضى العملية لضبطكم نفوسكم أو لموانع أخرى من حولكم ، لم تسلموا ولا شك من ضلال الفكر وشروده ، فيضيع معظم قوتكم من طريق نظركم ، وتتدنس قلوبكم باللهف على كثير من اللذات الآثمة التي تخيب فيها أمانيكم، وتقعون في حبائل الهوى مُعيدين ومُبدئين ، وتقضون كثيراً من الليالي في اليقظة حالمين . ثم تجدون في أنفسكم مثل لدغ الحية أو مثله

حر الجمر من عشق كثير من الغيد الفاتنات ،ويضيع أكثر حيويتكم في خفقان القلب وهيجان الدم ! .. وما ظنك بهذه الخسارة ، أتافهة هي ؟ وهي لاتجرّها كلها على نفسك إلا بصرفك النظر عن مركزه الشرعي . فما أجدرك إذاً بأن تحدّ من شرود ناظريك وتحذر النظر بدون حاجة، وتجتنب النظرة التي تكون مظنّة الفتنة . أما إن كانت هناك ضرورة تستلزم هذه النظرة ، أو كانت فيها منفعة للتمدّن ،فهي مباحة على الرغم من إمكان الفتنة. وأما إذا لم يكن هناك ضرورة تدعو إلى النظر،ولكن لم يكن فيه ما يُخشى منه وقوع الفتنة ، فعندئذ يجوز نظر المرأة إلى الرجل ، ولا يجوز نظر الرجل إلى المرأة ، إلاّ أن يكون نظر فجاءة .

منع ابداء الزينة وحدودها

كان حكم غضّ البصر موجّهاً إلى كلا الصنفين-الرجل والمرأة-وهناك بعد ذلك أحكام تخصّ المرأة وحدها . وأوّلها أن تجتنب إبداء الزينة إلا في دائرة معيّنة .

وقبل أن يتأمّل القارىء مقاصد هذا الحكم وتفاصيله، يجدر به أن يستعرض في ذهنه تلك الاحكام التي قد مرّت في باب اللباس وستر العورات. فكل جسم المرأة إلاّ وجهها ويديها عورة لا يحلّ لها كشفها

حتى لأبيها أو عمّها أو أخيها أو ابنها. ولا يجوز للمرأة أن تكشف عورتها حتى للمرأة مثلها (١) . فإذا جعلت هذا بوعي منك . فدونك الآن حدود إبداء الزينة :

١ ـ قد أبيح للمرأة أن تبدي زينتها للرجال الآتي ذكرهم من أقاربها : الزوج والاب والحمو (أبو الزوج) والابناء وأبناء الزوج ، والاخوة وأبناء الاخت.

٢ ـ وكذلك أبيح لها ان تبدي زينتها لما ملكت يمينها أي عبيدها وإمائها .

٣ ـ وأيضاً يجوز لها أن تخرج في زينتها أمام من هو تابع لها وتحت سيادتها من الرجال ، وليسوا ممن يميلون إلى النساء ميلاً شهوانياً (٢).

---

(١) حرام على المرأة النظر إلى ما بين السرة والركبة من المرأة الاخرى ، كما أنه حرام على الرجل النظر الى ذلك من الرجل الآخر .

(٢) يكتب الحافظ ابن كثير في تفسير الاية : « أو التابعين غير أولي الاربة من الرجال » : أي الأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء وهم مع ذلك في عقولهم وله . ولا هم لهم الى النساء ولا يشتهونهن (تفسير ابن كثير ٣ : ٢٨٥)

ولعدم الميلان الى النساء في هؤلاء الرجال وجهان : أولها ان يكونوا فاقدي الشهوة تماما ، كالشيوخ المسنين في السن ، او ضعفاء العقول والبله او الخنائى بالخلقة. والثاني ان تكون الفحولة والميل الطبيعي الى النساء موجودا فيهم ، ولكنهم لذلهم وخضوعهم لا يتجرؤون على ان يلقوا ميولهم الشهوانية بنساء البيت الذي هم فيه خدمة او أجراء او يدخلونه سائلين مستجدين. وكلا هذين النوعين يدخل تحت حكم=

٤ ـ ولها أن تبدي زينتها لاطفال لم يظهروا على عورات النساء ،أي الاطفال الذين لم يتبعث فيهم الشعور الجنسي .

٥ ـ ويجوز لها أن تخرج في زينتها لبنات جنسها من النساء . ولم يقل

=التابعين غير أولي الاربة من الرجال. ولكنه مما يجب ألا يغفل عنه، ان يكون جميع امثـــال هؤلاء الذين يؤذن للنساء بابداء الزينة لهم ، متصفين بصفتين حتما ولازما : أولاهما ان يكونوا تبعاً للبيت الذي يدخلون على نسائه . والثانية ان لا يكون من الممكن وقوع النزعة الشهوانية في أنفسهم الى نساء البيت . ولقوام الاسرة انينظرفي أمر التابعين الذين قد أذن لهم بالدخول على نسائه ، هل يصح فيهم ظنه الذي ظنه في بادىء الامر من كونهم غير أولي الاربة . وإن بدا له منهم بعد الاذن الاول مايدل على انهم من أولي الاربة فعليه انيلغي ذلك الاذن . وأوفق النظائر في هذا الباب امر ذلك المخنث الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم قد اذنله بالدخول على نساء البيوت ولكنه بعد امر بدا له منه ، منعه من دخول البيوت ، بل نفاه من المدينة . وبيان ذلك ان كان في المدينة رجل مخنث يدخل على امهات المؤمنين . وبينا هو يوماً عند ام سلمة رضي الله عنها يكلم اخاها عبد الله . اذ دخل النبي صلى الله عليه وسلم وسمعه يقول له : ان فتح الله عليكم الطائف غداً ، فعليك ببادية بنت غيلان الثقفي ، فانها اذا اقبلتأقبلت بأربع،واذا أدبرتأدبرت بثمان.ثم وصف عورتها بعد ذلك بكلمة جد قبيحة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد غلغلت النظر اليها ياعدو الله ! ثم قال لأزواجه:الا ارى هذا يعلم ما هاهنا،فلا يدخلن عليكن هذا.فحجبوه عن البيوت . ثم لم يكتف بذلك، بلامره بالخروج منالمدينة الى البيداء.لأن الوصف الذي وصف به عورة بنت غيلان ، اخذ منه النبي صلى الله عليه وسلم ان النساء يتبسطن معه لخنثه وتأنثه ، كتبسطهن مع بنات جنسهن من النساء . وبذلك يطلع هذا على احوالهن واسرارهن.ثم يصفها للرجال،وذلك مما يخشى منهالفتنة. [انظر بذل المجهود (شرح ابي داود) ،كتاب اللباس ـ باب ماجاء في قوله تعالى غير اولي الاربة من الرجال] .

الله تعالى : (النساء) ، بل قال (نسائهن) . وظاهر أن المراد بهن النساء العفيفات، أو اللاتي هن من قبيلتها او قرابتها أو طبقتها. وأما من سواهن من عامة النساء اللاتي تكون فيهن كلُّ مجهولة الحال والسيّارة ، وذات الريبة والسُّمْعة القبيحة، فيخرجن عن مراد هذا الحكم ، لأن هؤلاء أيضاً قد يكنَّ سبباً للفتنة ، ولهذا لما دخل المسلمون بلاد الشام وجعلت نساؤهم يختلطن بنساء النصارى واليهود ، كتب عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة بن الجراح والي الشام : أما بعد فقد بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات ومعهن نساء أهل الكتاب . فامنع ذلك وحل دونه (1) . وقد صرح ابن عباس رضي الله عنه أنه ليس للمسلمة أن تتجرد بين نساء أهل الذمة . ولا أن تبدي للكافرة إلا ما تبدي للاجانب (2) . وهذا الحكم لا يقصد به التفريق بين النساء على اعتبار ديني . وإنما المقصود به صون المسلمات من مفاسد عشرة النساء اللاتي لا يعرف شيء من أخلاقهن وآدابهن . أو قد عرف منها مالا يرضي الاسلام. وأما الشريفات وذوات العفة والحياء من غير المسلمات ، فلا جرم أنهن يدخلن في حكم (نسائهن) من الآية المذكورة .

وبتأمل هذه الحدود يستنتج المرء أمرين اثنين :

أولها :أن الزينة التي قد رخّص للمرأة في إبدائها في دائرة معيّنة ،

---

(1) انظر تفسير ابن كثير للآية المذكورة .

(2) التفسير الكبير ـ الآية المذكورة .

هي ما سوى عورة المرأة . والمراد بها : لبْس الحلي والتجمُّل باللباس ، والتكحل والتحنؤ وتحسين الشعر ، وما اليها من انواع الزينة الاخرى التي تتخذها النساء عادة في البيوت لاقتضاء أنوثتهن .

والثاني : أنه قد رخّص لهن في إبداء مثل هذه الزينة إما لرجال البيت الذين قد حرّمَتْهُم الحرمة الابدية عليهن، أو للتابعين الذين ليس لهم فيهن شهوة ولا في أخلاقهم من ريبة . فلذلك من المشروط للداخلات عليهن من النساء: أن يكن من (نسائهن) وللداخلين عليهن من الخول والاتباع أن يكونوا (غير أولي الإربة) وللاطفال أن يكونوا ممن (لم يظهروا على عورات النساء) . مما يعلم منه أن مقصود الشارع هو تحديد إبداء النساء لزينتهن في حلقة لا يخشى فيهـــا أن تبعث زينتهن وجمالهن عواطف سوء في القلوب أو تهيء أسباباً للفوضى الجنسية .

وأما من هو خارج هذه الحلقة من الرجال . فقد ورد النهي عن أن يبدين لهم زينتهن . بل قد حُظر عليهن حتى أن يضربن بأرجلهن في المشي، لكي لا يظهر بالصوت ما خفي من زينتهن ، فتتوجه الانظار اليهن . وإن الزينة التي قد أمرن باخفائها عن الاجانب ، هي التي قد أجيز لهن إبداؤها في دائرة محدودة ذكرت آنفا . والمقصود بهذا كله واضح مستبين وهو أن النساء إن ظهرن في زينتهن وجمالهن على الذين فيهم الشهوة الجنسية ، ولم تحوّل الحرمة الأبدية دواعي هذه الشهوة فيهم إلى العواطف البريئة المطهرة ، فلا بد أن يكون من عواقبه ما يقتضيه الطبع البشري . ولسنا

تقول إن إبداء النساء لزينتهن على هذا النحو سيجعل من كل امرأة عاهرة ومن كل رجل فاجراً ، إلا أنه مما لا يستطيع أحد أن ينكره أن في خروج النساء متبرجات ، وفي حضورهن النوادي والحفلات سافرات مالا يعد ولا يحصى من خسائر نفسية ومادية ، ظاهرة وخفية وها هو بين يديك ـ مثل النساء الاوربيات والاميركيات اللاتي يهلكن اليوم معظم دخل أزواجهن في زينتهن . وإسرافهن هذا إلى الزيادة والتفاحش يوماً بعد يوم ، حتى كادت تضيق عنه وسائل رزقهم [1] فهل في رأيك من باعث لهذا الجنون إلا تلك النظرات المشوقة التي تستقبل النساء المتبرجات في الاسواق والمكاتب وحفلات المجتمع؟ ثم تأمل ماهو السبب في انبعاث هذا الشوق المفرط في النساء إلى التجمل والتأنق، وانتشاره فيهن كانتشار الداء والوباء أليس هو حرصهن على أن يحلون في أعين الرجال ويقعن منهم موقع الاعجاب والاستحسان [2] ؟ ولماذا هذا كله ؟ هل هي نزعة بريئة منزهة؟ وهل ليس في مطاويها الشهوات الجنسية الطاغية التي تكاد تتجاوز حدودها الطبيعية وتنتشر ، وتقابلها في الصنف الآخر شهوات مثلها تريد

---

(١) قد انعقد منذ عهد قريب معرض لصانعي الادوات الكمالوية ، وعلم من بيانات الاخصائيين فيه ان نساء انكلترا تنفق عشرين مليون جنيه ، ونساء اميركا مائة وخمسة وعشرين مليون جنيهة على أدوات زينتهن كل سنة . وان ٩٠ في المائة من النساء قد تعودن نوعاً من انواع الزخرفة والتجميل (Make up) .

(٢) و قد بلغ من هيام النساء بتكلف هذا الجمال ان قد عدن يبذلن في سبيله حتى أنفسهن. فغاية ما تتمناه إحداهن انتكون هضيماًخصانة لاتركب جسمهامضغة=

أن تستجيب لطالبها. إنك إن أنكرت هذه الحقيقة فلكأني بك تنكر غداً!

=لحم زائدة . وما من فتاة اليوم إلا وهمها ان تجعل تقطيع جسمها مطابقا لما قد قرره الاخصائيون من المقاييس (Measurements) للصدر والخصر والساق والوركين. كأن الشقية لاترى لحياتها غاية ومقصوداً سوى ان تحلو في عين الذكور. ولبلوغ هذه الغاية تتجوع المسكينة وتحرم نفسها الغذاء الشهي المنمي، وتجتزىء بعصير الليمون والقهوة المرة وما شاكلها من الاغذية اللطيفة . ثم تستعمل من العقاقير بدون مشورة طبيب ، بل بخلاف مشورته ما يهزلها ويضمرها . وقد بقي ولا يزال يفضي هذا الجنون بكثير من النساء الى الهلاك . ففي بودابست ماتت الممثلة الشهيرة (جوسي لاباس) عام ١٩٣٧ ، بوقوف حركة قلبها فجأة . ودل التحقيق في امرها بعد ، انها كانت لا تزال تعيش عيشة الفاقة والسغب منذ أعوام . وكانت تستعمل العقاقير الموصفة (Parent) لتخفيف الجسم ، حتى خانتها قواها فماتت . وتوالت في بوادبست نفسها ثلاثة احداث من هذا القبيل . إذ ذهبت (ماجدا برسيلي) التي كانت لكمال فنها ذائعة الصيت في المجر ضحية لهذا الهيام . وحدث للمغنية (لوئيسازابو) التي سارت اغانيها مسير الشمس ، أن خرت صريعة على المسرح وهي تمثل أمام النظارة . وكانت هذه تظل في حزن دائم على ان جسمها لا ينطبق على المقاييس العصرية للجمال ، فكانت تتخذ التدابير المتصنعة لحل مشكلتها تلك، حتى نقصت من وزنها بقدر ستين رطلاً . وكان من نتائجه ان ضعف قلبها جداً ، فسقطت رمية لعشاق الجمال وتبعتها في ذلك ممثلة أخرى (أيبولا) بالغت في التخفيف من جسمها بالتدابير المتصنعة الى ان أصيبت في عقلها بالخبل الدائم ، فأخذت طريقها الى مستشفى المجانين بدلاً من منصة المسرح . وهؤلاء إنما كن من الشخصيات البارزة ، فقرأنا أخبارهن في الجرائد. ومن يدري كأين من النفوس المغمورة يقضي عليها أو يخرب صحتها هذا الجنون من التجمل والتحالي في أعين الرجال ؟ ! فقل لي بربك : هل هذا كله حرية المرأة أو عبوديتها ؟ وما هذه الحرية الزائفة التي قد زادت من استيلاء أهواء الرجال عليهن، وابتلتهن باستعباد قد حرمن معه الحرية حتى في الاكل والشرب والتمتع بالصحة ، وعادت كل حياتهن ومماتهن مقصوداً به الرجال !

أن يكون هناك في جوف البركان الذي يصعد منه الدخان مادة نارية تكاد تنفجر منه . إنك ياصاح حرّ في عملك ، مختار فيما تأخذ أو تترك . ولكن ليس لك أن تنكر الحقائق . إن هذه الحقائق لم تعد خافية ، بل أصبحت معلومة معروفة بنتائجها التي تتجلى اليوم كالشمس ليس دونها غمام . وقد يكون لك أن تقبل هذه النتائج لنفسك ، بشعور منك أو عدم شعور ، ولكن الاسلام يريد أن يحد فتنتها في إبّان نشوئها . لأنه لاينحصر نظره في مبدإ إبداء الزينة الذي يكون في ظاهره بريئاً من الريبة ،بل يتعداه إلى منتهاه الذي لايخلو من الريبة والفساد،ويعم المجتمع بمثل ظلمة يوم القيامة . « مثل الرافلة في الزينة كمثل ظلمة يوم القيامة لانور لها »(1)

وبينا ينهى القرآن عن إبداء الزينة للأجانب،إذ يستثني منها (إلا ماظهر منها) . والمراد به الزينة التي تظهر بنفسها على الرغم من إرادة المرء . وقد حاول خلق من الناس أن يستخرجوا من هذا الاستثناء كثيراً من الفوائد. ولكن المشكلة أن هذه الكلمات لا تتسّع لكل ماتشتهي أنفسُهم،لأنها إنما يريد بها الشارع، مخاطباً النساء ،أن لا تبدين زينتكن للأجانب عن قصدٍ وإرادةٍ .وأما الذي يظهر منها بعد ذلك من نفسه ،أو يبقى ظاهراً لدواعي الضرورة ، فلا جناح فيه عليكن . والمراد واضح كل الوضوح ، وهو أن لاتكون نيتكُنّ إبداء الزينة ولايكون في أنفسكن أن تُظهرن

(1) الترمذي ــ باب ما جاء في كراهية خروج النساء في الزينة .

محاسنكن على الأجانب ، أو أن تستملنهم إلى أنفسكن بوسواس الحلي الخفيّ ، إن لم يكن أكثر ، بل يجب أن تجهدن لإخفاء زينتكن ما وسعكنّ الجهدُ. ثم إن ظهر منها بعد ذلك شيء بداعية الضرورة ، فلا يؤاخذكن الله عليه . وذلك أن الثياب التي تسترن بها زينتكن لابدّ أن تظهر ، وتظهر فيها أيضاً قامتكن وهندامكن ، كما لا بد أن تضطررنَ إلى أن تكشفن أيديكن أو جزءاً من أجسامكن لقضاء حاجاتكن . فكل ذلك لا جناح فيه عليكن ، لأنكن لم تتعمّدنه بل اضطررتن اليه . وإن كان هناك من شياطين الإنس من يتمتّع حتى بهذا الجزء اليسير الذى يظهر من زينتكن فلا تبالين به . إنه سيلقى وبالَ نيّته الفاسدة بنفسه . أما أنتن فقد قمتنّ بما كان عليكن من واجب حفظ التمدن والأخلاق .

هذا هو المفهوم الصحيح لهذه الآية الكريمة . وإذا تأمّلتَ كل ما رُوي من الاختلاف بين المفسّرين في هذا المفهوم علمتَ أن أقوالهم جميعاً لاتُفيد ـ على مابينها من الخلاف ـ إلا ماقلناه آنفاً .

فقد ذهب ابن مسعود وابراهيم النخعي والحسن البصري ، الى أن المراد بالزينة الظاهرة هو الثياب التي تُخفي بها الزينة الباطنة ، كالرداء والنقاب .

وقال ابن عباس ومجاهد وعطاء وابن عمر وأنس والضحاك وسعيد ابن جبير والأوزاعي ، وعامّة الحنفية أن المراد بها الوجه واليدان .

ويدخل في هذا الاستثناء أيضاً ما كان من الزينة في وجه المرأة ويديها ، كـكحل العين وخضاب الكف والخاتم .

وعن سعيد بن المسيّب قال : وجهها ممّا (ظهر منها) ويُروى عن الحسن البصري قول يؤيّده .

وتميل عائشة زوج النبي ﷺ الى إخفاء الوجه . فتذهب الى أن المراد بالزينة الظاهرة هو اليدان وما فيها من الزينة كالقُلب والفتخة .

ويُبيح مِسْوَر بن مخرمة وقتادة كشف اليدين بزينتها كالخواتم والقُلبين أو السوارين . ولكنه يُفهم من أقوالهما في باب الوجه أنهما لا يُجوّزان إلا كشف العينين منه [1] .

وتدبّر حقيقة هذا الاختلاف بين المفسرين إن هؤلاء جميعاً قد فهموا من قول (إلا ماظهر منها) أن الله تعالى قد أباح للمرأة إبداء زينة تظهر على الرغم من إرادتها ، أو تدعو الضرورة إلى إبدائها . أما أن تعرض المرأة وجهها ويديها عرضاً يستميل الانظار ، فلم يُرده أحد منهم . وإنما كلهم قد اجتهد أن يفهم ، حسبما أوتي من الفهم وحسبما ارتآه من حاجات النساء : أي شيء تدعو الحاجة إلى كشفه وإلى أي حدٍ تستلزم كشفه؟ وأي شيء قد يظهر بالضرورة ، أو هو يظهر أبداً في عامة الاحوال؟ وبحسب ذلك أدلى برأيه في تفسير الآية . على أننا نقول في هذا المقام أن لا تقيّدوا استثناء (إلا

(١) كل هذه الاقوال قد نقلت من تفسير ابن جرير الطبري وأحكام القرآن للجصاص

ماظهر منها) بأمر من تلك الامور ، بل دعوا المرأة المؤمنة التي تريد أن تتبع أحكام الله تعالى ورسوله ، ولا ترضى الوقوع في الفتنة ، تحكم بنفسها بحسب أحوالها وحوائجها : هل تكشف الوجه أم تستره ؟ وإن كشفته في بعض الحالات ، فمتى تكشفه ومتى لاتكشفه ؟ ثم أي جزء منه تكشفه وأي جزء تخفيه ؟ إن الشارع لم يَرِد عنه في هذا الباب أحكام قاطعة صريحة . ولا من مقتضى الحكمة، نظراً لاختلاف الاحوال والحاجات ، أن توضع فيه أحكام قاطعة متصلبة . وذلك أن المرأة التي تضطرُّ الى الخروج لبعض شؤونها وللعمل خارج بيتها ، لابد أن تحملها الضرورة على كشف اليدين وكشف الوجه أيضاً . ومثل هذه المرأة قد رُخِّص لها في الأمر حسب ما تستوجبه حاجتها وضرورتها . وأما المرأة التي ليس بها شيء من تلك الحاجات،فلا يصح لها أن تكشف شيئاً منها عمداً بلا حاجة .

فمقصود الشارع إذاً انه إن كشفت المرأة شيئاً من نفسها إظهاراً لحسنها وجمالها، فهو إثم. وإن ظهر منها شيء بنفسه بدون أن تتعمد إظهاره، فلا جناح فيه عليها . وإن دعت الحاجة الحقيقية إلى كشف شيء ، فجائز ومباح كشفه . وأما السؤال عن الوجه على الأخص ، - بصرف النظر عن اختلاف الاحوال - هل يحب الشارع كشفه أو لايحب؟وهل جوّز إبداءه كضرورة لامناص منها ، أم ليس الوجه عنده مما يجب

إخفاؤه من الأجانب ؟ فتهدي في كل هذه الأسئلة آية الحجاب الآتية من سورة الأحزاب :

حكم الوجه

والآية هي: « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ! قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ المُؤْمِنِينَ ، يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ »(الاحزاب : ٥٩) فهي نزلت خاصةً في ستر الوجه. و(الجلابيب) جمع جلباب وهو الثوب الواسع أو الخمار أو الرداء. و (يُدنين) أي يرخين . فمعنى الآية بالحرف : أن يُرخين جانباً من خمُرهن أو ثيابهنّ على أنفسهن. وهذا هو المفهوم من (ضَرب الخمار على الوجه) والمقصود به سترُ الوجه وإخفاؤه ، سواء كان بضرب الخمار أو بلبس النقاب ، او بطريقة أخرى غيره . وقد ذكرت الآية من مصالحه ان المسلمات اذا خرجن من بيوتهن متسترات على هذا النحو ، علم أهل الريبة من الناس أنهن شريفات ، لا إماء ولا متبذّلات ، فلم يتعرض لهنّ منهم أحدٌ .

وجميع المفسرين قد ذهبوا هذا المذهب في تفسير هذه الآية. فيروى عن ابن عباس رضي الله عنه قوله : « أمر الله نساء المؤمنين اذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق بالجلابيب.»[1] وعن

(١) تفسير ابن جرير الطبري ــ ج ٢٢ / ٢٩

ابن سيرين قال : « سألت عبيدة بن سفيان بن الحارث الحضرمي عن قوله تعالى : « قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ » . قال فقال بثوبه ، فغطّى رأسه ووجهه وأبرز ثوبه عن احدى عينيه » . (١) ويقول العلامة ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية : يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين لا تتشبّهن بالاماء في لباسهن اذا هن خرجن من بيوتهن لحاجتهن ، فكشفن شعورهن ووجوههن ، ولكن يدنين عليهن من جلابيبهن لئلا يعرض لهن فاسق اذا علم أنهن حرائر ، بأذى من قول . (٢) ويكتب العلامة أبو بكر الجصّاص : « في هذه الآية دلالة عن أن المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها عن الاجنبيّين وإظهار الستر والعفاف عند الخروج لئلا يطمع أهل الريَب فيهن » . (٣) وعن العلامة النيسابوري في تفسير هذه الآية: كانت النساء في أول الاسلام على عادتهن في الجاهلية متبذّلات يبرزن في درع وخمار من غير فصل بين الحرّة والأمة . فأمرن بلبس الأردية وستر الرأس والوجوه . (ذلك) الإدناء (أدنى) وأقرب الى (أن يُعرفن) أنهن حرائر ، أو أنهن لسنَ بزانيات ، فإن التي سترت وجهها أولى بأن تستر عورتها. (٤) ويكتب الامام فخرالدين الرازي:

(١) تفسير الطبري ٢٢/٢٩ ؛ احكام القرآن للجصاص ــ ٣/٤٥٧

(٢) تفسير الطبري ــ ٢٢/٢٩

(٣)احكام القرآن ــ ٣/٤٥٨

(٤) تفسير غرائب القرآن على حاشية ابن جرير الطبري ج ٢٢/٣٢

« وكان في الجاهلية تخرج الحرّة والامة مكشوفات يتّبعهن الزُناة وتقع التهم . فأمر الله الحرائر بالتجلبُب . وقوله تعالى (ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ) قيل يُعرفن أنهن حرائر فلا يُتّبَعْن . ويمكن أن يقال : المراد يُعرفن أنهن لا يزنين . لان من تستر وجهها مع أنه ليس بعورة (١) ، لا يطمع فيها أنها تكشف عورتها، فيعرفن أنهن مستورات لا يمكن طلب الزنى منهن » . (٢) ويكتب القاضي البيضاوي : «يُدْنِينَ عليهنّ مِنْ جلابيبهنّ : أي يغطّين وجوههن وأبدانهن بملاحفهنّ ، اذا برزن لحاجة . و (مِنْ) للتبعيض . فإن المرأة تُرخي بعض جلبابها وتتلفع ببعض. ذَلك أدنى أنْ يُعْرفْنَ : يُميَّزْنَ من الاماء والقينات. فلا يؤذين : فلا يؤذيهنّ أهل الريبة بالتعرّض لهن» (٣) .

ويتّضح من هذه الاقوال جميعاً أنه من لدن عصر الصحابة الميمون إلى القرن الثامن للهجرة، حملَ جميع أهل العلم هذه الآية على مفهوم واحد، هو الذي قد فهمناه من كلماتها . وإذا راجعنا بعد ذلك الأحاديث النبوية والآثار ، علمنا منها ايضاً أن النساء قد شرعن يلبسن النقاب على العموم ، بعد نزول هذه الآية على العهد النبوي . وكن لا يخرجن سافرات . فقد جاء في سنن أبي داود والترمذي والموطأ للامام مالك وغيرها من كتب

(١) «العورة» في المصطلح الاسلامي مايجب ستره من الجسم، على كل رجل او امرأة غير الزوج او الزوجة . فما بين السرة والركبة من الرجل أيضاً عورة بهذا المعنى .

(٢) التفسير الكبير للرازي – ج ٥٩١/٦ .

(٣) تفسير البيضاوي ج ١٦٨/٤ .

الاحاديث أن كان النبي ﷺ قد أمر أن « المحرمة لا تنتقب ولا تلبس القفازين » . و « نهى النساء في إحرامهن عن القفازين والنقاب » . وهذا صريح الدلالة على أن النساء في عهد النبوة قد تعودن الانتقاب ولبس القفازين عامة ، فنهين عنه في الاحرام . ولم يكن المقصود بهذا الحكم أن تعرض الوجوه في موسم الحج عرضاً ، بل كان المقصود في الحقيقة أن لا يكون القناع جزءاً من هيئة الاحرام المتواضعة، كما يكون جزءاً من لباسهن عادة . وقد ورد في الاحاديث الاخرى تصريح بأن أزواج النبي ﷺ وعامة المسلمات كن يخفين وجوههن عن الاجانب في حالة إحرامهن أيضاً . في سنن أبي داود ، عن عائشة قالت : كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات . فإذا جازوا بنا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها . فإذا جاوزنا كشفناه »[1] . وفي الموطأ للامام مالك : « عن فاطمة بنت المنذر قالت : كنا نخمر وجوهنا ونحن محرمات ونحن مع أسماء بنت أبي بكر الصديق، فلا تنكره علينا »[2] وقد ورد في فتح الباري عن عائشة رضي الله عنها : « تسدل المرأة جلبابها من فوق رأسها على وجهها »[3] .

النقاب

وكل من تأمل كلمات الآية وما فسرها به أهل التفسير في جميع

(١) أبو داود — باب في المحرمة تغطي وجهها.
(٢) الموطا — باب تخمير المحرم وجهه
(٣) فتح الباري — كتاب الحج

الازمان بالاتفاق ، وما تعامل عليه الناس على عهد النبي ﷺ ، لم ير في الامر مجالا للجحود بأن المرأة قد أمرها الشرع الإسلامي بستر وجهها عن الاجانب .ما زال العمل جاريا عليه منذ عهد النبي ﷺ إلى هذا اليوم . وأن النقاب مما قد اقترحه القرآن نفسه من حيث حقيقته ومعناه وإن لم يصطلح عليه لفظاً . وكانت نساء المسلمين قد اتخذنه جزءاً من لباسهن لخارج البيت ، بمرأى من الذات النبوية التي نزل عليها القرآن ، وكان يسمى نقابا في ذلك العهد أيضاً .

نعم!هو هذا النقاب (Veil) الذي تعده أوربة غاية في الشناعة والقبح. ويكاد الضمير الغربي يختنق حتى من تصوّره ، ويعتبره الغربيون عنوان الظلم وسيما الوحشية وضيق الفكر . وهو أول ما يعقد عليه الخنصر إذا ذكرت أمة شرقية بالجهالة والتخلف في طريق التمدن . وأما اذا وصفت أمة في الشرق بكونها سائرة في طريق الحضارة والتمدن ، فأول مايذكر من شواهده بكل تبجح وافتخار ، هو كون (النقاب) قد زال عن هذه الامة أو كاد ! ويا لخزيكم يا أصحابنا المتجددين المستغربين إذا تبين لكم أن هذا الشيء لم يخترع بعد زمان النبي بل نسج بردته القرآن نفسه ، وروجه النبي ﷺ في أمته في حياته . على أن شعوركم بهذا الخزي وإطراقكم بالندامة والخجل ليس بنافعكم شيئاً ، لان النعامة إذا أخفت رأسها في التراب لرؤية الصائد ، فانه لايطرد عنها الصائد ولا

ينفي وجوده ، كذلك إن أشحتم بوجوهكم عن الحقيقة ، لم تبطل بـــه الحقيقة الثابتة ولم تمح آية القرآن ، وإن حاولتم أن تكتموا هذه الوصمة - كما ترونها - في تمدنكم من وراء حجب التأويل ، لم تزيدوها إلا وضوحاً وجلاء . وإذا كنتم قد قررتم هذا النقاب عاراً على أنفسكم وشناراً ، بعد إيمانكم بوحي الغرب ، فليس إلى غسله عن أنفسكم من سبيل غير أن تعلنوا براءتكم من الدين الاسلامي الذي يأمر بالاشياء السمجة البغيضة كلبس النقاب وإسدال الخمار وستر الوجوه . إنكم ياقوم تنشدون الرقي وتطلبون الحضارة فأني لدين يمنع ذات الخدر أن تكون عطر المجالس ، ويوصيها بالعفة والحياء والاحتجاب ، وينهى ربة البيت أن تكون قرة عين لكل غاد ورائح ... أنى لدين مثل هذا أن يصلح في رأيكم للاتباع ؟ وأين هو من الرقي ؟ ومن التهذب والحضارة ؟ وإنما الرقي والحضارة يقتضيان الآنسة - إذا همت بالخروج من بيتها - أن تنفض يديها من كل عمل قبل ساعتين من موعد الخروج ، لتتفرغ فيهما إلى زينتها وتجملها . فتعطر الجسم كله بالطيب ، وتلبس اللباس الجذاب الاخاذ ، وتبيض الوجه والذراعين بانواع المساحيق، وتلون الشفتين بقلم الدهان الاحمر Lip Stick وتمهد قوس الحاجبين وتمده للرمي بسهام النظر . حتى إذا خرجت من البيت رافلة في هذه الزخارف ، استهوى كل مظهر من مظاهر زينتها وجمالها القلوب ، وجذب الانظار ، وفتن العقول . ثم لاتطمئن نفس الآنسة بعد هذا كله من التظاهر بالجمال، بل تكون أدوات الزينة والزخرفة

محمولة معها في عتيدتها (١) ، حتى تتدارك بين حين وآخر كل مانقص أو ضاع من دقائق زينتها .

إن بين مقاصد الاسلام ومقاصد الحضارة الغربية - كما ذكرناه غير مرة فيما سبق - لبوناً بعيداً وفرقاً شاسعاً جداً, ومخطىء بيّن الخطأ من يريد أن يفسر أحكام الاسلام بوجهة نظر الغرب . ذلك بأن ماعندالغرب من المقياس لأقدار الأشياء وقيمها ، يختلف عنه مقياس الاسلام كل الاختلاف . فالذي يكبره الغرب ويعده غاية الحياة الانسانية ، هو في عين الاسلام من التوافه والهنات . وإن مايهتم به الاسلام ويعظم شأنه هو عند الغرب من سقط المتاع . لذلك كل من قال بصحة القياس الغربي ، فلا بد أن يرى جميع مافي الاسلام واجب الترميم والاصلاح . وإذا مضى يفسر أحكام الاسلام ويشرحها ، جاء بها محرّفة عن معانيها ، ثم لم يوفق في تطبيقها على الحياة العملية حتى في صورتها المحرّفة ، لما يعترض سبيله إلى ذلك من أحكام القرآن ونصوص السنة البينة . فحريٌ بمثل هذا الرجل قبل أن ينظر في جزئيات المناهج العملية ، أن يتأمل المقاصد التي قد اتخذت للوصول اليها تلك المناهج ، وينظر هل هي صالحة للقبول أم لا . وإن هو لم يكن يوافق تلك المقاصد نفسها فأي غناء يغنيه البحث في المناهج التي تختار لتحقيق تلك المقاصد؟ ولماذا يكلف نفسه مسخ تلك المناهج وتحريفها؟ أليس من الأجدر به والاصلح له أن يهجر الدين الذي يخطىء مقاصده؟

---

(١) العتيدة : الوعاء الذي يكون فيه طيب المرأة وغيره من الاشياء Purse .

وأما إذا كان يتفق مع تلك المقاصد ، فلا يبقى البحث بعد ذلك إلا فيما يتخذ لتحقيقها من المناهج ، هل هي صحيحة أم لا ؟ وهذا البحث يمكن طيه بكل سهولة. ولكن هذه الطريقة لا يتبعها إلا ذووا المروءة والكرم، وهم قليلون ! وأما المنافقون الذين هم بطبيعتهم أخبث ماخلق الله في هذا الكون ، فلا يزكو بهم إلا أن يدّعوا إيمانهم بشيء ، ويؤمنوا في الحقيقة بشيء آخر !

فكل ما لا يزال هؤلاء يخوضون فيه من المباحث حول الحجاب والنقاب ، هو صادر في الحقيقة عن هذا النفاق . وقد استنفدوا كل مافي طاقاتهم ووسعهم لإثبات أن هذا الوضع من الحجاب إنما كان رواجه في أمم الجاهلية قبل الاسلام . ثم نزل هذا الميراث الجاهلي إلى المسلمين في بعض العصور المتأخرة البعيدة عن عهد النبوة . ولماذا يتكلّفون هذا البحث والتحقيق التاريخي بإزاء النص القرآني الصريح ، والعمل الثابت في عهد النبوة ، وتفاسير الصحابة والتابعين لمفهوم الآية ؟ إنهم يتكلفونه لمجرد أنه كان ـ ولا يزال ـ نصب أعينهم من مقاصد الحياة ماهو مقبول شائع في الغرب . وأنه قد رسخ في أذهانهم من تصورات الحضارة والرقي مانزل إليهم من تماثه . ولما كان لبس الملاءة والنقاب لا يلائم تلك التصورات بحالٍ من الأحوال ، فقد جاؤوا بمعول التحقيق التاريخي ، ليهدموا به ماهو ثابت في شرع الاسلام . وهذا النفاق البيّن الذي قد تناولوا به هذه هذه المسألة مع غيرها من المسائل ، يرجع في أصله إلى ماسبق أن ذكرناه

فيهم من خفّة العقل وفقد الجراءة الخلقية وعدم التمسك بالمبادىء . ولولا ذلك لما سوّلت لهم أنفسهم أن يأتوا بالتاريخ شاهداً على القرآن ، مع كونهم يدعون الاسلام وينتمون اليه . بل كانوا أحرياء ـ لو أرادوا أن يبقوا مسلمين ـ أن يستبدلوا المقاصد القرآنية بمقاصدهم هم ، أو يعلنوا انصرافهم عن الاسلام الذي يعترض سبيلهم إلى التقدم والرقي حسبما يفهمونه من معاني الرقي !.

إن من يفهم مقاصد القانون الاسلامي وله مع ذلك حظ من العقل البسيط (Common Sense) ، لا يصعب عليه أن يفهم أن إطلاق الحرية للنساء في الخروج سافرات الوجوه يخالف تلك المقاصد التي يهتم بها الاسلام كل هذا الاهتمام . وذلك بأن أكثر ما يؤثر في نفس المرء من امرىء آخر هو وجهه . وإن الوجه هو المظهر الأكبر للجمال الخلقي والطبيعي في الانسان . فهو أكثر مفاتن الجمال الانساني جذباً للانظار واستهواءً للنزعات . ثم هو العامل الاقوى للجاذبية الجنسية بين الصنفين . ولفهم هذه الحقيقة لا تحتاج إلى تعمق في علم النفس ، بل ارجع في ذلك إلى ضميرك نفسك تطلب حكمه ، وإلى عينيك تستفتيها ، وإلى تجاربك النفسية تستنبط منها النتائج ، وجنّب نفسك آفة النفاق ، فإن المنافق إن رأى حق وجود الشمس ضاراً بمقاصده ، لم يتردد في إنكاره بالمرة في رائعة النهار ، بل لازمْ جانب الصدق فان فعلت ، لم تجد بداً من الاعتراف بأن هذا الجمال الطبيعي الذي قد وضعه الله في وجه الانسان هو أكثر ما يستهوي الناظر

وهو أكبر عامل للتحريك الجنسي (Sex Appeal) . ثم هل رأيت أنك إن كنت تريد أن تتزوج بفتاة وأردت أن تلقي عليها نظرك قبل أن تعزم على الأمر بصفة نهائية، فقل لي بالله ربك : إلام تنظر فيها لتقبلها أو ترفضها؟ وهب أن لنظرك إليها صورتين اثنتين : أولاهما أن تخرج لك الفتاة في كل زينتها إلا وجهها . والثانية أن تريك وجهها وحده من نافذة دون سائر جسمها . فأي صورة من هاتين تختارها لانتخاب الفتاة لنفسك ؟ اصدقني بالله ألا يكون جمال الوجه آثر وأرجح عندك من جمال سائر الجسم؟.

وإذا تقرّرت هذه الحقيقة ، فلنمض في البحث قدُماً . فنقول إنه إن لم يكن منع الفوضى الجنسية ومنع الهيجان الشهواني المتطرف في المجتمع من المقصود المنشود ، فلتكن المرأة إذاً في حلّ من الكشف عن نحرها وذراعيها وساقيها وفخذيها ، دع عنك وجهها وحده ، كما هو عليه الحال في الحضارة الغربية لهذا العهد . ولا حاجة لوضع تلك الحدود والقيود التي قد مرّ ذكرها في معرض قانون الحجاب الاسلامي . ولكنه إن كان المقصود هو سد هذا الطوفان ودفع غائلته عن المجتمع ، فأي سخافة أكبر من أن توصد في وجهه صغار المنافذ ويفتح له باب رئيسي كبير!!.

ولك أن تسأل في هذا المقام أنه إن كان الأمر كذلك ، فما للاسلام يبيح للمرأة أن تكشف وجهها عند الحاجة والضرورة ، كما قد ذكرت بنفسك فيما مرّ ؟ فالجواب عليه أن القانون الاسلامي ليس بقانون مائل الشق ، منحرف عن الاعتدال ، بل هو بينما يراعي - بجانب - مصالح

الاخلاق ، يراعي - بالجانب الآخر - ضرورات الانسان وحاجاته ، ويقيم بينها الميزان بغاية القسط . انه يريد أن يسد باب الفتن الخلقية ، ويريد مع ذلك أن لا يفرض على الانسان قيوداً لا يستطيع معها أن يقضي حوائجه الحقيقية . وهذا هو السبب لأنه لم يأمر المرأة في وجهها ويديها بمثل ما أمرها به في ستر العورة وإخفاء الزينة من الاحكام القاطعة الصريحة. ذلك بأن ستر العورة وإخفاء الزينة لا يخل بقضاء حاجات الحياة أبداً . ولكن المداومة على إخفاء الوجه واليدين قد ترهق المرأة من أمر القيام بحاجاتها عسراً . من ثمّ قد قرر الاسلام على وجه العموم أن تدني النساء عليهن من جلابيبهن . ثم أجاز لهن بقوله (إلاّ ماظهر منها) أن يكشفن عن وجوههن إذا ماقتضته الضرورة ، بشرط أن لا يقصد بذلك إظهار الجمال . بل يكون المقصود قضاء الحاجة وحده . وسد بعد ذلك أبواب الفتنة من قبل الرجال بأن أمرهم أن يغضوا من أبصارهم . وذلك أنه إن كشفت امرأة عفيفة عن وجهها مضطرةً ، غضّ الرجال من أبصارهم عن النظر إليها ، ولم يصعّدوا فيها أنظارهم بما لا يليق .

إنك إن أنعمت النظر في أحكام الحجاب هذه ، تبين لك أن الحجاب الاسلامي ليس بشيء من باب التقاليد الجاهلية بل هو قانون عقلي منطقي . إذ أن التقليد الجاهلي يكون جامداً لا مرونة فيه أبداً . وأيما طريقة راجت فيه وبأي صورة راجت ، فلا يمكن قط أن تعدّل أو تبدّل . وكل ماقضي فيه بالاخفاء ، فإنه يخفى ويستر في كل زمان ، وعلى كل

حال ، وإن كان دونه هلاك الأنفس وضياع الاعراض . وأما القانون العقلي ، فيكون ـ على عكس ذلك ـ لدناً مرناً ، يميل مع الضرورات الحقيقية ، ويتسع لكل من التشديد والتخفيف حسب مقتضى الاحوال . وتترك في قواعده العامّة صور استثنائية لكل الاوضاع والمناسبات فلا يتّبع هذا القانون اتباعاً أعمى . بل يجب لاتّباعه الفهم والتمييز . ويكون المتبع العاقل الفهيم أن يقضي بنفسه : في أي الاحوال يجب أن يعمل بالقاعدة العامة ، وفي أيها تمسّه (الحاجة الحقيقية) من وجهة نظر القانون، فيتمتّع فيها برخصة الحكم الاستثنائي ؟ ثم يكون له بنفسه أن يحكم إلى أي حد ينبغي أن يتمتع بالرخصة وفي أي المناسبات ؟ وكيف يراعي مقصد القانون الرئيسي في أثناء تمتّعه بالرخصة ؟ كل هذه الامور لا يفتي فيها بالامر الحق إلاّ قلب المؤمن الصادق النية والايمان . كما قال النبي ﷺ : « استفت قلبك ودع ما حاك في صدرك » . ومن هذا كله لا يمكن أن يتبع الاسلام اتّباعاً صحيحاً بالجهالة وعدم الشعور . وإنما هو قانون عقلي يستلزم اتباعه الفهم والفطنة والشعور عند كل خطوة من خطوات العمل.

أحكام خروج المرأة من البيت

وآخر ما أمر الله به النساء ، بعد ما وصّاهنّ في اللباس وفي حدود العورة ، هو ما يأتي: « وَقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأولى » (الاحزاب : ٣٣) « وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ » (النور: ٣١) «فَلا تَخْضَعْنَ بِالقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذي في قلبه مَرَضٌ » (الأحزاب : ٣٢) . وقد اختلفوا في قراءة (وقَرْنَ) فقد قرأها عامّة قرّاء المدينة وبعض الكوفيّين بفتح القاف ومصدرها قرار . ومعنى الآية بذلك : الزمْنَ بيوتكن واستقْرِرْنَ فيها . وقرأها عامّة قراء البصرة والكوفة (وَقِرْنَ) بكسر القاف، وهي من وَقَرَ الرجلُ وَيَقِرُ وقاراً . فمعنى الآية إذاً : عِشْنَ في بُيُوتكن بالسكينة والوقار . وللتبرّج معنيان : أحدهما إظهار الزينة والمحاسن . والآخر : التبختر والاختيال ، والتثني والتأوّد في المشي . وكلا هذين المعنيين مراد في هذه الآية . وذلك أن النساء في الجاهلية الاولى، كنساء هذه الجاهلية الجديدة ، كن يخرجن في أجود زينتهن ويمشين مشيةً من الدلال تكاد لا تقع فيها أقدامهنّ

على الارض، بل على قلب من ينظر إليهن . ويقول التابعي والمفسر الشهير قتادة بن دعامة : « كانت لهن مشية تكسّرٍ وتغنُّجٍ فنهاهنّ الله عن ذلك » . ولتصوّر كيفيّتها لا نحتاج إلى بيان تاريخي ، بل اشهد مجلساً تحضره أوانس من الطراز العصري الاوربّي ، تتمثّل لك مشية التبرُّج الذي اعتادته نساء الجاهلية الاولى . فهي هي التي ينهى عنها الاسلامُ ، ويقول : إن مقام المرأة ومستقرّها هو البيت . وما وُضعت عنهن واجبات خارج البيت إلاّ ليُلازمْنَ البيوت بالسكينة والوقار ويقُمن بواجبات الحياة العائلية . أمّا إن كان بهنّ حاجة إلى الخروج ، فيجوز لهن أن يخرجن من البيت، بشرط أن يراعين جانب العفة والحياء. فلا يكون في لباسهن بريق أو زخرفة أو جاذبية، تجذب إليهن الانظار، ولا في نفوسهن من حرص على إظهار زينتهن، فيكشفن تارةً عن وجوههن، وأخرى عن أيديهن ، ولا في مشيتهن شيء يستهوي القلوب ، ولا يلبسن كذلك من الحلي ما يحلو وسواسه في السامع ، ولا يرفعن أصواتهن بقصد أن يسمعها الناس . نعم ، يجوز لهن التكلم في حاجتهن ، ولكنه يجب أن لا يكون في كلامهن لين وخضوع ولا في لهجتهن عذوبة وتشويقٌ . كل هذه الضوابط والحدود إن راعتها النساء ، جاز لهن أن يخرجن لحوائجهن .

هذا في القرآن. وتعال الآن نرجع إلى السنة المطهرة ، لنرى ما الذي كان قرره النبي ﷺ من الطرق لسلوك نساء المسلمين في المجتمع ،

وفقاً لهذا التعليم القرآني ، وكيف عمل به الصحابة ونساؤهم رضي الله عنهم .

الرخصة في خروج النساء لحوائجهن

قد ورد في الحديث أن عمر رضي الله عنه كان يود ، قبل أن ينزل الحجاب ، لو أن رسول الله ﷺ يأمر نساءه بالاحتجاب . وذات مرة خرجت أم المؤمنين سودة رضي الله عنها لبعض حاجتها بالليل . فرآهـا عمر بن الخطاب وقال: يا سودة! أما والله ما تخفين علينا ، فانظري كيف تخرجين . وكان مراده بذلك أن تمنع النساء من الخروج . ولما نزلت بعد ذلك آية الحجـاب ، نشط عمر ، وازداد شدة في نهي النساء عن الخروج. وحدث لسودة رضي الله عنها مرة أخرى أن خرجت من بيتها، فصاح بها عمر ، فرجعت إلى النبي ﷺ ، وذكرت ذلك له . فقال: « قد أذن الله لكن أن تخرجن لحوائجكن » . (١)

فيعلم من هذا أنه ليس المراد بحكم (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) أن لا تتخطى النساء عتبة بيتهن أبداً، بل الأمر أن قد أذن لهن أن يخرجن لحوائجهن . ولكن هذا الإذن ليس بمُطلقٍ غير محدود ، ولا هو غير مقيَّد بشروطٍ . فليس جائزاً للنساء أن يطفنَ خارج بيوتهن كما شئنَ ،

(١) هذه خلاصة احاديث متعددة اخرجها مسلم في باب (إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الانسان) ، والبخاري في باب (خروج النساء لحوائجهن) وبـاب (آية الحجاب) .

ويخالطن الرجال بحرّية في المجالس والنوادي. وإنما مراد الشرع بالحوائج هو الحاجات الحقيقية التي لا بدّ معها للنساء من أن يخرجن من البيوت ويعملن خارجها. ومن الظاهر أنه لا يمكن استيعاب جميع الصور الممكنة لخروج النساء وعدم خروجهن، في جميع الازمان، ولا من الممكن وضع الضوابط والحدود لكل مناسبة من تلك المناسبات. غير أن المرء يستطيع أن يتفطّن لروح القانون الاسلامي ورجحانه، إذا نظر فيما قرّره النبي ﷺ من الضوابط لخروج المرأة من البيت في عامة أحوال الحياة، وما تناول به حدود الحجاب من الزيادة والنقص بين آونة وأخرى، وأن يستخرج بنفسه حدودَ الحجاب للأحوال الفردية والشؤون الجزئية، وقواعد الزيادة فيها والنقص منها تبعاً للحالات والملابسات. وها نحن نسرد فيما يلي بعض المسائل إيضاحاً للأمر:

الإذن في حضور المساجد وحدوده

معلوم بالبداهة أن أعظم الفرائض في الاسلام هو الصلاة. وقد جاء في الحثّ على حضور المساجد والشركة في الجماعة مالا يخفى على أحد. ولكن النساء قد أمرن في باب الصلاة مع الجماعة بعكس ماأمر به الرجال. فأفضل صلاة الرجل هو مايصلّيه مع الجماعة في المسجد. وأفضل صلاة المرأة ماتصلّيه في أخلى خلوةٍ من بيتها. وقد أخرج الامام أحمد والطبراني عن أم حميد الساعدية، قالت: يارسول الله إني أحب الصلاة معك. قال: «قد علمتُ. صلاتك في بيتك خير لك من صلاتك في حجرتك،

وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك ، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك ، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجد الجماعة »(١) . وحديث آخر في مثل هذا الموضوع قد أخرجه أبو داود عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال: قال النبي ﷺ « صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها ، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها » . (٢)

فانظر كيف انقلب الترتيب في صلاة المرأة . فبينا أحطّ صلاة الرجل هو ما يصلّيه في بيته ، وأفضلها ما يصلّيه مع أكبر جماعة في المسجد . إذ أفضل صلاة المرأة صلاتها في أقصى خلوة بيتها . ومثل هذه الصلاة في الخلوة لم تُفضَّل على صلاة الجماعة فحسبُ ، بل فُضّلت على

---

(١) إن المصلحة من وراء إيصاء المرأة بأن تصلي في أبعد خلواتها ، قد تفهمها النساء أكثر من غيرهن . وذلك أن المرأة تنتابها في كل شهر أيام ، تضطر فيها الى ترك الصلاة . وبذلك يظهر منها مالا تحب ذات حياء أن يظهر حتى على اخوتها وأخواتها في البيت . وهـــذا الحياء ربما حملهن على ترك الصلاة . فأحس الشارع منهن هذا ، فأوصاهن أن يصلين في ناحية من الخلوة ، حتى لايعلم أحد متى يصلين ومتى يتركن . ولكن هذا ، على كل ، وصية، لاحكم أو أمر مؤكد . ويجوز للنساء ، ولاريب ، أن يصلين في جماعة في بيوتهن ، وتصلي بهن امرأة منهن . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أذن لأم ورقة بنت عبد الله بن الحارث ان تصلي بالنساء (ابوداود) . وفي سنن الدارقطني والبيهقي ان عائشة رضي الله عنها صلت بالنساء وقامت في وسط الصف .

(٢) باب ما جاء في خروج النساء الى المساجد .

ما ليس وراءه مطمع لمسلم، وهو صلاة الجماعة في المسجد النبوي خلف النبي ﷺ نفسه. أرأيت ما العلّة لهذا التمييز بين المرأة والرجل في هذه العبادة؟ أليست علّته أن النبي ﷺ لم يحب خروج المرأة من بيتها وأراد أن يمنع اختلاط الذكور والإناث في جماعة المسجد.

على أن الصلاة فريضة مقدّسة. والمسجد مقام طهارة وصفاء. لذلك بينما أفصح الشارع عمّا يريد من منع اختلاط الجنسين، بما بيّن لأنواع صلاتها من الفضيلة وعدم الفضيلة، لم يمنع النساء على الاطلاق من حضور مقام مطهّر كالمسجد، لعمل صالح كالصلاة. وإن الكلمات التي قد ورد فيها الإذن لهن في حضور المساجد، لدالّة على سمو حكمة الشارع. قال ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله. وإذا استأذنت امرأة أحدكم إلى المسجد فلا يمنعها». (١) وقال: «لا تمنعوا نساءكم المساجد وبيوتهن خير لهن» (٢).

فهذه الكلمات صريحة بأنه لا ريب أن الشارع لا يمنع النساء من المساجد، لأن حضور المساجد للصلاة ليس بأمر مريب، حتى يحظر وينهى عنه. ولكن المصالح الاجتماعية لا تقتضي أيضاً أن يختلط الرجال والنساء في جماعات المساجد. لذلك رخّص الشارع للنساء في إتيان المساجد ولكنه لم يأمر الرجال أن يبعثوا نساءهم إلى المساجد أو يحملوهن

(١) رواه البخاري ومسلم
(٢) رواه ابو داود

معهم إليها . وإنما اكتفى ببيان أنهن إن آثرن لأنفسهن أدنى الدرجة من الصلاة ، وهي التي يصلّينها في المسجد، على أفضل صلاتهن في ناحية البيت، فاستأذنّكم في الأمر ، فلا تمنعوهن . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعرف جيّداً روح الشرع. ففهم حكمة الشارع في أقواله هذه جيّد الفهم . فقد جاء في موطأ الامام مالك أن كانت عاتكة بنت زيد زوج عمر بن الخطاب تنازعه دائماً في هذا الامر . كان عمر لا يحبّ لها أن تحضر المسجد ولكنها تُصرّ عليه . فكان إذا استأذنته ، يعمل بالأمر النبوي بدقّة ، فيسكت ولا ينبس ببنت شفة . كأني به يريد بهذا السكوت أن لن آذن لك إلى المسجد . فتقول عاتكة : والله لأخرجنّ ، إلا أن تمنعني ، أي تصرّح بالمنع . ولكنه لا يمنعها [1] .

شروط حضور المساجد

وقد اشتُرط على النساء في حضورهنّ الى المساجد أمور :

أولها أن لا يحضرنها في النهار، بل يشتركن في الصلوات التي تُصلّى في سواد الليل . أي العشاء والفجر . عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ائذنوا للنساء بالليل الى المساجد » . [2] قال نافع مولى ابن

(١) وما كان هذا يخص زوج عمر بن الخطاب وحدها . بل كان كثير من النساء يحضرن المسجد للصلاة مع الجماعة . وأخرج ابو داود أنه ربما كان للنساء صفان في المسجد . (باب ما يكره من ذكر الرجل ما يكون من اصابته اهله) .

(٢) اخرجه الترمذي في باب (خروج النساء الى المساجد) . وفي هذا المعنى حديث اخرجه البخاري في باب (خروج النساء الى المساجد بالليل والغلس) .

عمر : وكان اختصاص الليل بذلك لكونه أستر وأخفى . وعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ ليصلي الصبح فينصرف النساء متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس (١)

والثاني ان لا يحضرن المساجد متزينات ولا متطيبات .عن عائشة رضي الله عنها قالت : بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد ، إذ دخلت امرأة من مزينة ترفل في زينة لها ، في المسجد . فقال النبي ﷺ « يا أيها الناس ! انهوا نساءكم عن لبس الزينة ، والتبختر في المسجد » (٢) ونهى كذلك عن التطيب . فقال : « إذا شهدت إحداكن العشاء ، فلا تطيب تلك الليلة » . وقال « أيما امرأة أصابت بخوراً ، فلا تشهد معنا العشاء » (٣) .

والشرط الثالث : أن لا تختلط النساء بالرجال في الجماعة،ولا يسبقن

(١) الترمذي ـ باب(التغليس في الفجر).وقد جاءت احاديث في هذا الموضوع في البخاري ـ باب (وقت الفجر) ومسلم ـ باب (استحباب التبكير بالصبح في أول وقته) وابي داود ـ باب (وقت الصبح) ومسانيد اخرى .وأيضاً جاء في كتب الاحاديث ان النبي صلى الله عليه وسلم وسائر المصلين كانوا يجلسون بعد الصلاة ريثما تنصرف النساء .ثم يقوم ويقومون .

(٢) ابن ماجه ـ باب فتنة النساء

(٣) الموطأ ـ باب خروج النساء الى المساجد ، ومسلم ـ باب خروج النساء الى المساجد ، وابن ماجه ـ باب فتنة النساء

إلى الصفوف الأمامية . بل يجب أن يقمن خلف صفوف الرجال . قال النبي ﷺ: « خير صفوف الرجال أوّلها وشرّها آخرها. وخير صفوف النساء آخرها وشرّها أولها » . [1] وكان عليه الصلاة والسلام قد أمر في صلاة الجماعة ألا يقوم الرجل والمرأة جنباً لجنب ، وإن كانا زوجين أو أماً وابناً . فعن أنس بن مالك أن جدّته مُليكة دعَتْ رسول الله ﷺ لطعام صنعته ، فأكل منه ، ثم قال : قوموا فلنصل بكم. قال أنس: فقمت إلى حصير لنا قد اسود من طول مالبس ، فنضحته بالماء . فقام رسول الله ﷺ وصففتُ عليه أنا واليتيم وراءه ، والعجوز من ورائنا. [2] وعن أنس رضي الله عنه في رواية أخرى ، قال : صلّيتُ أنا واليتيم في بيتنا خلف النبي ﷺ ، وأمّي وأم سُلَيم خلفنا . [3] وعن ابن عباس رضي الله عنه ، قال: صلّيت الى جنب رسول الله وعائشة خلفنا تصلّي معنا ، وانا الى جنب النبي ﷺ أصلّي معه . [4]

والشرط الرابع : أن لاترفع النساءُ أصواتَهن في الصلاة . وأما إذا وجب تنبيهُ الامام في أثناء الصلاة فللرجال التسبيح ولهن التصفيق. [5]

ومع كل هذه الحدود والقيود لما خشي عمر ابن الخطاب رضي الله

---

(١) مسلم وابو داود والترمذي والنسائي واحمد

(٢) الترمذي ــ باب ما جاء في الرجل يصلي ومعه رجال ونساء .

(٣) البخاري ــ باب المرأة وحدها تكون صفاً

(٤) البخاري ــ باب طواف الرجال مع النساء

(٥) البخاري ــ باب التصفيق للنساء

عنه اختلاط النساء والرجال في الجماعة ، خصّ للنساء باباً من أبواب المسجد . ونهى أن يُدخلَ من بابهنّ . (١)

النساء في الحج

والثاني من الفرائض الاجتماعية بعد الصلاة هو الحجّ .وهو واجب على النساء كوجوبه على الرجال . ولكن النســاء أمرن أن يتجنَّبنَ مخالطة الرجال في المطاف ما استطعنَ . وقد أخرج البخاري عن عطاء أن النساء كن يطُفنَ بالبيت مع الرجال على العهد النبوي ولكنهن لا يخالطن الرجال .(٢) وعن إبراهيم النخعي في فتح الباري ، قال : نهى عمر رضي الله عنه أن يطوف الرجال مع النساء . قال فرأى رجلاً معهن فضربه بالدرّة . (٣) وفي الموطّأ أن عبدالله بن عمر رضي الله عنه كان يقدّم أهلَه وصبيانَه من المزدلفة إلى منى ، حتى يصلّوا الصبح بمنى ، ويرموا قبل أن يأتي الناس . وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتي منى بغلس ، فلمّا قيل لها في ذلك ، قالت قد كنّا نصنع ذلك مع النبي ﷺ .(٤)

خروج النساء للجمعة والعيدين

ويغني عن البيان ما لجامع الجمعة والعيدَين من عظمة شأنٍ في الاسلام.

(١) ابو داود : باب ما جاء في اعتزال النساء في المساجد عن الرجال .
(٢) البخاري : باب طواف الرجال مع النساء .
(٣) فتح الباري : ج ٣/٣١٢ .
(٤) الموطأ : ابواب الحج ، باب تقديم النساء والصبيان .

ولعظمتها وخطورتها هذه ، قد وضع الشارعُ عن النساء في أمرها ما اشترط عليهن في سائر الصلوات من حضور جماعتها في سواد الليل وحده . فأذن لهن " أن يحضرن الجمعة والعيدين ولا ريب أنهن قد استثنين بصراحة من وجوب الجمعة عليهن "(1) ، إلا أنه يجوز لهن أن يحضرن هذه الجماعات إذا التزمن سائر الشروط لاشتراكهن في صلاة الجماعة . وقد ثبت في السنة أن النبي ﷺ كان بنفسه يُخرج نساءه إلى المصلّى في العيدين . فعن أم عطية قالت : إن رسول الله ﷺ كان يُخرج الأبكار والعواتق وذوات الخدور والحُيّض في العيدين . فأما الحُيّض فيعتزلن المصلّى ويشهدن دعوة المسلمين (2) . وعن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يخرج بناته ونساءه في العيدين . (3) وكان اجتماع النساء في العيدين مستقلا عن اجتماع الرجال ، فكان النبي ﷺ يخرج إليهن ويخطبهن بعد أن يفرغ من خطبة الرجال .(4)

زيارة القبور واتباع الجنائز

إن اتباع جنازة المسلم فرض كفاية في الاسلام ، ولا يخفى على أهل

---

(1) ابو داود .

(2) الترمذي : باب خروج النساء في العيدين .

(3) ابن ماجه : باب ما جاء في خروج النساء في العيدين .

(4) البخاري ومسلم عن ابن عباس ، وأبو داود عن جابر بن عبدالله .

الخيرة ما ورد في الحث عليـه من الاحكام . ولكن كلها للرجال . وأما النساء فقد نُهين عنه، وإن لم يكن هذا النهي مشدداً فيه، وكنّ قد رخص لهن في الأمر في بعض الاحايين. على أن أقوال الشارع عليه السلام تفيد بوضوح لا لبس فيه أن اتباع النساء للجنائز لا يخلو من مكروه . وقـد أخرج البخاري عن أم عطية ، قالت : نُهينا عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا[1] . وقد جاء في سنن ابن ماجه والنسائي أن النبي ﷺ كان في جنازة ، فرأى عمر امرأةً، فصاح بها . قال النبي ﷺ : «دعها يا عمر! فإن العين دامعة والنفس مصابة والعهد قريب » . ولعل المرأة كانت من أقارب الميت ، فتبعت جنازته لفرط الحزن ، فأحس ذلك منها النبي ﷺ فنهى عمر عن زجرها .

وقل مثل ذلك في زيارة القبور. إن النساء رقيقات القلوب وذكرى أقاربهن الاموات أعلق بنفوسهن . فما أحب الشارع عليه السلام أن يكبت عواطفهن وأحاسيسهن كبتاً، ولكنه صرح مع ذلك أن الإكثار من زيارة القبور محظور لهن في الاسلام . فقد أخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور .[2] وأتت عائشة رضي الله عنها قبر أخيها عبدالرحمن بن أبي بكر ، فقالت :

(١) البخاري — باب اتباع النساء الجنازة

(٢) الترمذي — باب ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء . وقد أخرج ابن ماجه مثل هذا الحديث عن ابن عباس وحسان بن ثابت رضي الله عنهما

« لو شهدتك مازرتك »(١). وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : مرّ النبي ﷺ بامرأة عند قبر وهي تبكي . فقال : « اتقي الله واصبري »(٢).

تأمل كل هذه الاحكام التي مرت بك في هـذا الباب . إن الصلاة عبادة مقدسة . والمسجد مقام ملؤه الطهارة والصفاء . والحج موسم يحضر فيه الانسان بيت الله بالقلب الخاشع والطرف المغضوض . والجنائز والقبور كلها تذكّر الزائرَ بالموت ، وتبعث في نفسه الشجى والحزن . وفي كل هذه المواقع ، تكون النزعات الجنسية إما معدومة في الانسان أصلاً ، أو يتغلب عليها ما هو أزكى وأطهر من المشاعر والعواطف . ولكن الشارع عليـه السلام لم يرض أن يختلط الرجال والنساء حتى في مثل هذه الجامع والمناسك. ولئن أذن لهن في الخروج إليها،أو أخرجهن بنفسه إليها في بعض الاحيان ، نظراً لنزاهة المقصـد وطهارة الموضع والمحل ، ورقة مشاعر الجنس اللطيف ، فإنه ألزم خروجهن بقيود من الحجاب . لا تترك للفتنة أدنى مجال . ثم صرح لجميع تلك العبادات ـ اللهم إلا الحج ـ أن عدم حضور النساء لها خيرٌ وأحسن من حضورهـا . فكيف تتوقع من القانون الذي ينزع هذه النزعة في أمر خروج المرأة لتلك الشعائر والعبادات، أن يجيز اختلاط الصنفين في المدارس والكليات والمكاتب والمعامل والمتنزهـات والمتفرجات ، والمقاهي والمراقص والمسارح والسينما ؟

(١) الترمذي ـ باب ما جاء في زيارة القبور للنساء

(٢) البخاري ـ باب زيارة القبور .

شهود النساء للحرب

أما وقد علمت مواضع الشدة في أحكام الحجاب ، فالتفت الآن إلى مواقع اللين والتسامح فيها ، وتبين الضرورات التي قد سامح الاسلام في تلك الأحكام لأجلها .

يبتلى المسلمون بالحرب،فتعظم الشدة ويعم البلاء . وتقتضي الأحوال أن توفر قوة الامة كلها للدفاع. في هذه الحال يبيح الاسلام لنساء الامة أن يشاركن الرجال في خدمات الحرب . ولكنه يلاحظ ـ مع ذلك ـ أن التي قد خلقها الله لأن تكون أماً رؤوماً ، لم تخلق ـ ولا شك ـ لضرب الاعناق وإهراق الدماء. فتسليحها بالرمح والسيف مسخ لفطرتها وطبيعتها . لذلك بينما يسمح لهن الاسلام أن يستعملن السلاح دفاعاً عن أنفسهن وأعراضهن ، لا يرضى أبداً استخدامهن للقتال وتطوعهن في الجندية . وإنما يريد أن يستخدمهن في الحرب لخدمات الاسعاف . كسقي المجاهدين ، وطبخ الطعام ، ومداواة المرضى ، وحفظ الرحال . ولأجل هذه الخدمات قد خفف جداً من حدود الحجاب وأجاز للنساء أن يلبسن لأجل القيام بها لباساً ، تلبسه اليوم الراهبات النصرانيات ، بقليل من التعديل .

وتتفق الاحاديث على أن أزواج النبي ونساء المسلمين كن يصحبن النبي ﷺ إلى ميدان القتال ، فيسقين المجاهدين ويداوين الجرحى .

وبقي العمل عليه جارياً بعد نزول الحجاب أيضاً (١) . وقد أخرج الترمذي أن رسول الله ﷺ كان يغزو بأم سليم ونسوة معها من الانصار ، يسقين الماء ويداوين الجرحى (٢) . وفي البخاري أن امرأة قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ! ادع الله أن يجعلني ممن يركبون البحر الاخضر في سبيل الله . فقال : اللهم اجعلها منهم (٣) . وعن أنس رضي الله عنه ، قال : لما كان يوم أحد انهزم الناسُ عن النبي ﷺ . قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم ، وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما ، تنقلان القرب على متونهما ، ثم تفرغانه في أفواه القوم ، ثم ترجعان ... (٤) . وامرأة أخرى أم سليط قد روى فيها عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ نفسه ، قال : « ما التفت يميناً ولا شمالاً يوم أحد إلا رأيتُ أم سليط تقاتل دوني ». وفي هذه الغزوة كانت الربيع بنت معوذ وجماعة من النساء تسقي الجرحى وترد القتلى إلى المدينة (٥). وفي غزوة حنين رُئيتْ أم سليم ومعها خنجر، فسألها النبي ﷺ : ما هذا الخنجر؟ قالت: اتخذته ، إن دنا مني أحد المشركين ، بقرتُ به بطنه .(٦) وغزت

---

(١) البخاري ــ باب حمل الرجل المرأة في الغزو

(٢) الترمذي ــ باب ما جاء في خروج النساء في الغزو .

(٣) البخاري ــ باب غزو المرأة في البحر

(٤) البخاري ــ باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال . ومسلم ــ باب النساء الغازيات يرضخ لهن .

(٥) البخاري ــ باب مداواة النساء الجرحى في الغزو .

(٦) مسلم ــ باب غزوة النساء مع الرجال .

أم عطية مع رسول الله ﷺ سبع غزوات . وكانت تخلفهم في رحالهم، وتصنع لهم الطعام وتداوي الجرحى وتقوم على المرضى (١) . وكتب ابن عباس رضي الله عنه إلى نجدة : قد كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء فيداوين الجرحى ، ويُحذَيْن من الغنيمة . وأما بسهم فلم يضرب لهن(٢) .

ولك أن تقدّر من كل ما سبق ، أن الحجاب الاسلامي ليس بشيء من باب التقاليد الجاهلية ، التي لا يمكن قط أن يزاد فيها أو ينقص منها للمصالح والضرورات . بل الحجاب في الاسلام قد يخفف من حدوده إذا اقتضت الضرورات الحقيقية . وعند ذلك لا يجوز كشف الوجه واليدين فحسب،بل يجوز كشف جانب من الاعضاء المعدودة في العورة أيضاً ، بقدر الضرورة . ولكن كلما زالت تلك الضرورات ، وجب أن يرد الحجاب إلى الحدود التي قررت له لعامة الاحوال . وكما أن هذا الحجاب لا يتسم بسمة الجاهلية ، كذلك ليس التخفيف منه أيضاً بمثابة الحرية والاباحية الجاهلية . وليست المرأة المسلمة كالمرأة الاوربية التي خرجت من حدود وظيفتها الطبيعية لضرورات الحرب ، ثم لما انتهت الحرب وزالت الضرورات ، أبت الرجوع إلى حدودها تلك .

---

(١) ابن ماجه ــ باب العبيد والنساء يشهدون مع المسلمين .
(٢) مسلم ــ باب النساء الغازيات يرضخ لهن .

خاتمة القول

هذه هي نقطة القصد والموقف الوسط الذي شد ماتفتقر اليه الدنيا لرقيها وهنائها وصلاحها الخلقي . وهي ـ كما ذكرت في بدء هذا الكتاب ـ لاتزال تخبط خبط عشواء في تعيين منزلة المرأة ـ أي منزلة النصف الكامل من كيان العالم الانساني ـ في التمدن ، منذ آلاف من السنين . فتميل تارةً إلى الإفراط وأخرى إلى التفريط . وقد أضرت بها هاتان النزعتان المتطرفتان ضرراً قد شهدت به التجارب والمشاهدات ، أما مابين هذين الطرفين المتناقضين من الموقف الوسط المعتدل الذي يوافق الفطرة والعقل ، ويلائم المصالح الانسانية كل الملاءمة ، فهو الذي قد جاء به الاسلام. ولكن المؤسف أنه قد قامت في هذا العصر الاخير حواجز بعضها من وراء بعض ، تحول دون فهم هذا الطريق المستقيم وتقديره حق قدره .

أهم هذه الحواجز أن الإنسان في عصرنا هذا قد ابتلي في بصيرته بداء كاليرقان . وأصيب المستغربون من أهل الشرق بنوع أخوف من هذا الداء، أسميه اليرقان الابيض. ومعذرة إلى الاخوان والاصدقاء لصراحتي هذه. ولكنها حقيقة لاتنكر، والحقيقة يجب ألا يمنع من إعلانها مداراةٌ .

إن من الحق الواقع أنه لم يأت الاسلام بحكم أو مسألة تخالف الحقائق العلمية الثابتة . بل الاصح أن كل ماهو حقيقة علمية في هذه الدنيا ، هو عين الاسلام . ولكن هذا الواقع لا تبصره إلا عين مجردة ترى الأشياء بلونها الحقيقي ، لابلون المنظار ، ولاتدركه إلا نظرة واسعة ترى كل أمر من جميع نواحيه لامن ناحية واحدة ، ولا يقبله إلا قلب رحب وفطرة سليمة تسلّم بالحقائق كما هي ، وبدل أن تجعلها تابعةً لأهواء النفس ونوازعها ، تجعل اهواءَ النفس تابعةً لها . وأمّا بدون هـذه الصفات ، فلا يُفيد حتى العلم والعرفان مهما زخر عبابُه واستفاض . ذلك بأن العين الملوّنة لن تُبصر شيئاً إلاّ بلونِ المنظار الذي يغشاها ، وأن النظرة المحدودة لن تنفذ من المسائل والشؤون إلاّ إلى النواحي التي تستقبل وجهتها. ثم إن الحقائق إن خلصَتْ الى باطن الانسان في صورتها الحقيقية، على الرغم من تلك الموانع كلها ، فهناك ضيقُ الذرع واعوجاجُ الطبع يعمل فيها عمله ، ويكرهها على أن تخضع لدواعي النفس ، وتطاوع ميولَها ونزعاتها . وإن هي لم تطاوعها ولم تخضع لها ، نبذَها وراء ظهره، مع علمه بأنها حقائق ، وراح يتّبع هواه ومن البديهي أنه إذا ابتُلي الانسانُ بهذا الداء العياء ، فلا يهديه شيء من العلم والتجربة والمشاهدة سواءَ السبيل ، ومن غير الممكن أبداً لمثل هذا المريض أن يفهم حكماً من أحكام الاسلام فهماً صحيحاً . لأن الاسلام دين الفطرة . بل هو الفطرة بعينها .ولم يتعذّرْ فهمُ الاسلام على دنيا الغرب إلاّ بسبب إصابتها

بهذا الداء. فكل ماعندها من (العلم)[1] هو برمّته إسلام. ولكن بصرها متلوّن. وإن تلوّن بصرها هذا قد تعدّى الى المتعلّمين الجُدُد من أهل الشرق، فغشّى على أبصارهم، وأصابها باليرقان الأبيض. وعاد هذا الداء يمنع هؤلاء أيضاً من استنباط النتائج الصحيحة من الحقائق العلمية، ومن النظر الى مسائل الحياة بالنظر الطبيعي المجرد. فالذين هم مسلمون منهم، قد يكونون، بلا ريب مؤمنين بالدين الاسلامي، معتقدين بصدقه غير مستنكفين عن اتباعه. ولكن أنّى لهؤلاء المساكين أن يُجنّبوا أعينهم أثر هذا اليرقان الذي لا ينظرون به الى شيء، إلا وهو يظهر لهم على غير حقيقته، وفي صبغة غير صبغة الطبيعية.

والحاجز الثاني دون الفهم الصحيح، هو أن الناس إذ فكروا عامّة في مسألة من مسائل الاسلام لا ينظرون الى النظام الذي تتعلّق به مجموعاً، بل هم يتناولون ذلك الجزء بعينه منفصلاً عن النظام. ويكون من نتيجة ذلك أن ذلك الجزء يبدو لهم خالياً من كل حكمة ومصلحة، وتخامر أنفسهم في بابه أنواع الشكوك. هكذا كان صنيعهم في مسألة الربا، إذ نظروا إليها منفصلة عن مبادىء الاقتصاد ونظام المعاش الذي جاء به دينُ الفطرة ـ الاسلامُ. فبدا لهم فيها كثير من المطاعن والمغامز. وعاد حتى أكابر أهل العلم يستشعرون بضرورة ترميمها وتغييرها على رغم أنف مقاصد الشرع. ثم أعيد هذا الخطأ الاساسي في مسألة الرق وتعدد

---

(١) المراد بهذا العلم هو علم الحقيقة لا النتائج المستخرجة من النظريات والحقائق.

الزوجات وحقوق الزوجين ، وما شابهها من المسائل . وهذا الخطأ عينه قد تناول مسألة الحجاب أيضاً بفساده . وانك إن حبست نظرك على عمود واحد من بناء مَّا بدل أن تنظر الى البناء بكامله، كنت لا ريب حرياً بان تعجب من أمره وتتساءل عن السبب لاقامة ذلك العمود بعينه ، وترى وجوده هناك خاليا من كل مصلحة ، ولا تفطن للمناسبة والتقدير الذي قد قدره المهندس في نصبه هناك لحمل البنـاء ، ولا للضرر الذي يلحق البناء كله إذا هدم ذاك العمود الواحد . فمثل هذا العمود هو الحجاب فإنه إذا فصل عن النظام الاجتماعي الذي هو منصوب فيه نصب عمود في البناء ، مراعاة لضرورة بعينها ومناسبة معلومة ، عميت على العيون جميع مصالحه ، ولم يستطع أحد أن يفهم السبب في ضرب الحدود الفاصلة بين الجنسين من النوع الانساني الواحد . لذلك من المحتوم اللازم لتفهم المرء منفعة العمود ومصلحته أن يصمد النظر إلى كامل البنـاء الذي هو منصوب فيه .

وها قد مر بك في الصفحات الماضية حجاب الاسلام الحقيقي . ومر بك أيضاً ذلك النظام الاجتماعي الذي وضعت لأجله قواعد هذا الحجاب . ووقفت على جميع أركان هذا النظام ، التي قد ربط بها ركن الحجاب باتزان مرعيّ ، ثم طالعت تلك الحقائق العلمية الثابتة التي قد بني عليها هذا النظام الاجتماعي الكامل . فتأمل هذه كلها ، ثم قل لي : اين ترى فيها من فطور ؟ وأين تجد فيها أثراً لانحراف عن القصد او عدول ؟ وأي

موضع فيها يمكن أن يقترح له اصلاح من جهة العلم والعقل المجرد دع عنك ميول طائفة من الناس مخصوصة. إني أقول على وجه البصيرة إن العدل الذي تقوم عليه السماوات والارض ، والاستواء والاعتدال الذي يمتاز به نظام هذا الكون ، والتناسب والاتزان التام الذي تراه في تركيب الذرّة ووثاقة النظام الشمسي ، هو هو الذي يقوم عليه هذا النظام الاجتماعي وأمّا ما يشين الاعمال الإنسانية من الإفراط والتفريط والميلان إلى جانب دون آخر ، فيخلو منه هذا النظام ويتبرّأ منه . وليس في طاقة الانسان أن يُعالجه بإصلاح أو ترميم . ولو أنه غيّر فيه أدنى تغيير بإقحام عقله الناقص فيه ، فلن يُصلحه ، بل هو أحرى بأن يُخلّ بتناسبه ويُفسده !

ويا لهف نفسي لا أملك من الوسائل ما أبلّغ به دعوتي إخواني الانسانيّين في أوربة وأميركا والشرق الاقصى ، فإنهم لا يزالون يُفسدون معيشتهم ، لا لسبب سوى كونهم لم يهتدوا بعدُ إلى نظام صحيح معتدل للتمدّن ، وقد جرّوا إلى الخراب أمماً أخرى أيضاً معهم . وليتني أستطيع أن أدلهم على ماء الحياة الذي هم إليه ظماء، وإن كانوا لا يشعرون بظمئهم . على أنّ مواطنيّ من الهنادك والنصارى والمجوس ، على كثب مني ، ومعظمهم يفهمون لغتي . فها أنا ذا أدعوهم إلى أن يطهروا قلوبهم مما ران عليها من التعصب على الاسلام ، بسبب نزاعهم التاريخي والسياسي مع المسلمين ، ويطالعوا هذا النظام الاجتماعي الاسلامي الذي قد ذكرت

خصائصه كما هي ، في هـذا الكتاب ، طالبين للحق ملتمسين لمناله ، ثم يوازنوا بينه وبين النظام الاجتماعي الغربي الذي هم ساعون إليـه مفتتنون به . فيحكموا لا لأجل رضاي أو رضى غيري ، بل لأجل مصلحتهم هم أنفسهم : أي الطريقين يضمن لهم الفلاح الحقيقي ؟

وبعد خطابي هذا لعامة القراء ، أريد أن التفت إلى اخواني الضالين الذين يدعون (مسلمين) ، لأقول لهم بضع كلمات :

إن من إخواننا المسلمين الجدد من يسلّمون بكل ما مضى بيانـه في هذا الكتاب ولكنهم يقولون : إن قوانين الاسلام إذا كانت تتسع لكثير من الشدة والتخفيف وفقاً لأوضاع العصر، مما لا تنكره أنت أيضاً، فالذي نتوخاه – أبناء هذا العصر – هو أن نتمتع بالرخصة في تلك القوانين . وذلك أن حوال هذا العصر تقتضي أن يخفف من حدود الحجـاب . والحاجة ماسة إلى أن تخرج البنات المسلمات إلى المدارس والكليـات ، ليتلقين تعليماً عالياً ويتحلين بتربيـة تؤهلهن لفهم مسائـل الوطن في نواحي التمدن والاجتماع والسيـاسة والاقتصاد ، وترشحهن لفض مشاكلها وحل معضلاتها . وبدون ذلك لابد أن يتخلف المسلمون عن الامم المجاورة لهم ، في ركب الحياة. ويخشى أن يخسرون بذلك في آتي أيامهم أكثر مما قد خسروه إلى الآن . ثم إن الحقوق السياسية التي قد قضوا أخيراً باعطائها للمرأة في بلادنا ، إن لم تتأهل نساؤنا المسلمـات للتمتع بها ، أو لم يمكنهن التمتع بها لقيود الحجاب وأغلاله ، شالت كفة

المسلمين في ميزان السياسة الوطنية ، وكفى به من خسران ! وها بين يديك مثل الامم الراقية في العالم الاسلامي، كتركيا وايران، فكلتاهما قد خففت (١) من حدود الحجاب الاسلامي مراعاة لأوضاع هذا العصر ، فعاد ذلك عليها بفوائد لا تنكر ، في بضع سنين وأي ضير علينا لو تمثل في ذلك أمثالهم ، فنجني من فوائده مثل ما نالهم ؟.

كل هذه المخاوف والاخطار التي يحذرنا إياها إخواننا ، نحن نسلم بها جميعاً كما هي ، بل أضف اليها عشرة أضعاف أمثالها إن شئت . ولكن أي غناء يغنيه ذلك ؟ وهل شيء من تلك المخاوف مما يجوز لأجله أن يتناول القانون الاسلامي بترميم أوتخفيف ؟ إنما مثلهم ازاء تلك الأخطار كمثل رجل يعيش في وسط نجس وخيم ، إماراضياً ، لحماقته ، أو كارهاً ، لضعفه . فيتعذر عليه العمل بقواعد حفظ الصحة ، بل يتعسر عليه العيش بدون أن يتلوث بالقذر في تلك الكورة من أهل النجس . فواضح أن الرجل في مثل تلك الحال لا يحق له أن يطالب بإصلاح قواعد الصحة أو التخفيف منها . لأنه إن كان مؤمناً بصحة تلك القواعد فعليه أن يحارب بيئته لأجلها ويطهرها من نجسها . وإن كان لا يجد في نفسه القوة والجراءة لمحاربة بيئته، وكان لضعفه قد انهزم في وجهها ، فليبق فيها مايشاء ، مرتطماً في حمأتها ، وما المبرر لأن تبدل

(١) نعم يقولون (قد خففت) على سبيل الجدل لا غير ، وإنما الحق ان كلا منهما قد نسخت آية الحجاب نسخاً .

لأجله قوانين الصحة ، أو يخفف منها؟ وأما إن كان يعتقد حقاً أن قوانين الصحة المعروفة خاطئة وكان قد ألف بنفسه ما حوله من النجس والدنس، فهو حر في أن يخترع لنفسه مايشاء من قانون،ويدع قوانين الصحة والصفاء والطهارة جانباً ، لأنها ما كانت لتتسع لأهواء المائلين بطبعهم إلى القاذورات !

ولاشك أن القانون الاسلامي ـ كسائر القوانين ـ يتسع لكل من الشدة والتخفيف باعتبار الأحوال والاوضاع ولكنه كجميع تلك القوانين ، يُصر على أن يُنظر إلى تلك الاحوال بوجهة نظره وبروحه الخاصة لأجل القضاء بتشديد فيه أوتخفيف وأما النظر إلى الاوضاع والاحوال بوجهة غير وجهته ، ثم العمد إلى بنود القانون بالقطع والبتر بقصد التخفيف منها ، فما هو تخفيف ، بل هو تحريف واضح صريح. ذلك أن الاوضاع التي ينظر اليها القوم بغير وجهة نظر الاسلام ، ثم يطالبون بأن يخفف لأجلها من القانون الاسلامي ، إن تأملها عاقل من وجهة نظر الاسلام ، فلا بد أن يحكم بأنها لاتتطلب تخفيفاً في القانون، بل مزيداً من الشدة فيه. فإن القوانين لايخفف منها إلا إذا كانت مقاصدها لاتزال تتحقق بسهولة بالوسائل الخارجية الأخرى،ولم تكن هناك حاجة إلى زيادة الشدة في التحفظات.وأما إذا كانت مقاصد القانون لاتتحقق بالوسائل الخارجية ، بل كانت جميع القوى الخارجية قد تألبت عليها لتضييعها . وكان حصول تلك المقاصد قد عاد متوقفاً على التحفظات

وحدَها، فلا يقول بالتخفيف من القانون في مثل هذه الظروف إلاّ من جهل روحه كل الجهل .

وقد فصّلنا القول فيما سبق من الابواب أن مقصد القانون الاجتماعي الاسلامي هو حفظ ضابط الزواج، ومنع الفوضى الجنسية، وسدّ الحركات الشهوانية غير المتدلة. ولتحقيق هذا المقصد قد اتّخذ الشارع تدابير ثلاثة: أولها إصلاح الاخلاق، والثاني: الحدود والعقوبات، والثالث: التدابير الوقائية. وكأن هذه التدابير أركان ثلاثة قد رفع عليها هذا البناء . وعلى إحكامها وقوّتها يتوقف إحكامه . وفي هدمها هدم البناء كله . فتعالوا الآن ننظر في أحوال بلادنا الحاضرة ، لنرى ماذا عليه هذه الاركان الثلاثة من القوة والإحكام .

خذوا قبل كل شيء ما حولكم من البيئة والوسط الخلقي . إنكم تعيشون في قطر لا يزال ثلاثة أرباع سكانه غير مسلمين ، لتقصيركم أنفسكم في جنبهم في الغابر والحاضر ، تحكمه أمة غير مسلمة (١) ، ثم قد طبّقته حضارة أجنبية كالريح العاصفة ، وانتشرت في أجوائه مبادىء الاخلاق الجاهلية ، وتصورات الحضارة غير الاسلامية ، كانتشار جراثيم الأوبئة حتى تسمّم بها الفضاء ، فأحاطت بك سميتها من كل جانب . وقد آلت

(١) كتب هذا الكتاب في زمان كان شبه القارة الهندية فيه قطراً واحداً تحت حكم الانكليز . والآن وإن جلا الانكليز عن هذه البلاد ،وعاد عدد غير المسلمين في باكستان لايزيد على ١٠٪ من سكانها . إلا أن الحال قد انقلبت تحت حكم المسلمين المستغربين من سيء إلى أسوأ .

الحال إلى أن مظاهر الخلاعة والفحش التي كانت تقشعر من تصورهـا جلودكم قبل مدة من السنين ، قد بلغ من إيلافكم لها أن صرتم تنظرون إليها كالأعمال العادية . حتى إن صغاركم يمرّون كل يوم على الصـــور الخليعة في الجرائد والمجلات والإعلانات ، فيتعودون التبذل والمجـون . وإن شيوخكم وشبيبتكم وصبيانكم يتفرجون كلهم على الافلام السينمائية التي أجذب ما فيها العري وأروع ما فيها الخلاعة والحب الشهواني ، ولا يتأثمون ! وإن أفراد عائلاتكم بين آباء وأبناء وأمهات وبنات وإخوان وأخوات ، يشاهدون كلهم في تلك الافلام مناظر المخالطة والعناق والتقبيل ، جالسين بعضهم الى جنب بعض ، ولا يستحيون ! ثم لاتزال أخبث أنواع الاغاني وأدعاها الى الشهوات تملأ الجو في البيت والشارع والمتنزهات ، ولا يكاد أحد يسلم منها بسمعيه . هذا والآنسات والسيدات من الطبقات المثقفـة العليا — الأهلية والأجنبية — يتبخترن في الماشي والطرقات بلباس عريان شفاف . وقد بلغ من تعود الانظار لتلك الأزياء الفاضحة أن لا يشعر أحد منا بشيء من الوقاحة والخلاعة فيها . وإن التصورات الخلقية الـتي لاتزال تنتشر في البلاد بفضل نظام التعليم والتربية الغربي ، قـد جعلت النكاح في أعين الناس عرفاً بالياً قد مضى زمانه ، والزنى لهواً وشغلا ، واختلاط الأناثي والذكور شيئاً لا مطعن فيه ، بل أمراً مستحسناً ، والطلاق ألعوبة ، والواجبات الزوجية قيـداً مستثقلا ، والتوالد والتناسل حمقاً وسفاهة ، وإطاعة المرأة لزوجها ذلاً وعبودية . مما كره إلى المرأة أن تكون حليلة زوج ، وحبب إليها أن تظل خليلة عشاق !

ثم انظروا الى آثار هذه البيئة الموبوءة في أمتكم. فهل يرى في مجتمعكم من يغض بصره عما لا يحل ؟ وهل في آلاف من أناسكم رجل واحد يتأثم من التلذذ برؤية جمال الأجنبيات ؟ وهل الزنى بالعين واللسان لا يُرتكب علناً ؟ وهل نساؤكم أيضاً يتجنبن تبرجَ الجاهلية وإظهار الزينة وإبداء مفاتن الجمال ؟ وهل لا تلبس أزواجكم وبناتكم اليوم نفس اللباس الذي قال النبي ﷺ في لابساته : « نساء كاسيات عاريات مميلات مائلات»؟ ثم ألستم ترون أخواتكم وبناتكم وأمهاتكم في لباس لا يجوز للمسلمة أن تلبسه إلا لزوجها وحده ؟ وهل لا تحكى وتُسمع في مجتمعكم قصص الحب والغرام وأحاديث الخلاعة والمجون، بدون تحرج ولا حذر ؟ وهل يتردد الناس في نواديكم عن ذكر أحوال فجورهم ؟ وإذا كان جواب كل ذلك كلمة «لا» مكبرة مفخمة وكانت الحال على ما هي عليه ، فقل لي بحقك أين تجد ذلك الركن الاساسي الامتن — تطهير الاخلاق — الذي بني عليه صرح الاجتماع الاسلامي ؟ إنما الغيرة الاسلامية قد امحت من النفوس الى حد أنقد أصبحت النساء المسلمات يعبث بأعراضهن لا المسلمون وحدهم ، بل الاجانب من غير المسلمين ايضاً . وليس ذلك واقعاً في حكومة أجنبية ، بل هو واقع على رؤوس الاشهاد في الولايات الهندية المسلمة . وكل ذلك يمر عليه المسلمون ولا يتحرك في قلوبهم ساكن. بل قد وجد فيهم من بلغوا من النذالة أن أخواتهم أنفسهم تمتع باجسامهن أحد على غير المسلمين . فتبجحوا بذلك وأعلنوا بكل فخار أنهم أصهار

كافر فلاني كبير [1] وهل بقي بعد ذلك درجة من الوقاحة والصفاقة والابتذال الخلقي يهبط اليها المسلمون ؟!

ولنتوجه بعد ذلك الى الركن الثاني لهذا البناء ، ونتفقد حاله . قد بطل في هذا القطر قانون العقوبات الاسلامي بأكمله . فلا تجرى حدود الزنى والقذف، لا في الهندالبريطانية ولا في الولايات المسلمة . وليس هذا فقط . بل القانون النافذ في القطر الهندي في هذه الآونة لا يعد الزنى جريمة أصلاً[2] فان أراد بعض الفساق أن يراود آنسة كريمة عن نفسها ويحملها على الدعارة والفجور، فليس بأيديكم من وسائل القانون ما تصونون به كرامتها. وإن سافح رجل امرأة بالغاً بغير حق ، عن رضاها وموافقتها، فلا يمكنكم أن تعاقبوه عليه في أي قانون من القوانين . ثم إن عزمت امرأة على البغاء علناً ، فليس عندكم من القوة ما تأخذون به على يديها . أما القانون فلا يعد الا الزنى بالاكراه جريمة . ولكن سل المتعاطين لحرفة القانون : أي صعوبة يواجهونها في إثبات الاكراه في الزنى من الجهة القانونية . وكذلك إغواء المرأة المتزوجة أيضاً جريمة . ولكن سل العالمين بالقانون الانكليزي ماذا يكون بايدي المحاكم العاملة بهذا القانون لو أن متزوجة تتسلل بنفسها وبرضاها إلى بيت رجل أجنبي .

---

(١) هذا مما وقع في جنوبي الهند . وقد ذكر لي بعض الاصدقاء ما هو أدهى من ذلك وأمر . وهو أن امرأة مسلمة ـ بالاسم ـ في شرقي الهند خادنت ثريا من غير المسلمين علنا . فأصابت بفضل علاقتها الآثمة به ثروة طائلة. فقال الصديق، إنه كثيراً ما رأى المسلمين - الجغرافيين - في تلك النواحي يغتبطون بانتقال مثل تلك الثروة العظيمة من يد غير مسلم إلى (المسلمين) ، وانا لله وانا اليه راجعون !

(٢) ولا تزال عليه الحال حتى بعد تأسيس دولة باكستان المسلمة .

هذه حالة نظامكم الاجتماعي . قد انهدم من أركانه هذان الركنان القويان ، فهو قائم على الركن الثالث وحده . فهل تشاؤون أن تهدموا هذا الركن الباقي أيضاً ؟ إن بجانب منكم تلك المضار التي قد عددتموها آنفاً للحجاب، وبجانب، آخر أن إلغاء الحجاب معناه جر الخراب الكامل الشامل على الاخلاق وعلى النظام الاجتماعي . فلكم أن توازنوا بين هذا وذاك . إنهما لاشك بليتان . ولا بد من اختيار إحداهما فاستفتوا قلوبكم أي هاتين البليتين أهون شراً وأخف ضرراً ؟

ولئن كان الفصل في الامر موقوفا على أوضاع هذا العصر ، فأقول إن أوضاع بلادنا لاتطلب تخفيفاً في الحجاب ، بل هي تتطلب مزيدا من العناية بأمره . ذلك بانه قد انهدم ركنان اثنان من الاركان التي يقوم عليها نظامكم الاجتماعي، ولم يبق الاركن ثالث، عليه كل المعول والمعتمد. فان كنتم تريدون حل مسائل التمدن والاقتصاد والسياسة ، فلكم أن تديروها وتتباحثوا فيها مجتمعين . لعلكم تهتدون إلى صور متبادلة لحلولها في حدود التعاليم الاسلامية . ولكن لاتحيفوا لأجل ذلك من قوة هذا الركن الاساسي الوحيد الذي قد بقي على غير الحدثان وناله ضعف كثير. وعليكم ، قبل أن تعالجوه بالتخفيف ، أن تجمعوا من القوة والسلطة ما يطأ هامة كل شر ناجم . حتى إن كان في المجتمع عينان اثنتان تحملقان الى امرأة قد خرجت من بيتها سافرة ، كانت فيه في الوقت نفسه مئتون يداً ، تمتد اليها لتقتلعها من محجريها ! !

الفهرس